مجلة الهدى

مجلة فصلية علمية تعنى بالشؤون الحوزوية والمعرفة الدينية

السنة الحادية عشر / العدد السابع والأربعون / لسنة ١٤٤٢هـ

مركز الهدى للدراسات الحوزوية

العراق . النجف الأشرف

مركز الهدى للدراسات

مؤسسة فكريّةٌ تنشطُ في ميدانِ البحثِ والمساهمةِ في تطوير الفكر الإسلامي المعاصر؛ إيماناً منها بقدرة الإسلام ومدرسة أهل البيت عليهم السلام على تقديم البديل الحضاري للإنسان، وتُعنى بالدّراسات الفكريّة والسياسية والتاريخية لحوزتي النجف الأشرف وقم المقدّسة؛ رغبةً منها في ترسيخ الثوابت، والوقوف بوجه الفكر الدّخيل.

مجلة الهدى

مجلة فصلية علمية تعنى بالشؤون الحوزوية والمعرفة الدينية

السنة الحادية عشر / العدد السابع والأربعون / لسنة ١٤٤٢ هـ

الإشراف العام
محمد صادق الهاشمي

رئيس التحرير
أ. عباس النوري

التنسيق والمتابعة
محمد حميد الهاشمي
عصام الساعدي

معد الترجمة الفارسية
حسن علي مطر

هيئة التحرير

- أ. سمير العطواني
- أ. هادي بدر الكعبي
- أ. ضياء كاظم الهاشمي
- أ. عمار الولائي
- أ. حيدر آل وشاح
- أ. إبراهيم الأسدي
- أ. منى عبد الرحمن

الهيئة الاستشارية

- السيد يوسف الحلو
  - أستاذ حوزة النجف الأشرف
- السيد جابر الموسوي
  - أستاذ في الحوزة العلمية
- الشيخ حسين السعيدي
  - أستاذ في الحوزة العلمية
- الدكتور أسامة السعيدي
  - جامعة النهرين
- الدكتور علي عبد الأمير
  - جامعة بغداد
- الدكتور سمير الأسدي
  - جامعة بابل
- الدكتور علي فياض
  - جامعة طهران

الإخراج الفني
أحمد الهاشمي
Ahmad Al-Hashemi

مجلة الهدى

العدد: السابع والأربعون / السنة الحادية عشر/ ١٤٤٢هـ

الناشر: مركز الهدى للدراسات الحوزوية

المطبعة: الصنوبر

قطع الورق: ١٧ × ٢٤ سم

عدد الصفحات: ٢١٠ صفحة

التصميم والاخراج الفني: أحمد الهاشمي

سنة الطبع: ٢٠٢١ م ـ ١٤٤٢ هـ

- البحوث الواردة في مجلة المنهج تعبّر عن رأي كاتبها.
- ترتيب البحوث خاضع لاعتبارات فنيَّة

هَوِيَّةُ المَجَلَّة:

مجلَّة [الهدى] فصلية علمية تعنى بالشـــؤون الحوزوية والمعرفة الدينيـــة، تصدرُ عن مركز الهدى للدراســـات الحوزوية، تعنى بالفكر الإســـلاميِّ المســـتنير وما يتَّصل به من المجالاتِ والتخصُّصات، في الشـــريعةِ والتأريخِ والقانونِ والفلســـفةِ وعلم الـــكلام الجديدِ والعلوم الإنسانيَّة المختلفة، مضافاً للفكري الحوزوي وتاريخ المرجعية والفكر المقاوم.

شُرُوطُ الكِتَابَة:

١. يتراوح حجمُ البحث بين (١٠ ـ ٢٥) صفحةً بحجم (A٤).
٢. ينضَّـــد البحثُ على قرصٍ مدمـــجٍ (CD)، أما التصحيحُ اللغويُّ فتتكفَّل به المجلَّة.
٣. يجب أن لا تكون البحوثُ منشورةً سابقاً، في الصحف أو الدوريات أو مواقع الإنترنت على الإطلاق، وأن يتعهَّد الكاتب بعدم نشـــره في مكانٍ آخر إلا بعد أخذ الموافقة من المركز.
٤. تخضع البحوث لتسلســـلٍ فنيٍّ في النشر، ولا يحقُّ للكتّاب الإعتراضُ على تأخير نشر المادَّة، لأنه أمرٌ تابعٌ لهيأة التحرير حصراً.
٥. تُقبل البحوثُ والدراساتُ المكتوبة بلغةٍ ثقافية مميزة، أما البحوث الضعيفةُ فتهمل ولا تعادُ إلى أصحابها.
٦. المجلَّة ليســـت ملزمةً بإرجاع الموادِّ إلى أصحابها، سواءٌ نشرت أم لم تنشر.
٧. يرفق الباحث ملخصاً مع البحث لا يزيد على نصف صفحة.
٨. تكون الهوامش متسلسلة في الصفحة نفسها لا في نهاية البحث.

المحتويات

الإمام الخامنئي دام ظله

المنطقة الإسلامية بأسرها باتت ساحة لنهوض المقاومة في مواجهة شرور أمريكا وحلفائها

١٧ في رحاب الفكر المقاوم

١٩ الإمام الخامنئي وفقه المستقبل - قراءة تحليلية -
د. حسام مطر

٣٣ الإمام الخميني منهج ومواقف
الاستاذ الشيخ عبد الوهاب حسين

٦٥ محور العدد:
ثورة العشرين أصالة النهج المقاوم والتلاحم الاجتماعي

٦٧ دور النجف والحوزة العلمية في الثورة العراقية الكبرى عام (١٩٢٠م) والانتفاضات الوطنية الأخرى
السيد العلامة محمد صادق بحر العلوم

١١٩ الشيخ محمد تقي الشيرازي ودوره في الثورة العراقية عام ١٩٢٠ - دراسة تاريخية -
د. جاسم محمد إبراهيم اليساري

١٥١ الهوية الوطنية لثورة العشرين في العراق - مراجعة تاريخية -
أ. د. أسامة عبد الرحمن

١٦٧ أبعادُ المعرفةِ

١٦٩ ابنُ خلدون والشهيدُ الصدرِ - مدخلٌ لدراسةٍ مقارنةٍ في الفكرِ والمنهجِ -
الشيخ عبد اللطيف الحرز

٢٠١ الفيزياءُ الحديثةُ وأدلةُ وجودِ اللهِ تعالى
د. عبدالحكيم النقيدان

الإمام الخامنئي دام ظله:

المنطقة الإسلامية بأسرها باتت ساحة لنهوض المقاومة في مواجهة شرور أمريكا وحلفائها

وجّه قائد الثورة الإسلامية المعظم سماحة الإمام السيد علي الخامنئي نداءً للمسلمين في العالم بمناسبة حلول موسم الحج (لعام ١٤٤٢ هجري)، اعتبر فيه إستمرار شوق القلوب المتحمسة للحضور في ضيافة بيت الله، بأنه اختبار عابر، مشدداً على ضرورة عدم التقليل من رسائل الحج، معتبراً المقاومة ضد القوى المعتدية، وخاصة أمريكا من ضمن هذه الرسائل الرفيعة.

وفي إشارة إلى مشاكل ومآسي العالم الإسلامي، وصف سماحته صعود عناصر المقاومة والصحوة، خاصة في فلسطين واليمن والعراق بأنها من الحقائق الباعثة على الأمل للمنطقة الإسلامية، مؤكدا بالقول: الوعد الإلهي الصادق هو نصرة المجاهدين، وأول آثار هذا الجهاد، صد أمريكا وباقي المتغطرسين عن التدخل والممارسات الشريرة في البلدان الإسلامية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين وصحبه المنتجبين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أيها الأخوة المسلمون.. أيتها الأخوات المسلمات في أنحاء العالم.

في هذا العام أيضًا حُرمت الأمة الإسلامية من نعمة الحج الكبرى، والقلوب

المشتاقة، فقدت بحسرة وأسف ضيافة أقامها للناس الربّ الحكيم الرحيم.

هذه هي السنة الثانية التي تبدّل فيها موسم الحج بما فيه من بهجة وسرور معنويان إلى موسم حسرة وفراق، إذ إن بلاء الجائحة، ولربّما بلاء السياسات الحاكمة على أرض الحرمين الشريفين، قد حرم أعين المؤمنين التوّاقة من أن تشاهد رمز الوحدة للأمة الإسلامية وعظمتها ومعنويتها، وغطى هذه القمة العظيمة الشامخة بالضباب والغبار.

هذا اختبار مثل غيره من الاختبارات العابرة في تاريخ أمتنا الإسلامية، وربّما يُسفر عن غد مشرق بإذن الله تعالى.

من المهم أن يبقى الحج في تكوينه الحقيقي حيًا في قلب كل مسلم وروحه، وإن غاب موقتًا في إطاره المناسكي، فإن رسالته السامية ينبغي أن لا تفقد بريقها.

الحج عبادة مليئة بالرموز والأسرار، وتركيبته الرائعة من حركة وسكون تبلور هوية الفرد المسلم والمجتمع المسلم، وتعرض أمام أعين العالم ما فيه من روعة وجمال. إنه من جهة يرتقي بقلوب العباد إلى عروج معنوي بالذكر والتضرّع والخشوع، فيقرّبهم من الله سبحانه، وهو من جهة أخرى وبما يفرضه من ملبس موحّد ومسيرة موحّدة وحركات متناسقة يوثّق الارتباط بين الإخوة القادمين من كل أنحاء العالم، ويعرض من جهة ثالثة بمناسكه المفعمة بالمعاني والأسرار أسمى رموز الأمة الإسلامية أمام أنظار العالم، كما يبين عزم الأمة وعظمتها أمام من لا يضمرون خيرًا لها.

لم يعد حج بيت الله الحرام متاحًا هذا العام، لكن المتاح هو التوجه نحو ربّ البيت والذكر والخشوع والتضرّع والاستغفار. إنّ الحضور في عرفات ليس ميسّرًا، لكن الدعاء والمناجاة التي تعمّق المعرفة في يوم عرفة ميسّرة للجميع. رمي الشيطان في منى غير ممكن، ولكن التصدي لشياطين الهيمنة وطردهم ممكن

في كل مكان. الحضور الموحّد بالأجساد حول الكعبة غير متاح، لكن الحضور الموحّد للقلوب حول الآيات النيّرة للقرآن الكريم والاعتصام بحبل الله واجب دائم ومستمر.

نحن أتباع الرسالة الإسلامية بما نمتلكه من نسبة كبيرة من سكان العالم، وأصقاع مترامية، وثروات طبيعية طائلة، وشعوب حية ومستيقظة نستطيع أن نرسم المستقبل بهذا الكم الهائل من الرصيد والإمكانات. الشعوب المسلمة في الأعوام المائة والخمسين الأخيرة لم يكن لها دور في مصير بلدانها وحكوماتها وكانت تُدار تمامًا بسياسات البلدان المعتدية الغربية، وتعبث بها أطماع هذه البلدان وتدخلها وشرورها ما عدا بعض الاستثناءات المحدودة. إن التخلف العلمي والتبعية السياسية التي نراها اليوم في كثير من البلدان هي حصيلة ذلك الضعف والانفعال.

إن شعوبنا، وشبابنا، وعلماءنا الدينيين والأكاديميين، والمثقفين المدنيين والسياسيين والأحزاب والجمعيات يتحملون جميعهم مسؤولية النهوض ليتلافوا ما اعترى ماضينا من صفحات مخجلة خالية من أي افتخار، و« يقاوموا » تعنّت القوى الغربية وتدخلها وشرورها.

إن البيت القصيد في خطاب الجمهورية الإسلامية والذي يثير قلق عالم الاستكبار وغضبه هو الدعوة إلى المقاومة، وهي المقاومة بوجه تدخل أمريكا وشرورها، هي وغيرها من القوى المعتدية، حتى يمسك العالم الإسلامي بيده زمام أمور مستقبله مستندًا إلى تعاليم الإسلام ومعارفه.

من الطبيعي أن أمريكا ومن لفّ لفّها يتحسّسون من عنوان « المقاومة » ولذلك يواجهون « جبهة المقاومة الإسلامية » بأنواع العداء. وانسياق بعض حكومات المنطقة مع هؤلاء هو واقع مرّ يساعد بدوره على استمرار تلك الشرور.

الصراط المستقيم الذي ترسمه مناسك الحج بما تنطوي عليه من طواف وسعي

ووقوف في عرفات ورمي الجمرات وشعائر وعظمة ووحدة، إنما هو التوكل على الله والتوجه نحو قدرته التي لا تزول والثقة الوطنية بالذات والإيمان بالسعي والمجاهدة، والعزم الراسخ على الحركة، والأمل الكبير بالنصر.

وقانع الساحة في المنطقة الإسلامية تزيد من هذا الأمل وتقوّي ذلك العزم. فمن جهة ما يعاني منه العالم الإسلامي من مصائب، والتخلف العلمي والتبعية السياسية، والوضع الاقتصادي والاجتماعي المتردي، كله يضعنا أمام واجب كبير ومجاهدة لا تعرف الكلل والملل. فلسطين المغتصبة تستنجدنا، واليمن المظلوم المضمّخ بالدماء يوجع قلوبنا، ومصائب أفغانستان تقلقنا جميعًا، والحوادث المرة في العراق وسوريا ولبنان وبعض البلدان الإسلامية الأخرى حيث يد شرور أمريكا وبطانتها مشهودة فيها، تثير غيرة الشباب وهمتهم.

ومن جهة أخرى، نهوض عناصر « المقاومة » في هذه المنطقة الحساسة، ويقظة الشعوب، وهمّة جيل الشباب المفعم بالنشاط، يغمر القلوب بالأمل ؛ فلسطين في كل ربوعها تسلّ « سيف القدس » من غمده ؛ القدس وغزّة والضفة الغربية وأراضي ٤٨ والمخيمات تنهض بأجمعها، وخلال اثني عشر يومًا تمرّغ أنف المعتدي بالتراب ؛ اليمن المحاصر والوحيد يتحمل سبع سنين من الحرب والإجرام وقتل المظلومين على يد عدوّ شرور وقسيّ القلب، ومع وجود قحط الغذاء والدواء وإمكانات الحياة، لا يستسلم للظالمين، بل يجعلهم مذعورين بما يبديه من اقتدار وابتكار ؛ وفي العراق تدحر عناصر « المقاومة » بلغة صريحة واضحة أمريكا المحتلة وعميلها داعش وتبدي عزمها الراسخ دون تلكّؤ لمواجهة أي نوع من التدخل والشرور من قبل أمريكا ومن لفّ لفها.

إن المحاولات الإعلامية الامريكية لتحريف ما يبديه الشباب الغيارى وعناصر المقاومة من عزم وإرادة ونشاط في العراق وسوريا ولبنان وبلدان أخرى، ومحاولة

نسبة كل ذلك إلى إيران أو أية جهة أخرى، هي إهانة للشباب الشجاع اليقظ، وهي تدلّ على ضعف الأمريكيين في فهمهم ودركهم لشعوب هذه المنطقة.

هذا الفهم الخاطئ نفسه أدى إلى تحقير أمريكا في أفغانستان، إذ بعد الضجيج الذي أثارته لدى دخولها في هذا البلد قبل عشرين عامًا، وبعد أن شَهَرت السلاح وألقت القنابل وأضرمت النيران أمام الشعب الأعزل من المدنيين أحسّت أنها غرقت في مستنقع وأن عليها أن تخرج منه بقواتها وأجهزتها العسكرية. طبعًا على الشعب الأفغاني اليقظ أن يراقب الأجهزة الاستخباراتية وأسلحة الحرب الناعمة الأمريكية في بلده ويتصدى لها بوعي.

إن شعوب المنطقة أثبتت أنها يقظة وواعية وأنّ توجهها ومسيرها يفترق عن بعض الحكومات التي دفعها السعي لإرضاء أمريكا إلى أن ترضخ لإرادتها تجاه قضية فلسطين الحياتية ؛ الحكومات التي تتزلف للكيان الغاصب الصهيوني سرًا وعلانية إنما هي تتنكر لحق الشعب الفلسطيني في وطنه التاريخي، وهذا يعني سرقة الحق الفلسطيني. إن هؤلاء لم يكتفوا بنهب الموارد الطبيعية لبلدانهم، فاتجهوا الآن إلى الإغارة وعلى ثروات الشعب الفلسطيني.

أيها الإخوة والأخوات !

منطقتنا وحوادثها المتنوعة المتسارعة مسرح فيه الصبر والدروس. فيه الاقتدار الذي تخلقه المجاهدة والمقاومة بوجه المعتدي المتغطرس وفيه من جهة أخرى الذلة الناتجة عن التسليم وإظهار الضعف وتحمّل ما يفرضه المعتدي.

إن الوعد الإلهي الصادق يقضي بنصرة المجاهدين في سبيل الله: ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ وأول أثر لهذه المجاهدات غلق الأبواب أمام أمريكا وغيرها من المتعنتين الدوليين ومنعهم من التدخل وإثارة الشرور في البلدان الإسلامية إن شاء الله تعالى.

سلامًا وتحية لحضرة بقية الله أرواحنا فداه، وأسأل الله سبحانه أن يمنّ بالنصر على شعوبنا الإسلامية وأن يرفع درجات الإمام الخميني العظيم والشهداء الأبرار.

والسلام على عباد الله الصالحين

سيد علي الخامنئي

٦ذي الحجة ١٤٤٢ هجرية قمرية

٢٦تير ١٤٠٠ هجرية شمسية

١٧تموز ٢٠٢١م

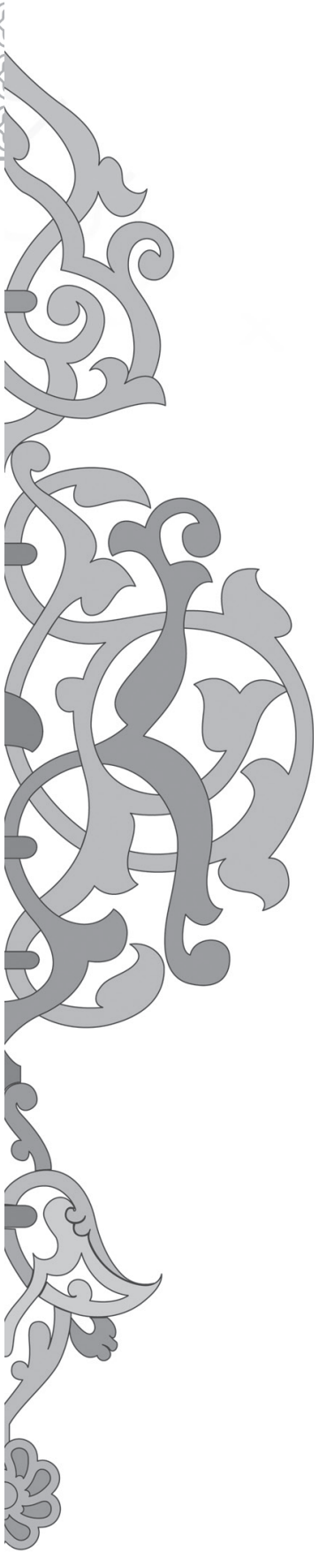

في رحاب الفكر المقاوم

الإمامُ الخامنئيُّ وفقهُ المستقبلِ

- قراءةٌ تحليليّةٌ -

❖ د. حسام مطر[1]

(١) باحث وكاتب / لبنان.

تنطلق نظرة الإمام للمستقبل من مبانٍ ومقدّمات دينية وعقائدية وفكرية وأخلاقية في النظرة إلى الخلق والوجود والعالم والإنسان والمجتمع (مثلاً المجتمع الديني لا يكون بالتديّن الفردي، بل حين تتشكّل العلاقات الاجتماعية على أساس الأصول والقيم الدينية) سنتجاوز تفصيلها هنا كونها محدّدة وواضحة ولضيق المقام. في ما يلي نستخلص جملة من الأسس في منهجية الإمام الخامئني للنظر إلى المستقبل:

أولاً: العمل للمستقبل تكليف. يظهر المستقبل لدى العديد من الاتجاهات الدينية كأمر متروك للغيب تماماً ويجري الانصراف للتعامل مع ما هو قائم ومتحقّق مع الرهان على نبوءات أو « وعود » تتكفّل هي بتحديد شكل المستقبل. لا شك في أنّ الغيب فكرة أصيلة في منهج الإمام الخامنئي، ولكنّه من موقع قيادته لمشروع بحجم الثورة الإسلامية والأمّة الإيرانية يحتكم في النظر إلى المستقبل، إلى عقلانية تامّة تستند إلى حافزية وسنن مستمدة من الغيب بدل أن يكون الأخير قيداً عليها ومعطّلاً لها.

مع كلّ اليقينيات والآمال الغيبية في منظومة الإمام الثقافية، إلّا أنّه يقود الحاضر بالنظر إلى مستقبل على بُعد ٥٠ عاماً وبالاستناد إلى فهم لتحوّلات العالم في شتّى المجالات. وهنا يجمع الإمام بين المؤشّرات الكمية والنوعية في تشخيص

الأهداف، حيث ينبغي أن تصبح إيران عام ٢٠٦٥ من الدول الخمس الأولى في الإنتاج المعرفي عالمياً، وتمتلك واحداً من الاقتصادات العشرة الأولى في العالم، والدولة السابعة عالمياً من حيث التقدّم العام والعدالة. ونوعياً، سيتمتّع الشعب الإيراني « بالأمان والسكينة والطمأنينة والراحة والسلامة والأمل بالحياة في أعلى المستويات في العالم ». وتنعكس هذه النظرة المستقبلية، معياراً للاستفادة من الثروات الطبيعية مع « مراعاة احترام المعايير البيئية وحق الأجيال المتعاقبة في الاستفادة منها ».

ثانياً: الثورة متجدّدة. ولذا، فمسؤولية الشباب « البلوغ بالثورة هدفها النهائي بقيام حضارة إسلامية حديثة ». عانت الثورات، عموماً، من فتورها مع نهاية جيلها المؤسّس وازدياد الفجوة بين جيل التجربة والأجيال اللاحقة، وهي مخاطر تستشعرها الثورة الإسلامية بعد ٤٠ عاماً من انتصارها. هنا، ينقل الإمام الخامنئي المسؤولية إلى جيل ما بعد الثورة مانحاً إياه الدور والاعتراف، وهو ما يساعد على تفادي احتمال « احتكار » جيل الثورة للتجربة ثم خنقها بالركود كما عانى الكثير من التجارب السياسية حول العالم. المجتمع الإيراني هو من المجتمعات الشابة حول العالم، ولذا يرتبط مصير الثورة ومستقبلها بالقدرة على اجتذاب كتلة من الشباب الإيراني إلى مشروعها. وحول هذه الكتلة، يدور الصراع الثقافي الأشرس بين الولايات المتحدة والثورة الإسلامية في إيران. ولذا، بدل أن تكون هذه الشريحة مجرّد ساحة للصراع، يحوّلها الإمام الخامنئي بمقاربته إلى طرف في الصراع وفق هدف مشخّص أي إقامة الحضارة الإسلامية، وهو هدف ينسجم مع طبيعة الشباب الإيراني الطامح والمعتزّ بإرثه وهويته والمتحفّز للإنجازات بما يمتلكه من طاقات علمية وبنى تحتية.

فالثورة « جعلت الشباب اللاعبين الأصليين في الأحداث وأدخلتهم ميدان الإدارة ». والثورة بما حققته، هي جزء من « المسار المجيد نحو

المبادئ السامية لنظام الجمهورية الإسلامية »، وتكملة هذا المسار ملقاة على عاتق همّة الشباب ويقظتهم وسرعة مبادراتهم في كل الميادين متحمّلين المسؤولية ومستفيدين من تجارب الماضي وعبره ودروسه. فالشباب في إيران « فرصة قيّمة للبلاد »، وبما حصّلوه من المعارف والعلوم والروح الثورية وهي « ثروات عظيمة للبلاد لا يمكن مقايستها بأية ثروة مادية ».

ثالثاً: الحضارة الإسلامية هي البوصلة. منذ انتصارها، كانت الثورة الإسلامية تجد في التمهيد لظهور الإمام الثاني عشر (المهدي المنتظر) غاية قيامها وفي تحقق الظهور منتهى الآمال ونهاية التاريخ. إلّا أنّه في السنوات الأخيرة، حدّد الإمام الخامنئي وجهاً سياسياً لفكرة التمهيد قابلاً للتشخيص ومنسجماً مع طبيعة النظام العالمي الذي يشهد صعوداً للحضارات الكبرى. ففي عام ٢٠١٨، رأى الإمام الخامنئي أنّ « الثورة لا تنتهي بتأسيس النظام، بل بالحضارة الإسلامية، ولذا هي لا تنتهي أبداً ومتواصلة على الدوام ». وقيام الحضارة الإسلامية العالمية، هو المرحلة الأخيرة التي تلي قيام الثورة الإسلامية، ثم النظام الإسلامي، ثم الدولة الإسلامية، ثم المجتمع الإسلامي، ثم الأمة الإسلامية، وبها تقوم الحضارة الإسلامية.

إذاً، وبحسب فكر الإمام، فإن تحقيق الحضارة الإسلامية العالمية هو الهدف الموجّه ومعيار النجاح والإطار العام للثورة الإسلامية، وهذه الحضارة المأمولة تكون بمثابة « النموذج الممهد » الجاذب في عصر غيبة المعصوم الذي يظهر ليقيم الحضارة الكونية للإسلام. التنافس في عالم اليوم قائم على النموذج والجاذبية بالتزامن مع صعود الهويات الثقافية والنزعات القومية التي تستند إلى تاريخ الأمم المتخيّل ورموزها وتطلّعاتها. من هذا المناخ الدولي، تنطلق أطروحة « الحضارة الإسلامية العالمية » طامحة لنيل الاعتراف في تشكيل العالم الجديد والمساهمة فيه على قدم

المساواة. وتستند هذه الأطروحة إلى ثقة أصحابها بالمخزون الإسلامي القيمي والأخلاقي والمعنوي، وإلى قابلياتها للتقدّم المادي من ناحية، وإلى أن عالم اليوم يمرّ بلحظة فراغ نسبيّ حيث يمكن للحضارات خارج المادية الغربية أن تحجز لها دوراً أو ربما أن تشكّل بديلاً كما يطمح أنصار مشروع الحضارة الإسلامية.

وتذكر الوثائق موضع البحث أنّه ينبغي « أن تصبح إيران نموذجاً تامّاً للنظام الإسلامي المتقدِّم ». من هنا، يمكن استخلاص الآتي، في المراحل الأربع الأولى (الثورة والنظام والدولة والمجتمع) تتحوّل إيران إلى النموذج الإسلامي للتقدّم (لطالما جادل أنصار الثورة الإسلامية مراراً بأن فكرة « تصدير الثورة » تقوم على بناء نموذج ملهم وليس التوسّع العسكري)، الذي يلهم دولاً إسلامية أخرى فتتحقّق المرحلة الخامسة (ربما هذا ما كان يطمح له الإمام الخامنئي في مقولة « الصحوة الإسلامية »)، وحينها ينهض نموذج الحضارة الإسلامية العالمية كمشروع إسلامي مشترك متعدّد الأطراف وليس بأحادية إيرانية.

رابعاً: التنافس والتعاون بدل الصراع. إنّ أطروحة الحضارة الإسلامية كما يبدو من سياقها، تقوم على مبدأ تنافس الحضارات لا صراعها وعلى التأثير وليس الحرب، فيذكر الإمام الخامنئي (٢٠١٦) أنّ « الحضارة الإسلامية لا تعني فتح البلدان، بل تعني تأثّر الشعرب فكرياً بالإسلام ». فعالم اليوم لا يشبه البتّة عالم « الخلفاء الراشدين »، فالتوسّع العسكري ليس متاحاً وليس مستداماً، بل هو عالم تختصره إلى حدّ ما مقولة جوزيف ناي « الأقوى اليوم هو صاحب القصة الأفضل ». وتستفيد أطروحة الحضارة الإسلامية من صعود الحضارات الشرقية في الصين والهند وروسيا، وهي جميعها لديها الكثير من المصالح والمشتركات للتعاون مع العالم الإسلامي من الطاقة إلى الجيوبولتيك، ثم الاقتصاد والتنمية وصولاً إلى الثقافة الآسيوية.

وبما أنّ مرحلة ما قبل الحضارة

الإسلامية، هي مرحلة قيام الأمة الإسلامية التي تجمع الدول الإسلامية وهي بطبيعة الحال لن تكون شيعية في معظمها، يمكن الاستنتاج أنّ الإمام الخامنئي يرى في هذه الأطروحة جسراً بين المذاهب الإسلامية وعنواناً للتضامن والهوية المشتركة. أن ينظر المسلمون إلى أنفسهم من منظار حضاري ودور عالميّ قد يساعدهم على تجاوز أو إدارة خلافاتهم واستيعاب توترات المصالح القومية بين دولهم الكبرى ثم إنتاج هوية مشتركة.

خامساً: الواقعية والأمل. النظرة إلى المستقبل لدى الإمام الخامنئي تنطلق من فهم الأهداف والمنجزات ومواقع القوة وأوجه القصور والإيمان بالقدرة على التغيير والرهان على الشباب والحفاظ على التوازن ثم الحافزية. فحين يحدّد الإمام الأهداف المستقبلية يستند إلى قاعدتين:

١ ـ يدرك ويعترف بما تحقّق سابقاً للبناء عليه محذّراً من سعي الأعداء إلى توهين المنجزات وزرع الإحباط عبر تضخيم العيوب وإنكار الإيجابيات وقلب الحقائق. فالنظرة المتفائلة إلى المستقبل تستند إلى « الأمل الصادق المعتمد على الوقائع الخارجية »، وهذه النظرة هي في مقابل اليأس في غير محلّه والخوف الكاذب.

٢ ـ يقيّم بشفافية وشجاعة أوجه النقص والقصور بما يُعين على شحذ الهمم وتحمّل المسؤوليات وتصويب المسارات. وهنا، يشير الإمام إلى أنّه « لا شك في أنّ الفجوة بين ما ينبغي وما هو واقع قد عذّبت، ولا تزال تعذّب الضمائر المنادية بتحقيق المبادئ، بيد أنّ هذه الفجوة يمكن طيّها وتجاوزها ». وهذه الفجوة هي ملازمة لكون الثورة مسيرة بشرية مفتوحة على السهو والخطأ، ولذلك وإن كانت الثورة ستواصل التزامها الحاسم بالقيم إلّا أنّها « تبدي الحساسية الإيجابية حيال النقد وتعدّه نعمة من الله » و« مستعدّة لتصحيح أخطائها ». وهنا، تشتمل وثيقة التقدّم على هدف مفاده تعزيز أجواء الحرية الفكرية من أجل التقويم والنقد العلمي للسياسات والمسارات.

حتى حين يتحدّث الإمام عن العلم مُقرّاً بالمنجزات العلمية العالية التي تحقّقت من الصفر، يعقّب مضيفاً: « إلّا أنّنا لا نزال متأخّرين جداً عن قمم العلوم في العالم ويجب أن نصل إلى القمم ».

سادساً: مركزية العدالة. يؤكّد مرشد الثورة أنّ العدالة « في قائمة الأهداف الأولى لبعثة الأنبياء »، وهي فريضة على الجميع حكّاماً ومحكومين. ولما للعدالة من أصالة وأثر، يشير الإمام في أكثر من موقع إلى عدم رضاه عن فعالية العدالة في البلاد « لكون القيمة السامية للعدالة يجب أن تتألّق كجوهرة فريدة على جبين نظام الجمهورية الإسلامية، وهو ما لم يحصل بعد »، رغم ما تحقّق من تقدّم وجهود ولكن العدالة المتوقّعة في الجهورية الإسلامية « التي ترغب في أن تعرف باتّباعها للحكومة العلوية (حكومة الإمام علي) هي أكثر من هذا بكثير ». ويؤكد الإمام، بوجه خاص، على العدالة الاجتماعية ويرى أنه « يوجد بون شاسع بين ما تم إنجازه حتى الآن وما كان ينبغي أن يُنجز. ينبغي لقلوب المسؤولين في الجمهورية الإسلامية أن تخفق دوماً من أجل رفع الحرمان، وتخاف أشدّ الخوف من الفوارق الطبقية ». وهنا، تفرّق الوثائق بين الحق في تحقيق الأرباح مشروع وبين عدم مشروعية التمييز في توزيع المصادر والثروات العامة.

هذا الحرص على مسألة العدالة ينسجم مع ما توصّلت إليه الدراسات عن التداعيات الكارثية لغيابها ولتزايد التباينات والفوارق على صعد الاستقرار السياسي والاجتماعي والنفسي، بل والصحة الجسدية للمواطنين. ترتبط مشروعية أي نظام بمسألة العدالة الاجتماعية، بحيث لا يظهر هذا النظام أنه يمثّل القلّة الثرية. ولذا، يحذّر الإمام من الفساد السياسي الذي يمثّل تهديداً لشرعية أية حكومة، وهذه قضية أساسية لنظام الجمهورية الإسلامية « الذي يحتاج إلى شرعية أعلى من الشرعيات الدارجة ». لذلك، ورغم أنّ الفساد بين مسؤولي الحكومة

في إيران قليل، « ولكن حتى هذا المقدار الموجود غير مقبول ». بل وتذهب الوثائق إلى حدّ أن تضع من التدابير الموصى بها أن يصبح اختيار المسؤولين والمديرين على أساس التزامهم العمَلي بحدّ كفاف العيش واهتمامهم بنهج العدالة والنزاهة والصدق والثقة والتضحية والمساءلة، مع تحديد ضوابط عادلة وشفافة في ما يخصّ دخل وثروة ومصدر رزق المسؤولين السياسيين.

وتشير وثيقة التقدّم إلى غايات مستقبلية لأوجه مختلفة من العدالة، ومنها تحقيق العدالة الضريبية وتقليص التباينات الاجتماعية. وفي سبيل ذلك، ينبغي التخلّص من القروض الربوية ومنح توزيع عادل للمال في النظام المصرفي، وتوفير العدالة بين الأجيال في الاستفادة من الموارد الطبيعية فلا يجري استنزافها لصالح الجيل الحالي، والتوزيع العادل للموارد الصحية. وهنا، يبدو أنّ الوثيقة تدرك أنّ النمو لا معنى له من دون عدالة توزيعية، فقد يحصل النمو ولكن تتساقط ثماره على جيل محدّد أو قطاع بعينه أو جماعة بذاتها. ولا تغيب عن الوثائق قضايا الحرية الاجتماعية والحرية المسؤولة والحرية الفكرية والهوية الفردية، فتحقيق العدالة لا يضعها الإمام في مقابل الحرية ولا العكس كما تفعل مدارس فكرية مهيمنة في عالم اليوم.

سابعاً: الاقتصاد المقاوِم. الاقتصاد في فكر الإمام هو « قضية مفتاحية ومصيرية وهو وسيلة المجتمع الإسلامي ». ومقوّمات الاقتصاد المقاوِم، هي جودة الإنتاج، والتوزيع العادل، والاستهلاك المتوازِن (بعكس النمط الرأسمالي الغربي)، والإدارة العقلانية ومحورية العلم (ومنها تطوير العلوم المتعددة التخصصات، وزيادة الدعم لإنتاج العلوم وتطوير شبكات العلوم والتكنولوجيا والابتكار) وريادة الأعمال لا سيما القائمة على المعرفة، والاستثمار في القدرات البشرية الوطنية، وأن لا ينحصر الاقتصاد بالقطاع الحكومي، بل يشمل المبادرات الخاصة والقطاع الخاص والأهلي مع التأكيد « على الحفاظ

على حقوق الملكية العامة لهذه الموارد والثروة ».

هذا الاقتصاد ينبغي أن تستقل فيه الموازنة عن عائدات الموارد الطبيعية والثروة العامة (النفط الخام تحديداً)، بما يجعل إيران أكثر مناعة وحصانة تجاه ضغوط العقوبات الأميركية ويعزّز من استقلال الإيرانيين. ومستمرّاً في منهج المكاشفة كقيمة بذاتها ولتصويب الخيارات، يؤكّد الإمام أنّ الحلول للأزمة الاقتصادية متاحة كلّها داخل البلاد، وليس صحيحاً « أنّ المشكلات الاقتصادية ناجمة فقط عن الحظر وأنّ سبب الحظر هو المقاومة ضد الاستكبار وعدم الاستسلام أمام العدو »، لأنّه حينها يصبح الحل « هو الركوع أمام العدو وتقبيل يد الذئب ».

ثامناً: الثنائيات المتوازنة. يدعو الإمام إلى التنظير لعدم تعارض الثنائيات مثل العلم والدين (فالعلم مصدر للعزة والقوة والسير فيه بمثابة « عمل جهادي » من دون استغلاله كما في فعل الغرب) والتقدّم والعدالة، والهوية الإيرانية والإسلامية. من هذا الموقف، يبدو أنّ الإمام يدرك من موقع قيادته للدولة الإيرانية وثورتها ومشروعها الإسلامي والتحرّري، أنّه لا يمكن للفكر الأحادي أن يحمل مشروعاً متوازناً قادراً على التقدّم، وأنّ هذا الفكر مصيره التطرّف والإخفاق ويغرق في مجاهل الاستقطابات والصراعات البينية العبثية. من هنا، تتضمّن الوثيقتان دعوات إلى « معاصرة لا تفرّط بالأصالة » ؛ وإلى سعادة مصدرها الهداية الإلهية والرشد العقلاني، وإلى الالتزام بالمبادئ من دون إنكار الظروف والظواهر المتجدّدة (ما دفع مهدي خليجي في موقع الحرة للقول إنّ النظام الإيراني يراهن على اقتران أعمق بين الأيديولوجية الأصولية والتقنية) ؛ وإلى أن يكون مفهوم التقدّم ليس منحصراً بالمادة، بل يشتمل على الاهتمام بالأخلاق والقيم والفضائل (وهي مؤنسة حتى مع النقص المادي والحكومة تحققها بالاقتداء بها لا بالقهر) ؛ وإلى تكامل الثورة والنظام في « نظرية النظام الثوري » حيث الثورة هي التي تصنع

النظام وتمنحه مشروعيته منها، من دون أن يتحوّل إلى قيد عليها بحيث « لم ولن تصاب بالركود والخول والانطفاء » ؛ وإلى أنّ قيام الحضارة الإسلامية له عمدتان الأصول والقيم والتعاليم الإسلامية، والعقل والمعرفة البشرية ؛ وإلى أنّ ضرورة المجتمع لا تنفي الهوية الفردية والاختيار الشخصي ومسؤولية أعضاء المجتمع. كما أنّ هذا المنهج في الثنائيات يتضمّن اقتناعاً بالهوية المركّبة، فلا لزوم لأن نكون إما إيرانيين وإما مسلمين وإما شيعة وإما عرباً فقط، بل إنّ الجمع والتنوّع هو أصل. فقد استند نموذج التقدّم « إلى الرؤية الكونية والأصول الإسلامية وقيم الثورة الإسلامية مع مراعاة المقتضيات الاجتماعية والمناطقية والتراث الثقافي لإيران ». كما تشير الوثيقة إلى أنّ رسالة النموذج هي حركة عقلانية ومؤمنة ومنسجمة مع المثل العليا في إيران. وعند الحديث عن تطوير الرموز الإسلامية الإيرانية يرد قيد ألّا وهو « المحافظة على التنوع الثقافي في عموم البلاد ».

تاسعاً: أصالة المشاركة الشعبية. يبرز حضور الشعب في كل مفاصل الوثيقتين، فهو مخاطب وشريك وصاحب دور ومحطّ الآمال وموضع العناية وركن التمكين. في رسالته عن وثيقة التقدّم، طلب الإمام الخامنئي من المؤسّسات الإيرانية والجامعات والحوزات وأصحاب الرأي مراجعة مسودّة الوثيقة لنقاشها، كما طلب نشرها عبر الإنترنت لتكون متاحة لعامة الشعب وصولاً إلى إقرار النسخة النهائية. ففي نظام ولاية الفقيه، حيث مصدر الشرعية ديني يحضر الشعب بمشروعيته التمكينية فبدون رضاه لا تنتفي شرعية الحاكم ولكنّها لا تكون موجودة بالفعل، وهذا ما تختصره تسمية نظام ولاية الفقيه بأنه نظام « السيادة الشعبية الدينية ». فتنصّ وثيقة التقدّم على أنّ « التقدّم يتحقق بقيادة الوليّ الإلهي ومشاركة الشعب ». كما تضع النصوص موضع البحث هدفاً مستقبلياً قوامه تعزيز المراقبة الرسمية والشعبية والإعلامية على أركان ومكونات النظام ومنع

تداخل المصالح والتصدي للمفسدين.

عاشراً: الاستقلال والمقاومة والمكانة. تبرز هذه المفاهيم بشكل واضح عند الحديث عن مستقبل السياسة الخارجية الإيرانية. فإيران التي عانت في النصف الأول من القرن الماضي من إذلال القوى الكبرى التي تقاسمت ثروات إيران وسيادتها، تدرك أنها لما يتوافر لها في الجيوبولتيك والثروات الطبيعية والبشرية والإرث ستكون دائماً محطّ أطماع قوى الهيمنة الكبرى. والأهم، أنّ القيادة الثورية الإيرانية تنطلق من تصوّر أن إيران لا يمكن أن تكون مستقلّة إلا من خلال دور إقليمي فاعل ونشط يقوّض الهيمنة في المنطقة، وإلا ستكون تحت تهديد مستمرّ لأمنها ودورها ولن يكون المسلمون قادرين على الخروج إلى الضوء. وعلى هذا الأساس، تنصّ الوثائق على أنّ العلاقات الدولية لإيران تُخاض وفقاً لثلاثة مبادئ « العزة، والحكمة، والمصلحة »، وتؤكد على الدفاع والردع وعلى دعم الحركات الاسلامية وحركات التحرّر واستعادة حقوق الشعب الفلسطيني. والاستقلال هنا، يُفهم بمعناه الواسع فيشمل الاستقلال الثقافي كبناء تحتي، لا سيما مع الجهود الناعمة لاستهداف المجتمع الإيراني، ولذا يحذّر الإمام الخامنئي من « جهود الغرب لترويج أسلوب الحياة الغربي في إيران » ويدعو إلى مواجهتها التي « تتطلّب جهداً شاملاً وواعياً تتسمّر فيه عيون الأمل أيضاً عليكم أيها الشباب ».

خاتمة

بالرغم من كلّ الحمولة الأيديولوجية للثورة الإسلامية والخصوصية القومية لإيران، إلّا أنّ منهجية الإمام الخامنئي تتّسم بمقدارٍ عالٍ من العقلانية والسعة والتفاعل مع مشكلات الواقع وتحدياته العملية، بما يجعلها ضرورة لكلّ الساعين نحو مستقبل أفضل لا سيما في العالم الثالث والصاعد. بالمحصلة تنبيهان من روح الوثائق المبحوثة: بمعزل عمّا تأمله وترجوه، عليك أن تستند في

خططك وسياساتك إلى نظرة بعيدة مع ما يستلزمه ذلك من مسارات واستراتيجيات، فتتنبه إلى خطورة الخيارات التي تتقي فيها ثمناً محتملاً اليوم، ولكنّها ستكون كارثية في المستقبل، وهو فخّ ستُستدرج له كلّما غاب المستقبل عن حساباتك أو أوكلته لظنٍّ ما أو ظننت أنك مسيطر عليه.

وثانياً، النوايا الطيبة والقيم السامية لا تعفيك من النقد والمساءلة، وإلّا لن ترى أخطاءك وسيكثر سهوك وحينها لن يزيدك السير إلا بعداً عن ما تصبو إليه.

الإمام الخميني
منهج ومواقف

❖ **الاستاذ الشيخ عبد الوهاب حسين** [1]

(١) باحث واستاذ / حوزة النجف.

الخصائص التي امتلكها الإمام الخميني ﷺ في منهجه الفكري والعملي، فاتصف بالدقة العلمية والدينية والعمق والسعة والقوة والإحكام، وأورثت الاطمئنان لدى الواردين لحياضه الصافية في الفكر والعمل. لقد وجدنا بعض المؤمنين الأعزاء يتحفظون على أطروحات بعض العارفين، ولكن هذا التحفظ ارتفع لدى الكثير منهم في الأخذ من معين الإمام الخميني ﷺ وذلك لعلمهم بأن العرفان لديه من مشارب القرآن الكريم والسنة الشريفة للرسول الأعظم الأكرم ﷺ وأهل بيته الطيبين الطاهرين عليهم السلام وأنه محكوم بقواعد الفقه الإسلامي. كما نجد الاطمئنان لدى المؤمنين في الأخذ بمنهجه في الثورة والإصلاح والمقاومة والدولة، وقد أثبتت التجارب قوته وفاعليته على الأرض ونجاحه في تحقيق الأهداف.. وأقول: لن يخسر المؤمنون إذا أخذوا بمنهج الإمام الخميني العظيم ﷺ في الفكر والعمل، وأن الظفر والنجاح حليفهم (إن شاء الله تعالى) في الدنيا والآخرة.

وسوف أتكلم في هذا اليوم المبارك: عن بعض الأسس التي يقوم عليها منهج الإمام الخميني ﷺ ثم أتناول أطروحاته ومواقفه من بعض القضايا الإسلامية المهمة وأهم خصائص خطابه

يعتبر الإمام الخميني ﷺ فقيه ومحدث ومفسر من الطراز الأول، وفيلسوف ومتكلم وعارف من الطراز

الأول، وسياسي وقائد وثائر ورجل دولة من الطراز الأول، وقد اصطبغت حياته المباركة كلها بالصبغة العرفانية الصافية المعين والصادقة في القول والفعل.. وإني أرى: بأن ليس فيما قال الإمام الخميني وكتب أي إدعاء، وإنما منزلة في العلاقة الصادقة والمخلصة مع الله (ذي الجلال والإكرام) وعلم ويقين عن دليل صحيح ومشاهدة، وتعبير صادق بالقلم واللسان، وسلوك ومواقف أصدق.. وهذه هي حقيقة العرفان وقيمته. ونجد خاصية عدم الإدعاء في الحالة العرفانية الصافية المعين والصادقة، في قول علي الأكبر ابن الإمام الحسين (عليهما السلام) إذ يقول: أبتاه ألسنا على الحق.

اولا ـ الأسس التي يقوم عليها المنهج: يقوم منهج الإمام الخميني ﷺ على أسس عديدة.. منها:

الأساس الأول ـ الانطلاق من عقيدة التوحيد: فهو ينطلق من عقيد التوحيد التي تحكم فكره ومشاعره وسلوكه ومواقفه، ويرى الواقع وجميع شؤون الحياة على أساسها، ويسعى لصياغة الواقع كله على أضوائها القدسية النيرة، وذلك وفق أحكام الشريعة الإسلامية المقدسة ونظامها القيمي العظيم، مع دقة وعمق وشمول في الفهم، ومرونة في التطبيق تأخذ بعين الاعتبار خصائص الزمان والمكان والموضوع والأبعاد الشمولية للدين على كافة الأصعدة والمستويات: المحلية والإقليمية والدولية.

يقول الإمام الخميني العظيم ﷺ: " إن اعتقادي واعتقاد المسلمين قاطبة يتلخص في المسائل التي أوردها القرآن الكريم، والتي أوضحها نبي الإسلام ﷺ وأئمة الحق من بعده عليهم السلام وأن أساس وأصل جميع تلك المعتقدات ـ والذي يعتبر أهم وأسمى اعتقاداتنا ـ هو مبدأ التوحيد. واستناداً لهذا الأصل: فإننا نعتقد بأنّ خالق العالم وجميع عوالم الوجود والإنسان هو الله (تبارك وتعالى) والمطّلع على جميع الحقائق، والقادر على كل شيء، ومالك كل شيء.. وهذا الأصل يعلمنا: بأنّ على الإنسان أن يسلّم فقط أمام

ذات اللـه المقدسـة، وأن لا يبـدي الطاعـة لأي إنسـان آخـر إلا إذا كانـت طاعته استمراراً لطاعة الله.. علـى هـذا الأسـاس: فـلا يحـق لأيّ إنسـان أن يفـرض علـى الآخـرين الانصـياع لـه. ومن هذا الأصل ألاعتقادي نتعلم مبدأ حرية الإنسان، وانه لا حق لأي إنسان أن يسلب إنسانا آخر أو مجتمعاً أو شعباً حقهـم فـي الحريـة، أو أن يضـع لهـم قانوناً ينظم سلوكهم وعلاقاتهم استناداً إلى مقدار وعيه ومعرفتـه القاصـرين، أو استناداً إلى رغباته وميوله.. وبالاسـتناد إلى هذا الأصل: فإننا نعتقد ابيضا: بأنّ وضع القوانين لتطـوير الحيـاة هـو مـن اختصاص الباري جـل وعـلا، كمـا أن قوانين الوجود والخلـق مـن اختصاصـه هـو تعـالى، وأن سـعادة الإنسـان والمجتمعات وكمالها، تكمن فقـط فـي طاعة القوانين الإلهية التي تمّ إيصالها إلـى البشـر عـن طريـق الأنبيـاء، وأن الانحطـاط والسـقوط اللـذين تعـاني منهما البشرية إنما هما بسبب مصادرة الحريـات والاستسـلام أمـام بعـض الأفراد.. ومن هنـا: فانـه يتوجـب علـى الإنسـان أن يثـور علـى هـذه القيـود ويقـارع الـذين يدعونـه للاستسـلام والأسـر ؛ وأن يسـعى لتحريـر نفسـه ومجتمعـه ليكـون الجميـع عبيـداً للـه. ومـن هـذه الناحيـة تنطلـق قوانيننـا الاجتماعيـة ضـد قـوى الاسـتبداد والاسـتعمار. ومـن هـذا الأصـل ألاعتقادي (التوحيد) نستلهم المساواة بين جميع بنـي البشـر أمـام اللـه، فهـو خـالق الجميـع، والجميـع عبـاده. فالأصل هـو تساوي البشـر، ومـا يميـز الفرد عن الآخر ـ كقاعدة ومعيـار ـ إنمـا هـي التقـوى والابتعـاد عـن الانحـراف والخطأ، ولذا ينبغي الوقوف بوجه كل ما يُـراد بـه تخريـب المساواة الاجتماعيـة وتحكـيم الامتيـازات المزيفـة والفارغـة على المجتمع ".

وقد قال بعض الباحثين: أن الإمام الخميني ﷺ يتبع إستراتيجية التكليـف والمسؤولية الشرعية، مما حمـل بعـض المؤمنين الأعزاء على التساؤل: أليس كـل الفقهـاء وكـل المـؤمنين يتبعـون التكليـف الشـرعي ويـؤدون المسـؤولية الشرعية الملقـاة علـى عـواتقهم؟ فـأي

شيء يميز منهج الإمام الخميني عن مناهج غيره من الفقهاء والمؤمنين في هذا المجال؟

الجواب: ينبغي أن نميز بين منهجين يتحركان على الساحة الإسلامية في وسط المؤمنين على الأرض.. وهما:

المنهج الأول: ينطلق من العقيدة وأحكام الشريعة وقيمها ومبادئها وثوابتها، ويسعى لصياغة الواقع وتطويعه على أضوائها القدسية النيرة، ويواجه كافة العقبات التي تقف في وجهه بقوة وثبات وبحسن التدبير للتغلب عليها حتى يهزمها، ويقدم التضحيات اللازمة في سبيل تحقيق أهدافه الإسلامية المقدسة بنفس راضية مطمئنة إلى ثواب ربها ونصره. وهذا هو منهج الأنبياء والأوصياء والأولياء الصالحين عليهم السلام الذي يؤسس للممانعة والمقاومة والثورة بقوة وثبات على الأوضاع الفاسدة والمنحرفة، ولا يستسلم أو يخنع أو يخضع إليها بأي حال من الأحوال. وهو المنهج الذي سار عليه الإمام روح الله الخميني العظيم قدس سره قبل وبعد قيام الجمهورية الإسلامية في إيران. فالإمام لا يفكر إلا بأداء التكليف الشرعي.. وكان شعاره في الحياة: "" العمل بالتكليف ولو بلغ ما بلغ " وهو المنهج الذي لازالت تسير عليه الجمهورية الإسلامية في إيران بقيادة ولي أمر المسلمين آية الله الخامنئي (أمد الله تعالى في ظله الشريف) وهو المنهج الذي يسير عليه حزب الله المنصور في لبنان في التحرير والمقاومة.

جاء في رد الإمام الخميني العظيم قدس سره على برقية آية العظمى السيد محسن الحكيم قدس سره إلى العلماء والمراجع في إيران يطالبهم فيها بالهجرة إلى النجف الأشرف من أجل الحفاظ على حياتهم وكيان الحوزات العلمية.. وذلك في نيسان عام (١٩٩٣) قوله: " سوف نؤدي تكليفنا الإلهي (إن شاء الله) وسوف نوفق لأحد الحسنيين: إما قطع أيدي الخونة عن الإسلام والقرآن الكريم، أو مجاورة رحمة الحق (جل وعلا)

وإني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برما ".

لقد شخص الإمام الخميني العظيم ﷺ الواقع في إيران على عهد الشاه، ورأى بأن تكليفه الشرعي هو السعي لإصلاح النظام، فلما يئس من إصلاحه، رأى بأن تكليفه الشرعي هو الإطاحة به، فنهض بهذا التكليف، ولم يرهبه جبروت الشاه، ولا بشاعة جرائم السافاك، ولا غطرسة أمريكا والكيان الصهيوني الداعمين للشاه.. ولا غير ذلك.

قال الإمام الخميني ﷺ ردا على أحد جلاوزة الشاه الذي ذهب إليه يحمل تهديدا له من قبل النظام: " اعلموا أنه ما دمت حيا فلن أتخلى عن هذا النهج حتى لو أغلقتم باب داري ووضعتم الأقفال عليها، وسأستمر بالكتابة ضدكم بقلمي هذا، وإن لم استطع إيصال ندائي إلى الناس، فسأخاطبهم عبر شقوق الباب " (الراصد. العدد العشرون حزيران ١٩٩٢. ص ٧٨) وقد جاء في بيان صادر عنه في آذار من عام (١٩٦٣م) اعتراضا على ممارسات النظام: " لقد أديت واجبي ـ اللهم قد بلغت ـ وإذا مد في عمري، فإني سأواصل أداء تكليفي بإذن الله ".

وجاء في صحيفة مسلم: " كان الإمام الخميني زعيما صارما، وقف طوال حياته أمام الأعداء، ولم يبال بأي شيء سوى الإسلام الأصيل، وكان يدافع بقوة عن الإسلام والمسلمين " (الراصد. العدد العشرون حزيران ١٩٩٢. ص ٤٩).

المنهج الثاني: ينطلق من الواقع والنفس الضعيفة أو المتهورة، حيث يقع أصحاب المنهج أسرى إليهما، ثم يحاولوا أن يوجدوا المبررات الشرعية لمواقفهم ليقنعوا أنفسهم والآخرين بها، وليخلقوا التوافق بين إيمانهم وبينها. فهم يقبلوا بالمتاح والمتيسر على قاعدة " ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها " وتحت عنوان الواقعية وماذا نفعل، أو يفعلوا ما يشاءون ويحلوا لهم تحت عنوان الضرورة وغيرها من العناوين الخادعة، ثم يوجدوا المبررات الشرعية لمواقفهم ليقنعوا أنفسهم والآخرين بها،

وليخلقوا التوافق بين إيمانهم وبينها.

فأصحاب هذا المنهج بدلا من الانطلاق من التكليف الشرعي والسعي لتطويع الواقع وإدارته على أضواء العقيدة وأحكام الشريعة وقيمها ومبادئها وثوابتها من خلال الصبر وحسن التدبير وتقديم التضحيات اللازمة (كما هو الحال في المنهج الأول) يسعون لتطويع أحكام الشريعة وقيمها ومبادئها وثوابتها بحسب مواقفهم الضعيفة أو المتهورة في الحياة. وهذا المنهج التبريري هو منهج الضعفاء من المؤمنين، وهو المنهج المسؤول عن تراكم الانحرافات والظلم والاستبداد والتخلف وبروز ظاهرة التكفير والإرهاب والتطرف في المجتمعات والدول الإسلامية طوال التاريخ، ولن تتغير أوضاعها ما دام العمل بهذا المنهج هو السائد لدى القيادات والزعامات الإسلامية الشعبية، وما لم تنتقل هذه القيادات والزعامات إلى العمل بالمنهج الإسلامي الأصيل (منهج التكليف والمسؤولية الشرعية) وهو المنهج الأول، الذي يتطلب الأخذ به (فيما يتطلب) الرجوع إلى فقيه جامع لكافة الشروط، وليس مجرد الرجوع إلى أي مؤمن أو أي فقيه كان.

ومن الواضح: أن المنهج الأول ينسجم مع تصنيف الفقهاء (رضوان الله تعالى عليهم) لشروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضمن دائرة شروط الواجب كشرط الطهارة للصلاة. فالصلاة واجبة ولا تصح إلا بالطهارة، ويجب على المكلف أن يوفر شرط الطهارة لتأدية فريضة الصلاة. وذلك في مقابل شروط الوجوب كشرط الاستطاعة للحج. فالحج يجب على المستطيع، ويسقط عن غير المستطيع، ولا يجب على المكلف غير المستطيع السعي لتوفير الاستطاعة لكي يحج. وهذا ما ينبغي أن يعمل به المؤمنون في فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو واجب بشروط، وعلى المكلفين السعي لتوفير الشروط للقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولو عمل المكلفون بهذا الشكل في فريضة

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. لتغير وجه الأرض قطعا. أما وقد أخلوا بهذا التكليف وبحثوا عن المبررات لمواقفهم الضعيفة ومسايرة الظالمين، فقد ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الأساس الثاني ـ الأخلاق والقيم: كان الإمام الخميني قدس سره يحذر من المناهج السياسية والإدارية المادية، ويعتمد بدرجة كبيرة على المدد الغيبي، ويسعي من أجل ذلك إلى تفعيل النظام القيمي في الثورة والنظام الإداري للدولة، وتشريب قلوب العاملين بالعشق الإلهي، وخلق التوجه الحقيقي لديهم نحو الله رب العالمين، على ضوء منهجه العرفاني القويم. وقد نجح بالفعل في تفعيل القيم الإلهية وإرجاعها إلى ميادين الحياة، ووضع أركان نظام اجتماعي وإداري يستند إليها، مما خلق منهجا جديدا في الثورة والإدارة السياسية للدولة، وجيلا متميزا من العاملين الذين تربوا على ذلك المنهج العظيم وعملوا به.. وهذا عمل خارق لا نظير له في عالمنا المعاصر.

يقول مير حسين الموسوي: " إن ما حدث في نظام الجمهورية الإسلامية تحت ظل قيادة سماحة الإمام (قدس سره) وبفضل إدارته الحكيمة هو: أن القيم النابعة من الدين، عجنت مع النظام الإداري بشكل بناء ومثمر، ولم تشكل عقبة أمام نضج وإنتاجية المؤسسات الإدارية فحسب.. بل إنها بالعكس: كانت العامل المحرك والدافع لهذه المؤسسات للعمل أكثر بإنتاجية أكبر " (الراصد. العدد العشرون حزيران ١٩٩٢. ص ١٠).

وقال: " إننا لأول مرة نرى أن الموظفين العاملين في الجهاز الإداري يؤدون أعمالهم الإدارية بشكل منظم ومتقن، وينظرون إلى العمل الإداري على أنه عبادة. وقد ظهرت هذه الحالة المثالية بشكل أكثر في المؤسسات الثورية التي تأسست بعد انتصار الثورة الإسلامية، وهي من منظورنا تعتبر ذات أهمية كبرى، لأنها مؤسسات جديدة، عجنت فيها المهام العامة

والأعمال التنفيذية مع القيم الإلهية السامية " (نفس المصدر).

الأساس الثالث ـ المرحلية والتخطيط: كان الإمام الخميني ﷺ يعمل على بصيرة في الدين والدنيا ويمتلك إستراتيجية واضحة، وكان فكره وعمله مبرمجين وفق معايير دقيقة، وكانت الأمور مصنفة في ذهنه بشكل منظم ودقيق، ويتابعها بحسب أهميتها الإستراتيجية لديه، وحساسيتها وقيمتها على الساحة الوطنية والإقليمية والدولية، ويتخذ القرارات المناسبة بشأنها ضمن تخطيط وإستراتيجية محكمين. ولهذا يجد المتتبع للقرارات التي اتخذها الإمام الخميني ﷺ في حياته السياسية الطويلة، رغم كل المنحنيات والمنعطفات السياسية: الداخلية والخارجية، أنها تتمتع بالخاصية التالية: أنها تحمل نفس السمات والبصمة، وتسير على نفس المنهج، ولكنها تأخذ بعين الاعتبار الظروف والمرحلة التي صدرت فيها. وقد أعطى هذا قوة ضخمة لخط الإمام ومنهجه وقراراته، وأكسب أتباعه وحوارييه الثقة به، وأدى إلى تحقيق الانتصارات والنجاحات تلو الانتصارات والنجاحات على مستوى الثورة وإدارة الدولة.

تقول صحيفة التايمز اليابانية: " إن المؤرخين في العصور القادمة سيعرفون بلا شك آية الله الخميني بأنه أعظم وأقوى زعيم في العصر الحاضر دون منافس ... إن آية الله الخميني حول إيران إلى قوة يحسب لها الحساب في الشرق الأوسط، وبما أن القوة العسكرية الإيرانية قد ازدادت بشكل ملحوظ في زمن الشاه، إلا أنه ونتيجة للأسلوب الذي اتبعه آية الله الخميني بإيقاظ المشاعر الدينية للشعب، فقد تحولت إيران إلى قوة عظمى ". (الراصد. العدد العشرون حزيران ١٩٩٢. ص ٥٢).

وقالت التايمز اللندنية: " كان الخميني رجلا سحر الجماهير بكلامه، وكان يتكلم بلسان الشعب ويمنح الطمأنينة لمؤيديه الفقراء والمحرومين الذين وقفوا بقبضاتهم أمام كل الجبابرة، وعلم شعبه بأنه يمكن

الوقوف أمام القوى العالمية كأمريكا بدون خوف ". (نفس المصدر).

الأساس الرابع ـ الاعتماد على الجماهير: يرى الإمام الخميني ﷺ أن الإصلاح والثورة والتطوير والتحديث في أي مجتمع أو دولة لا يمكن أن يحدث بعيدا عن الجماهير.

يقول الإمام الخميني ﷺ: " إذا أردتم وأرادوا وأراد العلماء في البلاد الإسلامية والجامعات الموجودة في الدول الإسلامية كافة حل مشكلة الإسلام والبلدان الإسلامية، فلابد من الصحوة الجماهيرية أولا ... وإزالة قول (لا يمكن) من أدمغة الشعوب واستبدالها (بالممكن) ". (قضية فلسطين والصهيونية في رؤية الإمام الخميني. محمد تقي. ص ١٤).

ويرى أيضا: أن القرب من الجماهير هو معيار النزاهة لدى أي قائد، وأن عظمة العلماء والقادة تكمن في الخصال التي يتحلون بها.. منها: القناعة والزهد، والصبر والشجاعة، وطلب العلم والمعرفة، وعدم الارتباط بالسلطة، والشعور بالمسؤولية تجاه الجماهير. لهذا كانت ثقته في الجماهير كبيرة جدا، ويثمن عاليا دورها وجهودها في دعم الثورة ونصرة الجمهورية الإسلامية.. وكان يتواضع لها كثيرا ويشكرها.

يقول الإمام الخميني: " وإنني خجل ... وأرى نفسي أصغر من أن أعمد بالبيان إلى ترسيم حالة هذه الجماهير وشكرها، الله (تبارك وتعالى) هو الذي سيثيبها على كل هذا الإخلاص والوعي وصدق العبودية ". (ريادة الفقه الإسلامي ومتطلبات العصر. ص ٤٢).

وقال: " إننا إذا لم نقم بخدمة النظام الإسلامي، وإذا تجاهلنا التجاوب الجماهيري مع علماء الدين، وهو تجاوب لم يشهد التاريخ له نظير، فلن تكون لنا فرصة عمل أفضل من هذه " (نفس المصدر. ص٥٧)

وكان الإمام الخميني ﷺ في غاية الشفافية والصدق مع الجماهير التي وقفت إلى صف الثورة وناصرتها..

ويرى فيها: أنها تمثل أهم شريحة محترمة لمعرفة الحقائق. فكان ﷺ رغم ازدحام جدول أعماله اليومي في مهامه وعقد الاجتماعات مع مسئولي النظام الإسلامي وغيرهم، لم يترك أبدا ارتباطه بالجماهير البسطاء.. معين الثورة الإسلامية المباركة. وقد أحصي ما يزيد على (٣٧٠٠) لقاء له مع الجماهير في كتاب سمي "محضر النور" وذلك في السنوات التي تلت انتصار الثورة الإسلامية فحسب.. الأمر الذي يوضح مدى عمق علاقة الإمام بجماهيره. وكان لديه كامل الحرص على مشاركتهم في الإدارة وصناعة القرار، فلم يتخذ أي قرار يتعلق بمصير الشعب والدولة بدون أن يرجع بصدق إلى أبناء الشعب الأوفياء. فقد رجع إليهم في اختيار النظام الإسلامي الجمهوري، ورجع إليهم في التصويت على الدستور، وقد نص الدستور على انتخاب أبناء الشعب لأعضاء مجلس الخبراء الذي يمتلك صلاحية اختيار مرشد الثورة وعزله، ونص على الانتخاب المباشر لرئيس الجمهورية، والانتخاب المباشر لأعضاء مجلس الشورى والمجالس المحلية.. الخ.

ولم يستوعب البعض رجوع الإمام الخميني ﷺ إلى أبناء الشعب لاختيار النظام الإسلامي.. وبرر ذلك: بأن الإمام كان يعلم مسبقا باختيار أبناء الشعب للنظام الإسلامي، ولو لم يكن يعلم ذلك منهم، لما رجع إليهم في مسألة اختيار النظام الإسلامي.

وأرى: بأن هذا الطرح لم يكن موفقا أبدا في فهم وتفسير موقف الإمام الخميني العظيم ﷺ في الرجوع إلى الناس في اختيار النظام الإسلامي.. وذلك للأسباب التالية:

السبب الأول: أنه يطعن في مصداقية الإمام وأخلاقه.

السبب الثاني: أن التوقع المسبق لنتائج الانتخابات لا يقلل من قيمتها المبدئية والعملية، ولا يغير شيئا من الحكم الشرعي فيها.

وأرى بأن الإمام الخميني ﷺ: كان يميز ببصيرته النافذة في الدين،

وخبرته القوية والعميقة في الحياة، بين مصدر الشرعية ومصدر القوة في القيادة والنظام الإسلاميين. فمصدر الشرعية للقيادة والنظام هو الله (جل جلاله) وحده لا شريك له. أما مصدر القوة فهم الناس. فالقيادة الشرعية التي لا تجد لها أنصارا من الناس لا تستطيع أن تفعل شيئا على الأرض.. وبحسب تعبير الإمام الخميني: " أن أيّة قوة مهما عظمت معرضة للسقوط إذا ما حرمت الدعم الشعبي "

والنظام الذي لا يجد له أنصارا من الناس، يكون نظاما دكتاتوريا بالتأكيد، ولا يستطيع البقاء طويلا. فقد سقطت الدولة الإسلامية العظيمة التي أقامها الرسول الأعظم الأكرم صلى الله عليه وآله في المدينة المنورة، ولم يستطع الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أن يفعل شيئا إزاء ذلك، لما قل أو انعدم الأنصار من الناس. ولهذا رجع الإمام الخميني قدس سره إلى الناس في اختيار النظام الإسلامي، لا لكي يستفتيهم في شرعية النظام الإسلامي.. فمصدر الشرعية: هو الله (جل جلاله) وحده لا شريك له، وإنما لكي يعتمد عليهم في إقامة النظام الإسلامي وحمايته والدفاع عنه أمام الأعداء. وبدون هذا الرجوع يكون مضطرا لممارسة الدكتاتورية والإرهاب ضد الناس لكي يقيم النظام الإسلامي ويحافظ عليه.. ولن ينجح في ذلك أبدا. وكان الإمام الخميني قدس سره يحذر كثير من الدكتاتورية والاستبداد.. ويرى: أن الفقيه إذا مارس نوعاً من الاستبداد في أمر ما، فإن مقام الولاية يسقط عنه. أما وقد رجع الإمام الخميني إلى الناس في اختيار النظام الإسلامي، فقد استنفذ الناس طاقاتهم في إقامته، وهبوا بكل ما أوتوا من قوة ووعي للدفاع عنه أمام الأعداء الشرسين في الداخل والخارج، وقدموا أنفسهم قرابين في سبيله. وهذا ما لا يدركه من لا خبرة لهم في الحياة، حينما يقللون من قيمة الاعتماد على الناس ودورهم في اتخاذ القرارات في الشأن العام.

إن منهج الإمام الخميني العظيم قدس سره مستمد (بدون شك) من منهج الأنبياء والأوصياء عليهم السلام وهو

المنهج الذي استطاع أن يجعل من بعض العبيد المغمورين والمظلومين والمستضعفين شخصيات عظيمة.. مثل: عمار بن ياسر، وأبي ذر الغفاري، وسلمان الفارسي.. وغيرهم. وأن يجعل من المجتمع الجاهلي قائدا للمدنية والحضارة الإسلامية. إن أبرز نجاحات الإمام الخميني العظيم ﷺ تجسد في قدرته على تنمية الوعي العام لدى الجماهير وإيجاد القدرة لديها على التحليل السياسي إزاء الوقائع والأحداث التي تدور حولها والتي تستهدفها، وإيجاد الإحساس المرهف لديها بالمسؤولية تجاه دينها وقضاياها الوطنية، وتحريكها بقوة وثبات في الثورة وإقامة الدولة الإسلامية وإدارتها وحمايتها من الأعداء في الداخل والخارج.. فلله دره من إنسان وقائد عظيم.

الأساس الخامس ـ تدعيم العمل المؤسسي والاعتماد عليه: من الملفت للنظر، وبخلاف العادة لسائر الثورات في التاريخ، أن الإمام الخميني ﷺ قد سارع في ظل الظروف الصعبة إلى وضع الدستور بعد شهرين من نجاح الثورة، وإجراء الانتخابات على أساسه في غضون شهور قليلة، ولم يتحجج بالظروف الصعبة التي كانت تواجه البلاد والثورة الإسلامية آنذاك. وهذا التصرف من الإمام الخميني ﷺ في الوقت الذي يثبت إخلاص الإمام ومصداقيته وثقته في أبناء الشعب الذين ضحوا من أجل الإسلام والثورة، فإنه يكشف عن بصيرة الإمام وبعد نظره في الإدارة السياسية. لقد لمس الإمام الخميني ﷺ حجم التحديات والأخطار الداخلية والخارجية التي تتربص بالثورة المباركة والدولة الوليدة، وأدرك بأن السبيل إلى مواجهة تلك الأخطار والتحديات والتغلب عليها وحماية الثورة والدولة منها وتحقيق أهدافهما العظيمة، هو الاعتماد على أبناء الشعب، وتوسيع دورهم وتنظيم مشاركتهم في بناء الدولة وإدارتها، وذلك من خلال إقامة دولة المؤسسات والقانون. ولهذا سارع إلى وضع الدستور، وإجراء الانتخابات على أساسه بعد شهور قليلة من انتصار

الثورة الإسلامية المباركة.. وكانت من سماته ﷺ في الإدارة السياسية: توسيع دائرة صناعة القرار إلى أقصى درجة ممكنة، وعدم التدخل في اختيار المسؤولين وصلاحياتهم، والحرص على تطبيق القانون بدقة متناهية على الجميع.

يقول مير حسين الموسوي الذي تسلم رئاسة الوزراء في الجمهورية الإسلامية لأكثر من ثمانية أعوام متتالية: " فيما يتعلق بالحكومة التي كنت أرأسها: فإني لا أملك حتى نموذجا واحدا يثبت أن الإمام تدخل في تعيين اسم محدد ليكون وزيرا أو مسؤولا. وأقول هذه الحقيقة كشهادة تاريخية للأجيال الإسلامية وللعالم أجمع.. أجل: كانت هناك حالة استثنائية تختص بمنصب وزير الأمن، الذي ينبغي أن يكون شخصية ذات رأي في القضايا الإسلامية، فأتذكر أنه في الاجتماع الذي عقدته مع سماحته.. قال: أرجو أن تطلعني على القرار الذي تتخذه بهذا الشأن، لأنها من الحالات التي يجب أن أكون مطلعا عليها. كنت أتوقع أن يحدد سماحته اسم الشخصية التي يقصدها، وقد زرته عدة مرات، وتحدثت أمامه ملوحا بنيتي وعارضا أمامه بعض الأسماء التي خطرت ببالي، إلا أنه لم يصرح أبدا حول ما إذا كان الشخص الفلاني جيد لهذا المنصب أو سيء، ولم يفرض أبدا علي أن اختار أي شخص للمنصب المحدد.. بل أقصى حد كان يقول: إن الشخص الفلاني مناسب لهذا المنصب " (الراصد. العدد العشرون حزيران ١٩٩٢. ص ١١ - ١٢).

الأساس السادس - دقة المعلومات والتوازن في اتخاذ القرارات: لقد عرف عن الإمام الخميني ﷺ اعتماده على المعلومات الدقيقة والواضحة في اتخاذ القرارات، ويراعي فيها التوازن والمصالح الإسلامية العليا، دون أن تأخذه في الله (جل جلاله) لومة لائم. فهو يتابع بدقة التقارير الإخبارية من الإذاعات والصحف في الشؤون الخارجية وما يقال عن الجمهورية الإسلامية، ويحرص على معرفة

مختلف وجهات النظر للتيارات السياسية في الشؤون الداخلية، وهو لا يسمح لنفسه حين يتخذ القرارات، بأن يقع تحت تأثير أي تيار من التيارات العاملة في الساحة، ولم تكن لديه أية حساسية من الاختلاف في الرأي بين التيارات الإسلامية، وإنما كان ينظر إليها على أنها ظاهرة طبيعية وإيجابية لخدمة الإسلام والجمهورية الإسلامية وأبناء الشعب مع توفر الإخلاص والحكمة في إدارتها. وقد جعل الموازين الشرعية، والمصلحة الإسلامية العليا، وتطبيق القوانين، ميزانا في الموقف من كافة التيارات السياسية، وتحديد حجم الدعم والمساندة لها، وضمان حقها في العمل والتعبير عن رأيها.. وعلى هذا الأساس المتين: نجح في إدارة الاختلاف في الرأي بين التيارات السياسية، وضمان حقها في التعبير، وصيانة الثورة والدولة، والمحافظة على وحدة الصف الإسلامي والوطني.. في إطار شرعي متماسك.

يقول السيد مير حسين الموسوي:

" وهكذا فإن الإمام كان يحترم الكوادر الخدومة في الدولة ويرعاها ويثمن جهودها. فلو أننا لم نواجه إلى الآن اختلافات كبيرة، أو مشادات خطيرة بين المسؤولين في الجمهورية الإسلامية، فإن ذلك كان بفضل النهج السليم والأسلوب الحكيم والصبور الذي كان الإمام ينتهجه في التعامل مع المسؤولين لإدارة دفة الدولة الإسلامية.. والحمد لله رب العالمين ". (الراصد. العدد العشرون حزيران ١٩٩٢. ص١٢).

وبهذه المناسبة أنقل إليكم القسم الأخير من الرسالة الجوابية للإمام الخميني ﷺ على رسالة الشيخ الأنصاري (أحد أعضاء مكتبه) بشأن الاختلاف بين التيارين المناصرين للثورة والنقد.. وذلك للاستفادة منها في فهم وتقييم الاختلافات بين المؤمنين في ساحتنا الوطنية وغيرها.

قال الإمام الخميني ﷺ: " وواضح أنه لو كان ثمة اختلاف بين الأفراد والأجنحة المرتبطين بالثورة، فهو سياسي حتى لو أضفي عليه ظاهر

عقائدي، فهم مشتركون في الأصول والمبادئ، وهذا هو سبب تأييدي لهم.

إنهم أوفياء للإسلام والقرآن والثورة، وقلوبهم تتحرق إخلاصا للبلد والشعب، ولكل منهم ـ فيما يتعلق بتقدم الإسلام وخدمة المسلمين ـ مشروع وآراء يعتقد أن بها يكون النجاح.

وكلا التيارين في أكثريتهما الغالبة يريدان بلدهما مستقلا.

وكلاهما يريدان قطع دابر سيطرة الطفيليين المرتبطين سواء بالحكومة أو السوق (البازار) والشارع وإزالة شرهم عن الناس.

وكلاهما يريدان أن يعيش ـ الموظفون الشرفاء والعمال والفلاحون المتدينون والكسبة المخلصون ـ حياة نظيفة سليمة.

وكلاهما يريدان أن لا تكون هناك سرقات أو رشاوى في المؤسسات الحكومية والخصوصية.

وكلاهما يريدان أن تتطور إيران الإسلامية في المجال الاقتصادي بحيث تكسب أسواق العالم لصالحها.

وكلاهما يريدان أن تصبح الأوضاع الثقافية والعلمية في إيران على حالة بحيث تتوافد معها حشود الجامعيين والمحققين (الباحثين) من كافة أرجاء المعمورة على المراكز التربوية والعلمية والفنية والأدبية في إيران.

وكلاهما يريدان جعل الإسلام قوة العالم الكبرى.

إذن فعلام يختلفون؟

الاختلاف ناشئ من أن كلا منهما يعتقد أن منهجه هو الذي يؤدي إلى تحقيق كل هذه الأهداف.

ولكن عليهم الانتباه ـ بصورة كاملة ـ إلى أن المواقف يجب أن تكون جامعة بين حفظ أصول الإسلام ومبادئه على مدى التاريخ، وبين حفظ سخط كلا التيارين وسخط الجماهير وحقدهما الثوري ضد رأسمالية الغرب وعلى رأسها أمريكا ناهبة العالم، وضد الشيوعية والاشتراكية الدولية وعلى رأسها الإتحاد السوفيتي المعتدي.

على كلا التيارين أن يسعيا بأقصى

ما يمكن من اجل عدم السماح بوقوع انحراف ـ ولو بمقدار ذرة ـ عن سياسة " اللاشرقية واللاغربية " ولو وقع انحراف ـ ولو بمقدار ذرة ـ فعليهما أن يقوماه بسيف العدالة الإسلامية.

على كلا التيارين أن يعلما بأن لهما ـ معا ـ أعداء مشتركين كبار لا يرحمون أيا منهما.

على كلا التيارين أن يراقبا (يرصدا) ـ بإخلاص وصدق (وبجدية) ـ أمريكا ناهبة العالم والاتحاد السوفيتي الخائن للأمة الإسلامية.

على كلا التيارين أن يقوما بتوعية الجماهير بحقيقة أنه ـ وإن كان صحيحا أن أمريكا الماكرة هي عدوهم الأول ـ إلا أن أبناءهم الأعزاء قد استشهدوا بالقنابل والصواريخ السوفيتية.

على كلا التيارين أن لا يغفلا عن مكائد وأحابيل هذين " العفريتين " الاستعماريين، وليعلما أن أمريكا والاتحاد السوفيتي متعطشان لدم إسلامهما واستقلالهما.

اللهم.. فاشهد أنت أنني قد قلت ما كان يجب أن أقوله لكلا التيارين، والآن كلاهما يعرفان ما يجب !

وهناك شيء مهم آخر يمكن أن يكون باعثا للاختلاف ـ وعلينا جميعا أن نستعيذ بالله من شره ـ وهو " حب النفس " وهو لا يعرف هذا التيار أو ذاك.

ولا يعرف رئيس الجمهورية ولا رئيس مجلس الشورى ولا رئيس الوزراء.

ولا يعرف النائب (في المجلس) ولا الوزير.

ولا مجلس القضاء الأعلى ولا مجلس حماة الدستور.

ولا منظمة الإعلام ولا مكتب التبليغ.

ولا العسكري وغير العسكري.

ولا الحوزوي وغير الحوزوي.

ولا الجامعي وغير الجامعي.

ولا المرأة ولا الرجل.

لا يعرف شيئا من هذه العناوين.

وهناك طريق واحد ـ لا غير ـ لمكافحته: وهو الرياضات والمجاهدات.

وعلى أية حال: فإذا نظر السادة إلى القضايا من زاوية أن الجميع يريدون دعم النظام والإسلام، تحل عندهم الكثير من المعضلات وأشكال الحيرة، ولكن هذا لا يعني أن يكون الجميع أتباعا لتيار واحد ـ بصورة مطلقة.

وبهذه الرؤية قلت أن النقد البناء لا يعني المعارضة، والتنظيم (التجمع) الجديد لا يحمل مفهوم الاختلاف (المعارضة).

إن النقد البناء في موارده المناسبة هو عامل لتطور المجتمع ونضوجه، وإذا كان النقد محقا يصبح سببا لهداية كلا التيارين.

ولا ينبغي لأحد أن يعتبر نفسه " مطلقا " ومنزها عن الانتقاد، ومفهوم أن النقد شيء والتعامل على أساس الانتماء للخط والتيار الفلاني شيء آخر.

وإذا عمد شخص أو مجموعة في هذا النظام إلى إسقاط أو تدمير الآخرين ـ لا سمح الله ـ وقدمت مصلحة جناحها أو خطها على مصلحة الثورة، فإنها وقبل أن توجه ضربة لمنافسها أو منافسيها ستكون قد وجهت ضربة للإسلام والثورة.

وفي كل حال فإن أحد الأعمال التي يحصل بها رضا الله تعالى ـ بصورة يقينية ـ هو تأليف القلوب والسعي من أجل إزالة الأضغان والتقريب بين المواقف خدمة لبعضهم البعض.

يجب اجتناب أولئك الوسطاء الذين يحضر عملهم في إشاعة سوء الظن لدى أفراد كل جناح تجاه الجناح الآخر.

إن لديكم أعداء مشتركين من الكثرة بحيث يجب التصدي لهم بتعبئة كل طاقات الجميع، ولكن إذا شاهدتم أن أحدا ما أخذ يتجاوز المبادئ والأصول فتصدوا له بحزم.

وبديهي أنكم تعلمون أن الحكومة والمجلس وكبار مسؤولي النظام لم

ينحرفوا عن الأصول ولم يتجاوزا الخطوط الحمراء أبدا.

وواضح لدي أن في وجدان كلا التيارين يكمن الإيمان والعشق لله ـ تعالى ـ ولخدمة الخلق.

يجب تطهير مسيرة التنافس من أشكال التلوث والانحراف والإفراط والتفريط. وذلك من خلال تبادل الأفكار والآراء البناءة.

ومرة أخرى أجدد الوصية بأن بلدنا وهو في مرحلة الأعمار والبناء يحتاج إلى التفكير (الجاد) والوحدة والأخوة.

أسأل الله أن يتلطف بالتوفيق لجميع الذين تخفق قلوبهم من أجل إحياء الإسلام الأصيل، إسلام محمد صلى الله عليه وآله وتحطيم الإسلام الأمريكي، وأن يحفظكم والجميع في كنف ألطافه وتأييده. وإن شاء الله تكونوا من أنصار الإسلام والمحرومين. (ريادة الفقه الإسلامي ومتطلبات العصر. ص ٨٧ ـ ٩٣).

أيها الأحبة الأعزاء: لقد استطاع الإمام الخميني قدس سره بهذا المنهج العظيم الذي يقوم على أسس شرعية وعقلية متينة وثابتة، أن ينجح في ثورته الإسلامية المباركة، ويحقق أهدافها العظيمة، وأن يقيم الدولة الإسلامية الحديثة القوية، ويحافظ على النظام الإسلامي فيها، ويجعل من النظام في الجمهورية الإسلامية المباركة مصنعا لتفريخ القيادات والكوادر الإسلامية التي تمتلك الإخلاص والكفاءة، ويتغلب على نقص الخبرة لدى المسؤولين في بداية عهد الجمهورية الإسلامية، ويضبط الحالة الثورية لدى أبناء الشعب، ويمنعها من الانفلات والخروج عن حدودها المرسومة لها، وأن يواجه التحديات والأخطار الداخلية والخارجية بكفاءة وجدارة، حيث الحرب المفروضة لثمانية أعوام متتالية، والحصار الشامل على الجمهورية الإسلامية وتجميد أموالها، ووقوف حكومات العالم (التي أقلقها نجاح الثورة وقيام الجمهورية الإسلامية) إلى صف صدام حسين ومناصرته وتقديمها كافة أشكال

الدعم إليه. وحيث الانفلات الأمني على مستوى الداخل، وفقدان الثورة لسبعين في المائة (تقريبا) من قيادات الصف الأول بسب التصفية الجسدية لهم على يد أعداء الثورة المجرمين، وحيث الأزمة الاقتصادية ونقص الخدمات وضعف البنية التحتية.. الخ. كما نجح منهج الإمام الخميني ﷺ في فرض الرقابة الشعبية الواعية على المسؤولين، والإطاحة بالعملاء الذين تسللوا إلى مراكز قيادية متقدمة في الدولة، وإبعاد من ليست لهم أهلية عن المراكز الحساسة فيها رغم تاريخهم الجهادي والديني الطويل.. فلله دره من قائد عظيم.

ثانيا ـ مواقف الإمام الخميني من بعض القضايا الإسلامية.

القضية الأولى ـ فلسطين: تعتبر قضية فلسطين من المحاور الرئيسية وذات أولوية في اهتمامات الإمام الخميني ﷺ وتحركاته، وقد ظهرت بصورة مبكرة في حياته السياسية، ويتكرر ظهورها كثيرا في خطابه التوعوي والنهضوي في مختلف المناسبات الدينية والوطنية.. ونستطيع اختصار رؤية الإمام الخميني ﷺ للقضية الفلسطينية في النقاط التالية:

النقطة الأولى: ركز الإمام الخميني ﷺ على النشأة غير الطبيعية للكيان الصهيوني.. فهو (على خلاف نشأة كافة الدول) كيان لقيط، حيث تم تجميع اليهود فيه من كافة أنحاء العالم، لينشأ هذا الكيان بصورة غير طبيعية، في ظروف صعبة مر بها العالم الإسلامي بعد الحرب العالمية الثانية، لتحقيق أغراض استعمارية خبيثة في العالم الإسلامي الذي مزقت الحرب كيانه، وذهبت بوحدته وهيبته وقوته. وقد مال الكيان الصهيوني إلى العدوانية والتوسع وفرض الهيمنة على المنطقة، ومنعها من التقدم العلمي والصناعي والاقتصادي وبناء قوتها العسكرية والسياسية وإعادة توحيد صفوفها من جديد. وقد ربط الإمام الخميني ﷺ ربطا عضويا بين الكيان الصهيوني وحلفائه من قوى الاستكبار العالمي وعلى رأسهم الشيطان الأكبر: أمريكا.

يقول الإمام الخميني ﷺ: " إن أمريكا تكشر عن أنيابها وتلوح بمخالبها في المنطقة، داعمة بذلك عميلتها إسرائيل المنفذة لجرائمها في المنطقة.. علينا أن لا نغفل عن ألا عيبهم السياسية في المنطقة ". (قضية فلسطين والصهيونية في رؤية الإمام الخميني. محمد تقي. ص ٣٢).

وقال: " إن أمريكا وللسيطرة السياسية والاقتصادية والثقافية والعسكرية على العالم الخاضع للتسلط، لا تترك جريمة إلا اقترفتها، فهي تستغل الجماهير المظلومة في العالم عبر إعلامها الموسع والمنظم من قبل الصهيونية العالمية " (نفس المصدر. ص٣٣).

النقطة الثانية: ركز الإمام الخميني ﷺ على شمولية الأهداف الاستعمارية والعدوانية للكيان الصهيوني اللقيط، وعموميتها لكافة الدول الإسلامية وليس حصرها في الدول العربية. فالإمام الخميني يرى بأن أهداف الكيان الصهيوني شاملة لكافة الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية والأخلاقية والمعنوية، ولكافة الشعوب الإسلامية وليست الشعوب العربية فحسب.. كما يحاول البعض (خطأ) تصويره، وقد ربط الإمام الخميني ﷺ بين تحرير فلسطين، وفرصة المسلمين في التطور والتقدم المادي والمعنوي، وجعل من القضية الفلسطينية المؤشر على عزتهم وكرامتهم ومكانتهم بين الشعوب والأمم على وجه الأرض.

يقول الإمام الخميني ﷺ: " إني وضمن واجبي الشرعي، أعلن للشعب الإيراني ولكل مسلمي العالم عن خطورة الوضع القائم، فالقرآن الكريم والإسلام في خطر محدق، واستقلال الدولة واقتصادها في قبضة الصهاينة ". قضية فلسطين والصهيونية في رؤية الإمام الخميني. محمد تقي. ص ٢ - ٣).

وقال: " إن بؤرة الفساد هذه المزروعة في قلب الأمة الإسلامية من قبل الدول الكبرى، وجذورها الفاسدة

تهدد يوميا عالمنا الإسلامي، فيجب اقتلاع جذورها بهمة البلدان الإسلامية والشعوب المسلمة العظيمة " (نفس المصدر. ص٣).

النقطة الثالثة: ركز الإمام الخميني ﷺ على البعد الديني في المقاومة للكيان الصهيوني ومواجهته.

يقول الإمام الخميني في إحدى رسائله الجوابية إلى الطلبة المسلمين المقيمين في أمريكا وأوربا وكندا.. بتاريخ (٩ / صفر / ١٣٩٣هـ): " لو كانت الأقطار الإسلامية والشعوب المسلمة قد اعتمدت على الإسلام بدلا من اعتمادها على المعسكرين الشرقي والغربي، ووضعت تعاليم القرآن الكريم التحررية والمشعة بالنور نصب أعينها وطبقتها في حياتها اليومية، لما أضحت اليوم أسيرة بيد الصهاينة المعتدين، ولما أرعبتها طائرات الفانتوم الأمريكية، ولما خضعت للأساليب التساومية وألاعيب المكر الشيطانية التي يتبعها الاتحاد السوفيتي " (الإمام الخميني. عادل رؤوف. ص٤١٦).

ومن خلال الاعتماد والتركيز على البعد الديني: فقد حقق الإمام الخميني العظيم ﷺ مكاسب عديدة لصالح المواجهة مع الكيان الصهيوني.. منها:

المكسب الأول: أدخل كافة الشعوب الإسلامية في المواجهة مع الكيان الصهيوني، وأخرج القضية من الدائرة القومية الضيقة.

المكسب الثاني: توظيف العنفوان والمعنويات الدينية واستعداد المؤمنين للشهادة في سبيل الله (تبارك وتعالى) لخدمة القضية ومقاومة الكيان الصهيوني المحتل لفلسطين والقدس الشريف.

النقطة الرابعة: رفض الإمام الخميني ﷺ الاعتراف بالكيان الصهيوني والتفاوض معه، وحذر من ذلك أشد التحذير، ودعا إلى المواجهة الشاملة: العسكرية والاقتصادية والإعلامية معه، وبكافة الأساليب المشروعة.. وذلك للأسباب التالية:

السبب الأول (ديني): وهو أن

فلسطين أرض إسلامية محتلة، والتكليف الشرعي لكافة المسلمين هو تحرير كامل ترابها، وعدم التفريط في شبر واحد منها، وأن قضيتها لا تخص الفلسطينيين وحدهم، وإنما هي قضية كافة المسلمين، ولا يجوز للفلسطينيين التفرد بها، على أنها قضيتهم وحدهم.

السبب الثاني (حقوقي): وهو أن الحوار والتفاوض إنما يكون بين أطراف تتفق على ملكية كل واحد منها أو اختصاصه لبعض الحق، وتختلف بينها حول ملكية أو اختصاص البعض الآخر منه.. والواقع أنه لا حق ولا اختصاص للكيان الصهيوني في فلسطين.

السبب الثالث (سياسي): وهو الطابع العدواني الذي فرضته طبيعة النشأة والأهداف الاستعمارية للكيان الصهيوني اللقيط. ولهذا فكل المساعي السلمية والتفاوض لن تجدي معه، لأنها تخالف طبيعة نشأته وأهدافه الاستعمارية الخبيثة.

يقول الإمام الخميني ﷺ: " لقد أشرت من قبل وسمعتم لمرات عديدة، أن إسرائيل لا تكتفي بهذه، وتعتقد بأن الحكومات العربية من النيل إلى الفرات غاصبة لأرضها، وسيرتدون بدلة العمل آجلا أم عاجلا، وبمساعدة أمريكا، في محاولة للوصول إلى البغية المنشودة لا سمح الله، إن لم يصح حكام العرب من نومهم العميق هذا ".
(قضية فلسطين والصهيونية في رؤية الإمام الخميني. محمد تقي. ص٦).

النقطة الخامسة: ركز الإمام الخميني ﷺ على الشعوب والوحدة الإسلامية في تحرير فلسطين، وذلك ليأسه من الحكومات التي ربطت مصيرها بالغرب ومناهجه السياسية والاقتصادية والثقافية على حساب شعوبها ومصالحها وقضاياها الإستراتيجية والحيوية. ودعا الشعوب الإسلامية للاهتمام بإصلاح أوضاعها الداخلية لا سيما الاستقلال الثقافي، كمقدمة ضرورية للنجاح في تحرير فلسطين والمسجد الأقصى الشريف.

يقول الإمام الخميني ﷺ: " إذا تصورت الشعوب بأن الحكومات هي

التي ستقضي على إسرائيل، وتقف في وجه القوى الأخرى التي تريد إذلال هذه الشعوب وامتصاص خيراتها وذخائرها، فإن هذا تصور واه. على المسلمين أن لا يجلسوا وينتظروا من حكوماتهم العمل لإنقاذ الإسلام من أيدي الصهيونية. ولا ينتظروا من المنظمات الدولية أن تعمل شيئا لهم. على الشعوب ذاتها أن تنهض وتجبر الحكومات كي تقف في وجه إسرائيل، وأن لا تكتفي بالإدانة، فرفاق إسرائيل يدينون إسرائيل أيضا، ومهما بلغت الإدانة من حدة في الظاهر، فإنها لا تخرج في الواقع عن حد المزاج. إذا تصور المسلمون أن تقوم أمريكا أو عملاء أمريكا بعمل ما لهم، فإن ذلك ضرب من المستحيل، وستبقى هذه القافلة معاقة إلى الأبد ". (قضية فلسطين والصهيونية في رؤية الإمام الخميني. محمد تقي. ص١٣).

النقطة السادسة: برز اهتمام الإمام الخميني ﷺ بالقضية الفلسطينية في ممارسات عديدة.. منها: احتضان كافة الفصائل الفلسطينية، والسماح بتقديم الحقوق الشرعية لها، وإغلاق السفارة الصهيونية وتحويلها إلى سفارة فلسطين، وهي أول سفارة للفلسطينيين في العالم، ودعوة الشعب الإيراني والشعوب الإسلامية إلى رفع شعار الموت لأمريكا والموت لإسرائيل، وإعلان آخر جمعة من شهر رمضان المبارك كيوم للقدس العالمي، والدعوة إلى مسيرة البراءة في الحج المعظم.. الخ.

القضية الثانية ـ الوحدة الإسلامية: تعتبر قضية الوحدة الإسلامية من القضايا التي استحوذت على اهتمام الإمام الخميني ﷺ وقد أقام الدعوة إليها على أساسين.. وهما:

الأساس الأول ـ الأساس الديني: فقد نص القرآن الكريم على أن الأمة الإسلامية أمة واحدة.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٩٢).

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾

(المؤمنون: ٥٢).

ويجمع الأمة الإسلامية إطار مقدس شريف واحد.. وهو: شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله ﷺ.

وتقوم الوحدة بين المسلمين على أركان عديدة.. وهي: وحدة الكتاب، ووحدة القبلة، ووحدة الفرائض (الصلاة والصيام والحج والزكاة.. وغيرها).

الأساس الثاني ـ الأساس السياسي: وذلك أن التحديات والأخطار التي تواجه الأمة الإسلامية، تواجهها كأمة واحدة وليس كل مذهب على حدة. وأنها لن تستطيع أن تواجه تلك التحديات والأخطار وتنتصر عليها، إلا إذا واجهتها مجتمعة. ولن تستطيع أن تحافظ على استقلالها، وتدافع عن مصالحها، وتحمي مقدراتها وثرواتها، وتصون كرامة أبنائها وعزتهم، إلا إذا وحدت صفوفها، واجتمعت في خندق دفاع واحد.. وهذا كله: يوحد بينها في المصير.

يقول الإمام الخميني العظيم ﷺ: " بحكم الإسلام يجب أن يكون المسلمون يدا واحدة ليستطيعوا قطع يد الأجانب والمستعمرين عن التدخل في أوطانهم " (مجلة الثقافة الإسلامية. العدد الحادي والخمسون. ص٦)

وقال: " فإذا تحققت الوحدة بين المسلمين، وستتحقق إن شاء الله، فستقطع أيدي الدول الكبرى عن ثروات المسلمين وكافة المستضعفين في العالم ". (مجلة الثقافة الإسلامية. العدد ٤٥. ص١١).

وعلى ما تقدم: فقد اعتبر الإمام الخميني ﷺ أن كل دعوات التفريق بين المسلمين، لا تنطلق من الدين، ولا تنم عن وعي، وأنها تصب في خدمة أعداء الدين والإنسانية.

يقول الإمام الخميني ﷺ: " فالأنبياء من أولهم إلى آخرهم دعوا إلى الأخوة والتآلف، ثم جاءت فئة تربت في أحضان الغرب أو الشرق وأخذت تنادي عن عمد أو غير عمد بالقومية وأخذت تدعو الشعب العربي

إلى الوقوف في وجه الإسلام والشعب المسلم وأخذت تدعو إلى القومية عند الشعوب وتؤكد على اللون. هذه القضايا التي تدعو إلى الفرقة والخلاف هي من صنع الدول العظمى والشياطين الكبار. وهي تريد إثارة الفرقة بين الشعوب والأفراد ونحن نرى بأن الإسلام يؤكد على الأخوة ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ فكل قضايا المؤمنين المتمثلة في الأخوة والمساواة قد جاء بها القرآن الكريم " (مجلة الثقافة الإسلامية. العدد ٤٥. ص١٠).

ومن مصداقية الإمام الخميني في الدعوة إلى الوحدة الإسلامية: أن أحد العلماء المجاهدين في إحدى المدن التي يقطنها الشيعة والسنة في إيران، بعث برسالة إلى الإمام ذكر فيها أن أهل السنة عمدوا إلى بناء حوزة علمية فيها، وطلب من الإمام الموافقة على بناء مدرسة علمية إلى الشيعة، ولم تكن هناك حاجة ملحة لبناء المدرسة، وإنما الدافع هو الضدية لأهل السنة.. وعندما عرضت الرسالة على الإمام أجاب بلهجة صارمة: " لا ينبغي العمل بالضدية مع الأخوة السنة، كلا هذا الدليل ليس كافيا لأن يكون عندنا مدرسة علمية.. بسبب أنهم يملكون هم مدرسة " (في ظلال الشمس. ترجمة عز الدين. ص ٩٩).

وكان الإمام الخميني قد دعا إلى مسيرة الوحدة في المدينة المنورة في مواسم الحج، وأفتى بالصلاة حلف أمامي الحرمين الشريفين.

ولشدة إيمان الإمام الخميني ﷺ وصدقه في الدعوة إلى الوحدة الإسلامية، فقد تضمن دستور الجمهورية الإسلامية النص عليها في المادتين: الحادية عشر والثانية عشر من الفصل الأول.. وهذا نصهما:

المادية الحادية عشر: بحكم الآية الكريمة ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ يعتبر المسلمون أمة واحدة، وعلى حكومة جمهورية إيران الإسلامية إقامة سياستها العامة على أساس تضامن الشعوب الإسلامية ووحدتها، وان تواصل سعيها من أجل تحقيق الوحدة السياسية والاقتصادية

والثقافية في العالم الإسلامي.

المادة الثانية عشر: الدين الرسمي لإيران هو الإسلام والمذهب الجعفري ألاثني عشري، وهذه المادة تبقى إلى الأبد غير قابلة للتغيير.

وأما المذاهب الإسلامية الأخرى والتي تضم المذهب الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي والزيدي فإنها تتمتع باحترام كامل، وأتباع هذه المذاهب أحرار في أداء مراسمهم المذهبية حسب فقههم، ولهذه المذاهب الاعتبار الرسمي في مسائل التعليم والتربية الدينية والأحوال الشخصية (الزواج والطلاق والإرث والوصية) وما يتعلق بها من دعاوى في المحاكم.

وفي كل منطقة يتمتع أتباع أحد هذه المذاهب بالأكثرية، فإن الأحكام المحلية لتلك المنطقة ـ في حدود صلاحيات مجالس الشورى المحلية ـ تكون وفق ذلك المذهب، هذا مع الحفاظ على حقوق أتباع المذاهب الأخرى.

الجدير بالذكر: أن الإمام الخميني ﷺ يدعو إلى وحدة الدين وليس وحدة المذهب. فهو لا يدعو إلا إلغاء المذاهب والذوبان في مذهب واحد لكي تتوحد الأمة الإسلامية.. فهذه الدعوة غير منطقية وغير ممكنة التحقق الآن في ظل الغيبة. وإنما يدعو إلى الالتزام بوحدة الأمة الإسلامية على ما تقدم من الأسس، مع بقاء أصحاب كل مذهب على مذهبهم. ولهذا نجد الإمام الخميني ﷺ رغم دعوته إلى الوحدة الإسلامية، فإنه شديد التمسك بمذهب أهل البيت عليهم السلام والدعوة إلى إتباعه، باعتباره فرض من الله (جل جلاله) أنزله في الكتاب، وبلغ به الرسول العظيم صلى الله عليه وآله.

القضية الثالثة ـ الصراع الثقافي مع الاستعمار: يضع الإمام الخميني العظيم ﷺ الثقافة على رأس كافة الأمور في الشأن العام.. ويرى: بأن الإصلاح إنما يمر عبر الثقافة.. وبه يبدأ. وأن ورقة عبور الاستعمار وأعداء الدين إلى الأمة الإسلامية هي الثقافة،

وبالثقافة يجب أن يبدأ الإصلاح ومكافحة الاستعمار وأعداء الدين. ويتعجب الإمام ﷺ من الحركات الثورية التي تهتم بالتحرر السياسي والاقتصادي والاجتماعي من الاستعمار.. وتتجاهل التبعية الفكرية. بل تسعى لحمل الثقافة الغربية والترويج إليها واستخدام مفاهيمها وأدواتها وأساليبها ومناهجها في العمل السياسي والاقتصادي والاجتماعي والإعلامي وسائر شؤون الحياة في البلاد الإسلامية، على حساب الثقافة الإسلامية ومفاهيمها وأدواتها وأساليبها ومناهجها، ويعيش القائمون عليها الوعي من خلال الوعي الأجنبي الغربي أو الشرقي، ويفكرون من خلال فكره وأدواته ومناهجه الفكرية والسياسية، فيعيشون بذلك حالة فصام الوعي، ويفشلون في كسب الجماهير وتحريكهم بقوة في قضايا التحرير وبناء النهضة الوطنية والقومية.

إن الإمام الخميني العظيم ﷺ يرى ببصيرته الثاقبة: أن الشعوب الإسلامية ما لم تحصل على الاستقلال الفكري، لن يمكنها الحصول على الاستقلال في الأبعاد الأخرى. ولهذا فهو يعتبر التحرر من التبعية الثقافية المهمة الأهم والأصعب للتيار الإسلامي في النهضة الإسلامية والاستقلال.

يقول الإمام الخميني: " إن أكبر التبعيات هي تبعية الشعوب المستضعفة الفكرية للقوى الكبرى وللمستكبرين، وإن جميع التبعيات تنبثق من هذه التبعية الفكرية " (الراصد. العدد العشرون حزيران ١٩٩٢. ص ٨٤ ـ ٨٥).

وقال: " اعتمدوا على الفكر الإسلامي، وحاربوا الغرب والتغريب، وقفوا على أقدامكم، واحملوا على المثقفين الموالين للغرب والشرق " (نفس المصدر).

وعلى هذا الأساس الواضح المتين: طرح الإمام الخميني ﷺ فكرة لا شرقية ولا غربية، باعتبار أن المسلمين أمة مستقلة، لها عقيدتها

ونظامها الرائد ومنهجها وسلوكها في الحياة. وكان ذلك من ركائز أصالة تفكير الإمام وقوته، الأمر الذي خلق انجذابا وحبا منقطع النظير نحو الإمام من كافة المسلمين، وخلق لدى أتباعه والسائرين على منهجه العظيم، الشعور بالعزة والكرامة والثقة بالنفس، والقدرة على التحدي والوقوف في وجه الأعداء مهما كانت كثرتهم وقوتهم.

ثالثا ـ السمات الأساسية لخطاب الإمام الخميني: يتمتع خطاب الإمام الخميني ﷺ بمجموعة خصائص جعلت منه خطابا متميزا.. منها:

الخاصية الأولى ـ التركيز والمتابعة: فخطاب الإمام الخميني ﷺ لا يخضع للظروف والصدفة، وإنما هو خطاب مدروس في مضامينه وظروفه، ومخطط له بدقة كبيرة. فلدى الإمام الخميني محاور أساسية ذات أولوية، يركز عليها في الخطاب بصورة مستمرة، ويتابع الحديث عنها في مختلف المناسبات.. مثل: أهمية الدين والقيم المعنوية ودورهما في الحياة على ضوء عقيدة التوحيد، والحكومة الإسلامية، والقضية الفلسطينية، والوحدة الإسلامية، والاستقلال، ومناهضة الظلم والاستكبار لصالح المستضعفين في الأرض.. الخ.

الخاصية الثانية ـ الصدق والشفافية: يمتاز خطاب الإمام الخميني ﷺ بالصدق في تبيان الحقائق وإعلانها إلى الناس، ويلتزم بالشفافية مع الجماهير والأتباع.. ويرى أن الجماهير: تمثل أهم شريحة محترمة لمعرفة الحقائق. فالإمام الخميني ﷺ لا يعد بما لا يفعل، ولا يعمي الحقائق على الناس، ولا يلجأ إلى التدليس والمراوغة مع الجماهير.. كما يفعل أصحاب المصالح وأتباع المناهج المادية. لأن هدفه مرضاة الله (تبارك وتعالى) وخدمة مصالح العباد، وهذا يتطلب الصدق والشفافية مع الناس، وليس التدليس وتعمية الحقائق عليهم.

الخاصية الثالثة ـ الوضوح يمتاز الخطاب الجماهيري للإمام الخميني ﷺ باستخدام لغة واضحة

المفـردات، يسـيرة فـي الاسـتيعاب والفهم، بعيدة عن تعقيدات الألفاظ، ويأتي بصورة مباشرة لا تحتاج إلى تفسير أو تأويل.. لأن الهدف منه: نشر الوعي، وتحديد الموقف، والتحشيد الجماهيري نحوه، وذلك لخدمة الأهداف والقضايا الإسلامية والوطنية. وقد أثار الوضوح في الخطاب الجماهيري للإمام الخميني قدس سره استغراب الكثير من المطلعين على كتبه الفكرية التي يستخدم فيها لغة علمية حرفية، حيث لم يكونوا يتوقعون أن صاحب ذلك القلم العلمي المحترف، يستطيع أن يخاطب الجماهير بلغة واضحة يفهمونها على اختلاف مستوياتهم الفكرية والعلمية.. وبالأسلوب الذي يتأثرون به ويتجاوبون معه.

الخاصية الرابعة ـ الثبات: يمثل خطاب الإمام الخميني قدس سره كتلة واحدة في المضمون الفكري والتوجهات العملية، حيث تتطابق فيه البدايات مع النهايات. فلا تضيع فيه الثوابت، ولا يغيب عنه التوازن والتكامل بين كافة الملفات والقضايا الحيوية والساخنة في الساحة الوطنية والدولية، ولا يقع في مطبات الصعود والهبوط والتأرجح على غير بصيرة، ولا الاهتزاز بين القوة والضعف بدون مرجح، ولا يقع في إشكالية التناقض (بحسب اختلاف المواقع ومتطلبات المجاملة) التي من شأنها أن تغير في المضمون أو تضعف من الموقف أو تخدم قضايا أو مزاعم باطلة، لأنه خطاب إسلامي مبدئي مبني على رؤية واضحة، وصلابة في المواقف، ووظيفته تحطيم حواجز الخوف للسير قدما في خطى الثورة وبناء الدولة ومواجهة التحديات والصعوبات التي تواجههما. وقد عرف عن الإمام الخميني قدس سره أنه حينما يتخذ قرارا لا يتنازل عنه ما دام يعلم أنه الحق.. مع السلطة أو غيرها. والهدف هو: خدمة القضايا التي تتعلق بالمشروع الإسلامي بإخلاص، وتجسيده تجسيدا حيا على أرض الواقع.

الخاصية الخامسة ـ المصداقية: يمتاز خطاب الإمام الخميني قدس سره

بالمصداقية، حيث ينظر إلى المشروع الإسلامي على أنه مشروع قيادي حي متحرك على الأرض، والخطاب الإسلامي يعبر عنه في صورته الواقعية الحية، ويسعى لتجسيده على أرض الواقع والحياة. فالخطاب الإسلامي لدى الإمام الخميني ﷺ ليس خطابا ترفيا وجد للاستهلاك الإعلامي أو اللعب بالسياسة، وإنما هو خطاب موجود من أجل العمل وتشكيل الخطوات العملية لإنجاز المشروع الإسلامي وتجسيده في الحياة على أرض الواقع. فالخطاب لدى الإمام الخميني العظيم ﷺ يعبر عن المشروع الإسلامي الشامل، ويرسم معالمه بوضوح، ويحدد المواقف التي تصب في خدمة أهدافه العملية، ويؤسس لها فكريا وسياسيا واجتماعيا وأخلاقيا، ويحشد إليها المؤيدين والأتباع، ويدافع عنها ويحميها من التشويه أو الانتقاص.. وهكذا كان.

الخاصية السادسة ـ حسن التوقيت: يمتاز خطاب الإمام الخميني ﷺ بحسن التوقيت في طرح الموضوعات والقضايا. فهو من المتابعين الممتازين للأحداث الوطنية والإقليمية والدولية، ومتحسس لكل طارئ، ومتربص لاقتناص الفرص، من أجل خدمة أهدافه الإسلامية العظيمة. فيصدر البيانات التي توضح الرؤية والموقف ويخطب في الأوقات المناسبة بدون تردد، حيث لا يدخل الخوف إلى قلبه، ولا تأخذه في الله (جل جلاله) لومة لائم.

مِحْوَرُ العَدَدِ:

ثَوْرَةُ العِشْرِينَ

أَصَالَةُ النَّهْجِ المُقَاوِمِ وَالتَّلَاحُمُ الاِجْتِمَاعِيُّ

دَوْرُ النَّجَفِ وَالحَوْزَةِ العِلْمِيَّةِ

فِي الثَّوْرَةِ العِرَاقِيَّةِ الكُبْرَى عَام (١٩٢٠م)

وَالِانْتِفَاضَاتِ الوَطَنِيَّةِ الأُخْرَى

❖ السيد العلامة محمد صادق بحر العلوم قدس سره

يعد هذا المقال من أهم المقالات فيما يرتبط بوضع ثورة العشرين بالنجف نتيجة لما حواه من مصادر ومنهجية مدروسة ولذا أوجب اعادة نشره والاستفادة منه.

مقدمة:

خلال مطالعاتي للتأريخ السياسي وما تتناقله كتب المؤرخين من أهمية لثورة العشرين التي قادها جهابذة العلماء في مدينتي النجف الأشرف وكربلاء حيث نزل إلى ميدان الجهاد معظم عشائر الجنوب، بقيادة العلماء، واستمر هذا العطاء بثورات وحركات لم يهدأ العراق معها حتى يومنا هذا. ويصب معظم هذا التعرض السلبي على رأس شيعة العراق بالذات نتيجة موقفهم المبتني على الاصرار حتى رفع مظلوميتهم في مواقع الدولة العراقية.

وبالرغم من أنَّ التاريخ لم يكن منصفاً ولم يكن أميناً في معظم نقله، لما يتخلله من شغب الرواة والمتحدثين بما يمثل مصالحهم وتعكسه نفوسهم في كتابة الواقع الحقيقي للأحداث، إلاَّ اننا نرى مع كل هذه المظلومية ان الكثير من الكتاب أعطو الأغلبية لسكان العراق وهم « الشيعة » حق ثورتهم وامتدادها حتى ونحن على أبواب القرن الجديد، وربما كان عهد صدام التكريتي أشد وأقسى ظرف يمر على شيعة العراق خاصة وشعب العراق عامة، قناعة منه فانه يستطيع أن يحقق لأسياده تصفية الوجود الشيعي في العراق وربما صعد به غروره إلى

تصفية الوجود الشيعي الإسلامي عموماً لقاء بقائه على كرسي الحكم في العراق مدة أطول، انطلاقاً من حماقته وغبائه وجهله بالتاريخ الذي ابتلي به الشيعة في العهد الأموي والعباسي، ولكنه نسي أن الحق لا يمكن أن يُقضى عليه مهما مرّ عليه الزمن وجاشت حقود الحاكم وما هي إلاَّ عملية وقت.

فالدستور الإنكليزي الإستعماري لثورة ١٩٢٠م وإبعاد الغالبية السكانية، لا يُبعد النجف الأشرف عن القيادة الثورية ولا يطفئ شعلتها الجهادية، وستبقى النجف قبلة المسلمين ومحط المراجع العظام والعلماء والشعب الثائر مهما جار عليها الزمن، لأن حمايتها بحاميها وهو سيّد الوصيين وأمام المتقين أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فهو حامي بيته ومَن يلوذ به والله المعين.

مكانة النجف الأشرف:

يطلق على مدينة النجف ثلاثة أسماء: النجف، الغري، المشهد. والنجف الأسم المعروف والغالب على التسميات الأخرى، والنجف هي ذلك المعهد الجامعي، العلمي الديني.

النجف، فرضت نفسها عندما شاء القدر لها أن يدفن فيها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ويبقى قبره غير معروف في ظرف من الظروف السياسية التي كانت تلاحق محبي الإمام وتابعيه، وظل القبر على سريته حتى عام ١٧٠هـ (أيام الرشيد). ومنذ ذلك الحين أخذت مدينة النجف تستقبل الزاحفين لزيارتها أفواجاً من المحبين والعاشقين للإمام علي عليه السلام وأبنائه وأحفاده.

في عام ٤٤٨هـ نزح إليها من بغداد كبير علماء الإمامية الشيعة في ذلك الوقت الشيخ ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي أثر فتنة طائفية أثارها السلجوقيون في بداية حكمهم في العراق، فهجموا على داره ونهبوا كتبه وأحرقوا كرسيه الذي يجلس عليه للتدريس إلى جانب احراقهم مكتبات اخرى قديمة. وبانتقاله إلى مدينة النجف فتح عهداً جديداً للنجف حيث تحولت من مدينة ومزار إلى جامعة

علمية كبرى. علماً بان مدينة النجف كان لها قبل الشيخ الطوسي شأنها العلمي وكانت مقصد الطلاب للدراسة على علمائها الأعلام[١]، واستمر بريق[٢] النجف العلمي مستمراً بعد الشيخ الطوسي رغم توجه البعض إلى مدينة الحلة التي تبعد عن النجف حوالي ٧٠كم لتصبح مدينة بديلة لكبار علماء الشيعة ومقر تدريسهم... إلاَّ ان النجف ظلت تحتفظ بمكانتها العلمية وبقي فيها الكثير من العلماء والفقهاء يتابعون تدريسهم.

لم يطل الوقت حتى عادت النجف داراً للعلم والتدريس حتى امتد هذا النبع إلى مدينة كربلاء وفيها مرقد الإمام الحسين عليه السلام واخيه العباس عليه السلام وفيها مثلما في الحلة من مياه وبساتين اضف إلى المراقد المقدسة، وبقيت معهداً للشيعة حتى القرن الثالث عشر الهجري. وبانتقال السيد محمد مهدي الطباطبائي المعروف ببحر العلوم من كربلاء إلى النجف الأشرف استقر الأمر كاملاً في النجف[٣]. ثم اعقبه تلميذه الشيخ جعفر كاشف الغطاء فزاد الأمر احكاماً وأصبحت النجف مدرسة الشيعة الكبرى ومعهدهم الأول ودار هجرتهم العلمية[٤] حتى عهد قريب.

انفردت النجف في اغلب عهودها بالمرجعية العليا حيث كان مقرها الدائم إلى جوار الإمام علي عليه السلام والمرجع مجتهد من كبار المجتهدين تتوافق آراء العلماء المجتهدين الآخرين على رئاسته ومرجعيته فيأخذ مكانته دون تعيين أو ترشيح وانما بتسديد رباني يهيء أن يقوم الخلف بعد السلف.

وتعقد الدراسات النجفية في قاعات للدرس في المساجد والحسينيات اضافة إلى دور الأساتذة، وهي دور متواضعة حيث يجتمع الطلبة عند اساتذتهم، وإذا كبر حجم الحلقة الطلابية تنتقل إلى المساجد وبعض الحسينيات أو المدارس المخصصة لسكن طلاب العلوم الدينية.

وتوجد في مدينة النجف مدارس خاصة لطلبة العلوم الإسلامية وهي في حقيقتها أقسام داخلية للطلبة القادمين

من خارج النجف، حيث تعطى للطالب غرفة لنومه واستقراره ومنها ينطلق إلى مكان دراسته، وربما يتخذ البعض هذه الغرفة للتدريس في بداية انطلاقته.

وتدريس العلوم الدينية في النجف الأشرف ينقسم إلى ثلاث مراحل:

أ- المقدمات: وهي المرحلة الأولى وتتضمن دراسة النحو والصرف وعلوم البلاغة والمنطق وهي مقدمة للتخصص في علمي الفقه والأصول.

ب- السطوح: ويقصد بها دراسة متون الكتب في الفقه الاستدلالي واصول الفقه، ويدرس في هذه المرحلة معالم الأصول وقوانينه وكفاية الأصول وغيرها، وهاتان المرحلتان تعدان الطالب ليكون مستعداً للمرحلة الثالثة، وهي البحث الخارج وتستغرقان وقتاً ربما قد يصل إلى عشر سنين أو أقل تبعاً لقابلية الطالب واستعداده الفكري.

جـ- البحث الخارج: وفي هذه المرحلة يكون اطلاق حرية المنافسة للطلاب على اوسع الأبواب، فيتسابق الطلبة مع اساتذتهم في مناقشة الآراء والنظريات مناقشة الند للند، ويزدادون ثقة بأنفسهم والاعتماد على مناقشتهم حيث يؤدي تلك المناقشات إلى أن تبرز في شخصية الطالب ثقته ثم اعداده ليكون مجتهداً حيث يعد فسه لنيل أضخم اجازة علمية وهي درجة « الاجتهاد »[٥].

مواقف النجف السياسية:

النجف الأشرف كغيرها من المدن فيها تنوع الآراء وتعدد الأفكار وهي في طليعة الحركات التحررية بل في أوائلها، خاصة وان للعلماء الأعلام نفوذهم الديني والسياسي حيثما كانوا، فالمرجع الأعلى الميرزا محمد حسن الشيرازي قاد الحركة الوطنية في ايران من مقره في سامراء - العراق، وأفتى تلك الفتوى المشهورة بتحريم استعمال التنباك.

وكذلك في بداية الحرب العالمية الأولى، رأى مجتهدو النجف الأشرف في هجوم الإنكليز على العراق تدخلاً سافراً على وطنهم، فأفتوا بالجهاد فانخرط الشعب في أثرهم بقيادة

المجتهد العالم السيد محمد سعيد الحبوبي ومعه كتائب العلماء وطلاّب النجف وساروا مدججين بالسلاح إلى ساحات القتال في معركة « الشعيبة » وغيرها.

وبعد الاحتلال الإنكليزي للعراق واعلان الانتداب، دعا المرجع الأعلى الشيخ ميرزا محمد تقي الشيرازي - من مقرّه في كربلاء - الشعب العراقي لمقاومة الاحتلال والثورة على الانتداب، فهب الشعب حاملاً سلاحه، فكانت الثورة العراقية الكبرى التي أرغمت المحتلين الإنكليز على اعلان الحكم الوطني، وتوفي الشيخ الشيرازي فقاد الثورة خلفه الشيخ فتح الله النمازي المعروف بشيخ الشريعة.

النجف والأدب والشعر:

وكما كان النجف الأشرف مركزاً للفقه والأصول ولبقية علوم الشريعة، حيث قاعدة العلماء والمجتهدين ومراجع الدين، كان له موقع للأدب العربي والشعر الأصيل وقد يترافق الأدب والشعر والفقه في العلماء والمراجع فنرى أمثال المجتهد الكبير السيد محمد سعيد الحبوبي، العالم والشاعر الكبير والثائر والقائد السياسي... كما رأينا في السيد مهدي الطباطبائي بحر العلوم الفقيه والمرجع والشاعر الرقيق.

ونرى إلى جانب ذلك الإبداع الخطابي، وخاصة حيث يبدع خطيب المنبر الحسيني في تفسيره والشعر والحديث عن الملحمة الحسينية ويؤثر بالمستمعين وينقلهم إلى حالة اللاشعور لينـدفعوا في البكاء على المصيبة.

واحتضنت النجف رواد المنبر الحسيني، كالشيخ اليعقوبي والسيد صالح الحلي والشيخ محمد علي قسام والدكتور الشيخ أحمد الوائلي في أيامنا الحالية.

وقد تعددت المكتبات العامة والخاصة في النجف، فيختص كل عالم بمكتبة واسعة بل يتعدى الأمر لتكون المكتبات الخاصة عند بعض الأشخاص العاديين وفي ذلك دلالة

على شمولية الثقافة الأدبية.

يحدثنا المرحوم العلامة الدكتور الشاعر السيد مصطفى جمال الدين في ديوانه[٦] عن النجف الأشرف: « تمتاز هذه المدينة بخصائص يندر وجودها في مدن العراق، هي انها:

١- مدينة الوافدين: زوّاراً ومجاورين وطلاّب علم.

٢- الشمائل العربية: وهناك ميزة أخرى تبرز في هذه المدينة هي ان شمائل أهلها، والطابع العام لسكانها هو الطابع العربي القريب من البداوة، فالعشائرية، والنخوة، ورعاية الجار، والكرم، والضيافة، سمات بارزة يلمسها كل وافد إليها.

٣- العربية ومراكز الدراسات الإسلامية: وخصوصية ثالثة تميز النجف عن غيرها من مدن العراق، انها لكونها مدينة جامعية للدراسات الإسلامية، وتمتد جامعتها على مدى يقرب من عشرة قرون، قد احتفظت باللغة العربية وآدابها رغم كل محاولات التتريك الذي فرضه المماليك والحكام العثمانيون على مدارس العراق وغيرها من البدان الخاضعة للخلافة الإسلامية من جهة... ورغم انتشار اللغات الشرقية - وبخاصة اللغة الفارسية - بين الوافدين إليها من أقطار العالم الإسلامي التابعة لمرجعيتها الدينية من جهة ثانية ».

وادي السلام – مقبرة النجف:

وهي نموذج تاريخي تمتاز به أرض النجف، أرض الغري لتكون مقبرة اسلامية عامة يؤتى لها من كافة الأقطار الإسلامية بملوك ورؤساء ووزراء وعلماء ومن سائر طبقات المسلمين والشيعة خاصة، ليوفقوا في دفنهم جوار سيد الأوصياء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وعندما تزور الوادي ترى اختلاف القبور وحجمها وشكلها، وعلى الكثير منها صخرة كُتب عليها اسم الميت وتاريخه، والصخور التي نقش عليها اسم بين صخر طبيعي بسيط وآخر من الرخام الجيد وبلاط صناعي يسمى « الكاشي ».

وتربة المقبرة تربة رملية نقية

ناعمة، وهي القسم الظاهر، أما المخفي فعبارة عن صخرة متكونة من رمل قوي تسمح لحفر اللحد فيها بشكل عمودي. وقد كتب المرحوم الشاعر علي الشرقي قصيدة في مقبرة النجف بعنوان « وادي السلام » يقول فيها:

سل الحجر الصوان والأثر العادي
خليلي كم جيل قد احتضن الوادي

ويقول فيها[٧]:

على الوادي وسفت عجاجة عبرت
فكم من بلاد في الغبار وكم ناد
لم أنفض عن الرأس تربة وابقيت
لأرفع تكريماً على الرأس أجدادي

مرقد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

من أهم العوامل التي ساعدت مدينة النجف الأشرف أن تكون قاعدة للشيعة الإمامية ومحط مراجعها وعلمائها وحوزتها العلمية وكرامتها واحاطتها بهذه الأبهة الكبيرة، وجود مرقد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وأحد أهم أركان الإسلام وتثبيته وخليفة رسول الله صلى الله عليه وآله من بعده.

من هو الإمام علي عليه السلام؟ وما صلته بالرسول صلى الله عليه وآله؟

لازمن الإمام علي عليه السلام محمداً صلى الله عليه وآله من المهد إلى الممات، يشم أنفاسه، ويضعه النبي صلى الله عليه وآله في حجره ويضمه إلى صدره ويكتنفه في فراشه ويمسه جسده، بل ويمضغ اللقمة ثم يلقمها إياه، تماماً كما تفعل الأم بوليدها.

ومن الثابت أن الله سبحانه وتعالى قرن علياً بمحمد من يوم كان فطيماً كما أنعم عليه بملازمته محمداً صلى الله عليه وآله منذ طفولته فكان يتبعه اتباع الفصيل أثر امه، ويرفع النبي له في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمره بالاقتداء به، حتى صاغه في تربيته صياغة قرآنية محمدية.

وهنا نجد السر في قول الإمام علي عليه السلام: « ذاك القرآن الصامت وأنا القرآن الناطق »، وقوله « سلوني قبل أن تفقدوني... » وقوله: « ان رسول

الله علّمني ألف باب من العلم، يفتح لي من كل باب ألف باب... » وقوله: « ما وجد رسول الله لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل.. » وقوله: « لم يكن لأحد فيّ مهمز ولا لقائل فيّ مغمز، الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه، رضينا عن الله قضاءه، وسلمنا لله أمره، أتراني أكذب على رسول الله ﷺ؟ لأنا أول مَن صدقه فلا أكون أو من كذبه »[٨].

ويكفينا تأكيداً من النصوص الإسلامية ما قرأناه من دعاء الرسول ﷺ له يوم أعلن ولايته على الأمة يوم غدير خم « اللهم وأدر الحق معه حيث دار »، كما ويكفينا ما قرأناه من شمول قطعي في آية التطهير المباركة له، وكذلك تأكيد الكثير من الروايات الواردة بانه مع الحق والحق معه، وانهما لا يفترقان حتى يردا على الرسول ﷺ الحوض يوم القيامة، بالاضافة إلى روايات الثقلين، وهي متواترة الصدور عن الرسول ﷺ... إذ قال: « واني سائلكم حين تردون عليّ عن الثقلين، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، الثقل الأكبر كتاب الله، سبب طرفه بيد الله وطرف بأيديكم، فاستمسكوا به لا تضلوا، ولا تبدلوا.. وعترتي أهل بيتي، فانه قد نبأني اللطيف الخبير انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ».

كما يرد تأكيد الرسول ﷺ بان علياً مع القرآن والقرآن مع علي حتى يردا عليه الحوض، كما يرد قول الرسول ﷺ في حقه « ان حافظي علي بن ابي طالب عليه السلام ليفخران على سائر الحفظة لكونهما مع علي، وذلك انهما لم يصعدا إلى الله بعمل يسخطه »[٩].

وما رواه أنس بن مالك قال: بينما كنّا بين يدي رسول الله ﷺ، إذ قال: « يدخل عليكم من هذا الباب رجل هو سيّد الوصيين وقائد الغر المحجلين، وقبلة العارفين، ويعسوب الدين، ووارث علم النبيين... » إلى آخر الحديث، وكان الداخل هو الإمام علي عليه السلام.

قال رسول الله ﷺ: « من

اطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومَن أطاع علياً فقد أطاعني، ومَن عصى علياً فقد عصاني »[١٠].

وقوله ﷺ: « مَن أراد أن يحيا حياتي ويموت ميتتي ويسكن جنة الخلد التي وعدني ربي، فليتول علي بن ابي طالب، فانه لن يخرجكم من هذى، ولن يدخلكم في ضلالة »[١١].

ولو أردنا الولوج في الحديث عن امام المتقين وسيّد الوصيين أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام لكلّت الألسن وتعبت الأيدي عن الكتابة ومهما ولجنا فسنجد أنفسنا في بداية الطريق، فشخصية الإمام علي عليه السلام تحدث عنها الله تعالى قبل الخلق وتناقلها الأنبياء حتى كان الساعد الأيمن لرسول الأمة محمد بن عبد الله ﷺ وهو يعد من أحد الأركان المهمة في تثبيت الدعوة الإسلامية.

ان ما جرّنا إلى الحديث عن الإمام وشخصيته، انه العامل الأساسي والمهم في ابراز أهمية مدينة النجف الأشرف حيث مرقد هذه الشخصية الإسلامية الفذة فنالت هذه المدينة شرف العظمة وسمو الرقي وتهافت العلماء إليها حتى كانت اولى المدن في العالم، وأخذت هذه المدينة تخرج العلماء وهم يقودون للعالم الإسلامي ثوراته ضد الطغاة والمستعمرين بسلاح العقيدة والإيمان.

الحوزة العلمية ونشأتها في النجف الأشرف:

يحدثنا التاريخ بأنَّ مدينة النجف الأشرف كانت ذات شأن علمي ولا تزال وكان الناس يقصدونها للدراسة على علمائها الفطاحل المجاورين فيها، فمنذ أوائل القرن الثالث الهجري نرى أسماء علمية بارزة تُنسب للنجف مثل شرف الدين بن علي النجفي وأحمد بن عبد الله الغروي وابن شهريار، كما ان هناك اجازات علمية تحمل اسم النجف، ثم نرى ان المؤرخين يذكرون ان عضد الدولة البويهي حين زيارته للنجف سنة ٣٧١هـ وزع أموالاً على الفقهاء والفقراء ومعنى هذا انه كان

فيها جمهور من الفقهاء خفيت عنّا أخبارهم[١٢].

اختار الشيخ الطوسي مدينة النجف الأشرف داراً لهجرته عندما خرج من بغداد اثر حوادث السلاجقة في تتبع الشيعة فيها بالتنكيل والتقتيل. مضافاً إلى مجاورته لمرقد الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام تيمناً بقدسية مَن فيه وتبركاً بروح روحانيته.

ولأن الشيخ الطوسي كان مرجع الشيعة في بغداد بعد وفاة استاذه الشريف المرتضى فحين اضطر إلى الهجرة من بغداد إلى النجف الأشرف انتقل مركز المرجعية معه، وحلَّ أرض النجف المقدسة طلاّبه ومريدو فضله، والتفّ حوله مَن فيها من الفقهاء والطلاب، ووفد إليها آخرون من حواليها وأطرافها والبقاع القريبة منها والنائية عنها.

ألفَّ الشيخ الطوسي من هؤلاء المركز العلمي الرئيسي للشيعة الإمامية، وراح يعد تلامذته اعداداً تربوياً خاصاً ليعوّض عما فقده الشيعة من عدوان السلاجقة عليه. فقد ذكر ان عدد الفقهاء المجتهدين الذين تخرجوا في مجلس درسه تجاوز الثلاثمائة مجتهد.

وعندما توفي الشيخ الطوسي سنة ٤٦٠هـ، تولى المرجعية وزعامة الحركة العلمية في النجف من بعده ولده أبو علي الحسن بن محمد الطوسي الملقب بـ« المفيد الثاني » والمتوفى بعد سنة ٥١٥هـ[١٣].

وازدهرت النجف ثانية بعد هبوط الشيخ المحقق الكركي فيها، وتوليه زمام المرجعية العامة للامامية فيها، وتسلمه منبر الدرس الأعلى في وسطها العلمي[١٤]، وقد سار الشيخ الكركي في مرجعيته العامة وزعامته للطائفة سيرة الشهيد الأول فقد كان يقول بولاية الفقيه[١٥].

ان استمرارية الحوزة العلمية في النجف بمراجعها وأساتذتها وطلاّبها على امتداد هذا العمر الطويل يعود إلى استقلاليتها عن السياسة الادارية والتدريسية حيث المناهج الخاصة

بطريقة الحوزة العلمية وبارشاد وتنظيم الاساتذة والمجتهدين واشراف المرعية، فقد تكونت من مجموع ذلك دروس ثقافية ودينية باللغة العربية كالبلاغة والنحو والفقه والأصول.. والسلطة السياسية لا دخل لها في مثل تلك المناهج.

ان استمرارية الحوزة العلمية تقتضي الشأن المادي لما فيه من تيسير امور الطلاب النازحين من خارج النجف خاصة وغيرها من المصاريف المقتضية لذلك. والمرجعية تعتمد في هذا الصدد على الحقوق الشرعية، الأمر الذي حاول من خلاله كثير من الحكام وضع رواتب لطلبة الحوزة لربطهم بالدولة، إلاَّ أن الأمر باء بالفشل إذ رفضت المرجعية الدينية ذلك تطبيقاً للحديث المشهور « إذا رأيتم العلماء على أبواب الملوك فبئس العلماء وبئس الملوك، وإذا رأيتم الملوك على أبواب العلماء فنعم الملوك ونعم العلماء ».

ان قبول الطالب الحوزوي له استقلاليته بحد ذاته، حيث لا يخضع قبوله في الحوزة لسلطة سياسية، فقبوله مرهون بما يؤديه من اختبار أولي ثم يتولى المرجع شؤون سكنه واقامته والمرتب لتسيير امور معيشته.. ثم يوجه دراسياً فيتابع تعليمه ويمر بالمراحل التي سبق وتحدثنا عنها حتى يصبح هو الآخر مؤهلاً للاجتهاد.

وقد كانت العشائر في العراق تقف مع صوت المرجعية، وكان هذا العامل من جملة العوامل التي جعلت ثورة العشرين تنجح في دحر الاستعمار البريطاني حيث كان لفتوى المرجع الديني الميرزا محمد تقي الشيرازي أثر كبير في نفس ابن العشيرة وشيخها حيث يعتبرها واجباً مقدساً يلتزم به، وبهذا الترابط القوي بين الشعب والمرجع تفجرت الثورة وتألقت تقدماً وأنزلت ضرباتها على المستعمر الذي حاول بمخططاته وضع كثير من الحواجز بينهما، وبذل الأموال لشراء ضمائر بعض ذوي النفوس الضعيفة واستدراجها إليه.

وأصبحت مدينة النجف الأشرف - حينذاك - غرفة عمليات ثورة، جهاداً

ومصدراً للبطولة والفداء حتى سرت الثورة إلى جميع محافظات العراق، والجنوبية بالذات.

دور الدين في قيام الثورة:

فيما تقدم تحدثنا عن الخلفية التاريخية للنجف الأشرف وكونها مدينة مقدسة، وعن نشأة الحوزة العلمية وفيها عوامل مهمة جداً في تكوين فكرة الثورة ضد الاحتلال البريطاني، فلما كان المسلمون الشيعة كلية القاطنين الساكنين في النجف منذ ميلاد المدينة، وكون احتضان فكرة الثورة من رجال النجف الأشرف وشخصياتها قاعدة وقيادة... كانت بذور التشيع في فكرة التحرك الثوري مدعاة لتكون الانطلاقة شيعية وان انضمّ إليها شخصيات سياسية ودينية غير شيعية لما فيها من اصالة عقائدية، وصدقية في المسيرة.

وفي ضمن التحرك المنظم يبادر اعلام النجف إلى تشكيل حزب سياسي اطلق عليه « الحزب النجفي السري » حيث اتخذ اعضاؤه المؤمنون من غرفة معزولة في مدرسة الملا كاظم الخراساني في محلة الحويش في النجف الأشرف مقراً لهم.

وقد ضمَّ هذا الحزب الكثير من علماء الدين الكبار والشخصيات الاجتماعية المعروفة وزعماء العشائر، توزعوا على ست مجاميع حسب طبيعة العمل منهم: الشيخ عبد الكريم الجزائري، الشيخ محمد جواد الجزائري، الشيخ محمد باقر الشبيبي، الشيخ محمد رضا الشبيبي، السيد محمد سعيد كمال الدين، الشيخ حسين الحلي، الشيخ عبد الحسين مطر، السيد أحمد الصافي، الشيخ نمحمد علي القسام، الحاج محسن شلاش، السيد هادي زوين، السيد علوان الخرسان، محمد أبو شبع، السيد علوان الياسري، السيد كاظم العوادي، الحاج عبد الواحد سكر، الشيخ غثيث الحرجان، الشيخ شعلان أبو الجون.

وقد حظي هذا الحزب الذي يضم العلماء في النجف الأشرف ورؤساء العشائر والشخصيات الاجتماعية في

النجف ومنطقة الفرات الأوسط بتأييد مراجع الدين حتى ان التنسيق كان قوياً حول ظروف الساحة وأساليب التحرك، ولاسيما مع الإمام محمد تقي الشيرازي الذي انتقل من سامراء إلى كربلاء في نهاية ١٩١٨م، آخذاً بنظر الاعتبار ضرورة الاقامة بالقرب من الفرات الأوسط. فقد وجد الإمام الشيرازي في هذا الحزب ذراعاً فاعلة تستطيع أن تدفع الامة بالاتجاه الذي تهدف له[١٦].

وبنفس الوقت تشكلت أحزاب مختلفة في بغداد تضم جهتي الشيعة والسنة ومن أبرز الأعضاء المؤسسين: الشيخ محمد باقر الشبيبي، علي البازركَان، جلال بابان، محمود رامز، محيي الدين السهروردي، شاكر محمود، السيد محمد الصدر، جعفر أبو التمن، يوسف السويدي، دكتور سامي شوكت... وغيرهم.

وكان هدف هذه الأحزاب استقلال العراق استقلالاً كاملاً، وفي نفس الوقت الذي نرى فيه تركيبة تلك الأحزاب والجمعيات من شخصيات مختلفة ومتنوعة، إلاَّ أن الدور الديني في عملها السياسي واحد، حيث كانت توزع بياناً اصدر الإمام الميرزا محمد تقي الشيرازي ﷺ يذكر فيه اقامة دولة اسلامية في أرجاء العراق وعلى نطاق واسع.

تأسست في عام ١٩١٩م جمعية الشبيبة الجعفرية ومعظم أعضائها من طلاب المدرسة الجعفرية واتخذت دار عبد الغني كبة مقراً لها وضمت شباباً من ضمنهم: سامي خونده، باقر سركشك، محمد حسن كبة، صادق البصام، محمد الشجاع، صادق حبة، عبد الرزاق الأزري، رؤوف البحراني، عبد العزيز القطان، صادق الشهربانلي، جعفر حمندي، كاظم الشجاع، محمد مرزة، ذبيان الغبان، سليم الحريري.

وانضمت هذه الجمعية أخيراً إلى جمعية حرس الاستقلال (جناح الشباب) للتحرك بين الطلبة والشباب، وعند اندماج الجمعيتين تم تعيين الشيخ محمد باقر الشبيبي عضو ارتباط بين النجف وبغداد (لأهمية ومكانة النجف كما تحدثنا)، كما انيطت

بالشيخ الشبيبي مهام اخرى في كربلاء والحلة والشامية للتمكن من كسب تأييد وجهاء هذه المناطق العشائرية[١٧].

وقد استطاع الشيخ السبيبي ان يوجد انسجاماً كبيراً بين جمعية حرس الاستقلال وبين التحرك السياسي في مناطق الفرات الأوسط، والذي كان يحركه الحزب النجفي السري. ومما يجدر ذكره ان الشيخ الشبيبي رغم كونه من الاعضاء القياديين في حرس الاستقلال، فانه أيضاً كان عضواً في الحزب النجفي السري[١٨].

وبتشكل الحزب النجفي السري عام ١٩١٨م، تشكلت في كربلاء الجمعية الإسلامية في كربلاء، وفي الكاظمية الجمعية الإسلامية في الكاظمية. وقد انصب نشاط تلك الأحزاب على تهيئة الظروف اللازمة للثورة المسلحة ضد الإنكَليز حيث كانت هذه التجمعات وبقيادة المرجعية الدينية في مدنها تعبئ الجماهير المجاهدة باتجاه الثورة. وبفضل انتماء الكثير من رؤساء العشائر في صفوف تلك الجمعيات، كانت النتائج الفاعلة في ثورة العشرين.

نلاحظ انه من خلال تشكيل هذه الجمعيات التي تضم العلماء ورجال الدين وارتباطها بمراجعها في قراراتها، والمسيرة التي كان يخطط لها في اشعال نار الثورة وانطلاقها من المساجد التي يحتفل فيها بالمناسبات الدينية وحضور الحشد الجماهيري فيها لهذه المناسبات، قامت السلطة بمراقبة تلك الفعاليات والحد منها او خلق مناسبات في نفس الوقت محاولة بذلك اشغال الجماهير الدينية وابعادها عن علمائها ورؤساء الجمعيات المؤسسة لغرض الثورة.

ان هذا الاتجاه الديني في تحريك الجماهير سياسياً تحت مظلة العمل الإسلامية والهدف الثوري انطلق من مدن المراقد المقدسة، من النجف الأشرف وكربلاء والكاظمية. وما الجمعيات واعضاؤها وهيكليتها الشيعية إلاَّ لتفجير ثورة العشرين في العراق.

دور رجال الدين:

كان لدور العلماء - كما أشرنا - في تعبئة الجماهير للثورة أثره الكبير في الاستجابة لهم فالشيخ مهدي الخالصي والسيد هبة الدين الشهرستاني كانا حلقة الوصل بين القيادة وبين علماء الدين في الكاظمية وجماهيرها، كما ان السيّد أبو القاسم الكاشاني كان حلقة الوصل بين القيادة وإيران، والميرزا أحمد الخراساني كان الحلقة بين اليادة وجماهير وعشائر النجف الأشرف، والأخيران كانا حلقة الوصل مع عشائر الفرات الأوسط.

ان منهج الإمام الشيرازي في القيادة كان يعتمد على الشورى، ومن هنا فقد شكّل في البداية مجلس شورى للعلماء، كما شكّل فيما بعد وعلى أثر فتواه بجواز حمل السلاح ضد الإنكَليز مجلساً لأدارة الحرب ضد القوات الإنكَليزية، يتشكل من رؤساء العشائر الثائرة، ومن الوجهاء وكبار زعماء الثورة، وعلى رأسهم الحاج عبد الواحد الحاج سكر[١٩].

كما كان منهج الإمام الشيرازي في الثورة قد تميز بما تميزت به الحركة الثورية الإسلامية في ذلك الوقت من المبادئ الثلاثة:

١- النفي المطلق للإستعمار ورفض المهادنة معه.

٢- الوحدة الاسلامية.

٣- الاعتماد على الفكر الإسلامي في الحركة.

كما كان الإمام الشيرازي منذ توليه الزعامة الدينية والسياسية، سعى عبر توجيهاته ووكلائه، ورسله، إلى تهيئة الأرضية الشعبية لتفجير الثورة بوجه الإنكليز، وقد أصدر عدة فتاوى حدد فيها واجب الشعب في قضية الاستفتاء وفي حرمة التعاون مع السلطات المحتلة. ولم يكن الإمام الشيرازي تنقصه الشجاعة في اصدار فتوى يلزم فيها الشعب بوجوب حمل السلاح، إنما كانت حكمته تقتضي أن يجعل الفتوى كيف مسلّط على رأس الإنكَليز دون استخدامه. إلاَّ في الحالات التي تفقد فيها جميع الآمال والحلول[٢٠].

وفي فترة المفاوضات بين ممثلي الإنكَليز والزعامة الدينية والشعب، وفشل تلك المفاوضات أصدر الإمام الشيرازي فتواه المشهورة وهذا نصها: « مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين ويحق عليهم في ضمن مطالباتهم رعاية السلم والأمن، ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية إذا امتنع الإنكَليز عن قبول مطالبهم ».

وانتشرت الفتوى على نطاق واسع في كل مكان مع مبعوثين خصوصيين من علماء الدين لتحريض الجماهير على حمل السلاح ومقاومة القوات الإنكَليزية بالقوة، وكان بعض العلماء والخطباء والشخصيات الدينية من أقدر الناس على تعبئة الجماهير من أمثال أبو القاسم الكاشاني والسيد صالح الحلي، والسيد محمد الصدر[٢١].

وأخذت المدن الجنوبية المحيطة بالنجف وكربلاء والكاظمية، تتحرك اثر الفتوى واتساع انتشار العلماء والشخصيات الأخرى في جبهات المعركة، وتحرك الاستعمار الإنكليزي بعناده ومؤامراته لتطويق التحركات، فكان الثوار يقودهم العلماء ورؤساء العشائر يبذلون الغالي والرخيص لفك حصار الاستعمار عن المدن. وانتكست مدينة الحلة، فبلغ ذلك الإمام الشيرازي، فأمر السيد هبة الدين الشهرستاني كاتبه ومستشاره باستفسار الخبر من السيد علوان الياسري... فكتب يقول: « أما حالتنا الحاضرة فكما يحب الله وتحبون، وان مصادقة الجيش العربي مع القوة المعادية في الحلة ليست أخبارها كما بلغتكم... وهاك حقيقتها، مولاي وردتنا مكاتيب من بعض العشائر تريد الهجوم على الحلة، وطبق خطتهم أن يكون هجومهم مما يليهم ويكون هجومنا مما يلينا حتى يكون الهجوم عموماً، والظفر من الله، وبعد هذا الترتيب حشدنا جيوشنا للهجوم ولكن ويا للأسف ان الوضعية بين العشائر تغيّرت دون اشعارنا »[٢٢].

من الأمور المعروفة ان الزعامة الدينية الشيعية في العراق والتي لعبت دوراً خطيراً في تفجير وأجيج ثورة ١٩٢٠م الوطنية، كانت تنطلق في

تفكيرها السياسي من منكلق ديني اسلامي عام لا يختص بطائفة ذهبية معينة، شيعية أو سنية، ولا بفئة اثنية دون أخرى، عربية أو كردية أو تركية أو غيرها.

لقد ذهب علماء الدين الشيعة، العرب منهم والايرانيون على رأس قوافل المجاهدين إلى ساحات القتال في الشعيبة وغيرها لمحاربة القوات البريطانية. أمرُ الزعامة الدينية الشيعية في العراق بأن تحرير العراق من الاحتلال البريطاني شرط أساسي لتأسيس الحكم الوطني الجديد. وأكّد هذا المعنى اصرارهم على متابعة الشوط في سياستهم ضد الاحتلال البريطاني والسير فيه إلى النهاية، وقد تجلى هذا بالدور المشرف في تفجيرهم ثورة ١٩٢٠م.

ومن علماء الشيعة الذين شاركوا في المعارك ضد الاحتلال:

١- آية الله السيد أبو القاسم الكاشاني.

٢- آية الله الشيخ جواد الجواهري.

٣- آية الله السيد محمد سعيد الحبوبي.

٤- آية الله السيد محسن الحكيم.

٥- آية الله السيد علي الداماد.

٦- آية الله السيد مصطفى الكاشاني.

٧- آية الله السيد محمد علي بحر العلوم.

٨- السيد محمد نجل آية الله السيد اليزدي.

٩- آية الله الشيخ اسحاق الرشتي.

١٠- ميرزا مهدي الآخوند.

جلّ اولئك العلماء من النجف الأشرف أو ممن يقيم في النجف وقد حملوا راية الجهاد ونزلوا إلى ساحة القتال حتى اللحظات الأخيرة.

يقول الأستاذ عبد الحليم الرهيمي: في مدينة النجف قام عدد كبير من العلماء بأدوار مهمة في حركة الجهاد، وكان أبرزهم المجتهد محمد سعيد الحبوبي « ويعتبر من كبار الفقهاء المجدّدين وبرز كشاعر مجدد أيضاً وكان أول من أفتى عام ١٩٠٨م

بشرعية تأسيس مدارس حديثة في بغداد لتعليم اللغات الأجنبية، وهو من عائلة نجفية مشهورة من السادة العاملين في التجارة، قاد المجاهدين في جبهة الشعبية، وبعد الانكسار في المعركة وعودته مع المجاهدين إلى مناطقهم، توفي قرب مدينة الناصرية في منطقة سُميت (دار الجهاد) وذلك في الثاني من شعبان ١٣٣٣هـ الموافق ١٩١٥م، وقد اعتبرت وفاته نكسة كبيرة لحركة الجهاد في العراق ».

ان السيد الحبوبي قام بدور رئيسي في الثورة، حيث كان أول من بادر إلى قيادة مجموعات المجاهدين والتوجه بهم إلى الجبهة، وقد التف حوله عدد من العلماء في النجف الأشرف وكربلاء والكاظمية الذين قاموا بدور فعّال في تعبئة عشائر الفرات الأوسط وحثّها على الجهاد[٢٣].

ولقد شارك مع العلماء غالبية قطاعات الشعب من المثقفين والعشائر، والتجار، وكان لهم دور كبير في تحريك وتأجيج الثورة في النجف. وكان أغلبية المثقفين من المجاهدين يلتقون في مكتبة الأستاذ الفاضل عبد الحميد زاهد وهو صاحب المكتبة الوطنية في بغداد، وهذه المكتبة أخذت من احدى ايوانات الصحن الحيدري مكاناً لها، وكانت بعض الصحف اليومية والمجلات العربية تصل إلى هذه المكتبة، شجّع هؤلاء المثقفين بملازمة هذه المكتبة، وبمرور الأيام أصبحت هذه المكتبة كندوة تضم الطبقة الأدبية والمثقفة.

وبرزت طبقة مفكرة مجاهدة تبنت فكرة مكافحة الاستعمار والثورة عليه منذ عام ١٩١٨م، حتى انبثاقها يوم ٢ تموز ١٩٢٠م، وفي مقدمة هذه الطبقة: الشيخ عبد الكريم الجزائري، الشيخ محمد رضا الشبيبي، السيد محمد سعيد كمال الدين، السيد محمد رضا الصافي، الشيخ باقر الشبيبي، السيد حسن كمال الدين، الشيخ علي الشرقي، الشيخ محمد جواد الجزائري، السيد سعد صالح، السيد أحمد الصافي، السيد محمد علي كمال الدين، وغيرهم.

وهناك طبقة روحية عُليا تولت

معظم الأعمال خلال الثورة إلى انتهائها وهم: الشيخ عبد الكريم الجزائري، الشيخ محمد جواد الجواهري، الشيخ عبد الرضا راضي، الشيخ مهدي الملا كاظم. والشيخ الجزائري أهم عضو في الطبقتين الروحية والمتجددة، وهو همزة الوصل بين جميع الطبقات، بل كان أحد أهم من في الثورة لأنه محور الحركة ومجرى التفكير للثورة والثوار والعلماء والمجتهدين والمثقفين يسانده في جهاده الشيخ جواد الجواهري وزعماء القبائل مع بعض أفراد الطبقة الأولى المثقفة.

كما كانت هناك طبقة أخرى هم: الحاج محسن شلاش، الشيخ محمد حسن الجواهري، عبد الأمير الشكري، محسن عجينة، يوسف عجينة، السيد علي الحلي، الشيخ عبد الغني الجواهري، الشيخ عبد الحسين مطر.

والطبقة الرابعة هم: عبد الحميد الزاهد، الشيخ باقر الجواهري، الحاج عبد النبي الشكري، الحاج حمود معله، عبد الحميد مرزة، الحاج علي كبة، امين شمسة، السيد علوان الخرسان، الحاج سعيد مرزة، الحاج رؤوف شلاش، السيد جواد زيني.

الطبقة الخامسة هم: السيد يحيى الحبوبي، السيد رضا الخرسان، مكي الشكري، عبود مرزة، عبد الرزاق الحاج مسعود، السيد حسين الرفيعي، الشيخ محمد علي قسام، الشيخ حسين الصحاف، الشيخ محمد الشبيبي، الشيخ عبد علي الطرفي، عبد الحسين الحلي، الشيخ محمد الوائلي، الشيخ حسين الشيخ مهدي، الشيخ محمد حسن محبوبة، السيد محمد زوين، الشيخ جعفر قسام، عبد الرسول شريف، السيد علي هادي الحبوبي.

والطبقة السادسة هم: الشيخ سعيد الخليلي، الملا علي الدلال وابنه سلمان الملا علي، علي بن قاسم افندي، السيد صالح البغدادي، الشيخ حسين الحلي، محمد علي الصراف، رؤوف الجواهري، الشيخ محمد علي الخليلي، نعمة الشيخ كاظم.

وهناك طبقة اشتغل بعض أفرادها مع الطبقة الأولى المتجددة وكان لهم الأثر الفعّال في تشجيع الحزب العامل، لأنهم من الطبقة المسلحة. ونذكر منهم: السيد هادي زوين، السيد كريم السيد سلمان، السيد كاظم السيد سلمان، عبد الرزاق عدوه، محمد أبو شبع، رسول تويج، تومان عدوه، حمود الحار، الحاج محمد الحاج عبد الله الهندي، عبد الصاحب هويدي.

وقد تبع السيد هادي من نجفيي الحيرة المسلحين وغيرهم ما لا يقل عن ألف مسلح، وتبع محمد أبو شبع ورسول تويج ما لا يقل عن خمسمائة من نجفيي الكوفة وغيرهم، وتبع الباقين ما لا يقل عن مائة وخمسين مسلحاً باسم الجيش الوطني المحارب، وصرف محمد الهندي على الجيش الوطني ما لا يقل من عشرين ألف روبية من خالص ماله.

وكانت مكتبة الزاهد مركزاً للمراجعة في أوقات مختلفة، وهي في عين الوقت مرتبطة بمركز الحزب السري كل الارتباط، وهذا الحزب أعضاؤه هم أغلب أفراد الطبقة الأولى[٢٤].

اسباب الثورة (ثورة العشرين):

كانت المنطقة تغلي بالثورات والحركات، والتطلعات الخارجية كانت سبباً مهماً في اثارة الداخل الذي كان يعاني من سطوة الاحتلال الإنكَليزي ما يرهقه ويذله.

ان اعلان الحسين بن علي، شريف مكة المكرمة، الثورة على الترك في اليوم التاسع من شهر شعبان ١٣٣٤هـ الموافق ١٠ حزيران ١٩١٦م دفع الإنكليز إلى دعم ثورته كثيراً.

ان أخبار الثورة التي قام بها الأحرار في مصر في آ١ار ١٩١٩م في وجه الطغيان الإنكَليزي، والأعمال الخارقة التي أتوا بها لمكافحة الاستعمار البريطاني، ألهبت الحماسة في نفوس العراقيين، يضاف إلى ذلك قيام الحكومة الفيصلية في الشام قبيل انتهاء الحرب العالمية الأولى، وانخراط معظم الضباط العراقيين فيها،

وتمتعهم بالمراكز المهمة في دواوينها، وسعي (حزب العهد العراقي) في دمشق ليكون للعراق حكومة عربية. وكانت في مقدمة الأسباب المباشرة للثورة وجود القوات البريطانية ذاتها، فما ان أعلنت برطانيا عن محاولتها لتثبيت أوضاعها وفرض الانتداب، بعد اعلان قرارت مؤتمر - سان ريمو - وانتهاء أعماله واقراره بوضع العراق تحت الانتداب البرطاني حتى اندلع لهيب الثورة العراقية[٢٥].

يرى الأستاذ عبد الرزاق الحسني ان تلك الأسباب أثارت العراق سياسياً وخصوصاً بعد أن ظهرت نيات الإنكليز نحو مستقبل البلاد، فتحركت الجماهير العراقية بكافة طبقاتها وهيئاتها، ومما دفع هذه الجماهير بحركتها السياسية سوء الإدارة المحتلة بأعمالها فدفعت بالعراقيين نحو الثورة:

أ - بيانات الحملة العسكرية: بخصوص محافظتها على المراقد المقدسة على أن يمر الحجاج أو الزوار الهنود القادمون من الهند وألا يعترضهم أحد في طريقهم. وعند احتلال القوات الإنكَليزية مدينة البصرة اصدر القائد العسكري كوكس بياناً إلى أهل البصرة ذكر فيه الأهالي بأن الجيش البريطاني انما يحارب الحكومة التركية، لا الأهلين الذين يضمر لهم كل خير وفلاح.

ويلاحظ ان تلك البيانات كان المقصود منا زعزعة الوحدة الإسلامية، واثارة النفرة بين العراقيين والحكومة العثمانية، جرياً على قاعدة « فرّق تسد ». وفي يوم ١٤ شباط ١٩١٥م أذاع السير بيرسي كوكس بلاغاً خطيراً هذا نصه:

« إلى جميع مَن يعنيهم المر: يعلم الجميع، ان مناطق العراق فيما بين الفاو والقرنة، قد أصبحت الآن محتلة من قبل القوات البريطانية منذ شهرين مضيا. لقد بينا مراراً إلى الجمهور، ان الحكومة البريطانية قد اضطرت ضد رغبتها إلى محاربة تركية بسبب الأعمال العدوانية التي قامت بها الحكومة التركية بتحريض من ألمانيا غير ان أعمال القوات البريطانية الحربية موجهة نحو الحكومة التركية

وجنودها فقط، أما العرب فان الحكومة البريطانية ليست لها رغبة في أن تعاملهم كأعداء لها، طالما ظلوا هم أنفسهم أصدقاء ومحايدين، وطالما امتنعوا من حمل السلاح ضد جيوشها، بل ان الحكومة البريطانية على العكس ترغب في تحرير العرب من ظلم الترك، وتيسير التقدم لهم، وزيادة رفاههم وصناعتهم.

لقد أبدى الكثير من شيوخ العرب والقبائل في ولاية البصرة، مدركهم مصالحهم الخاصة ورغبتهم في التسليم إلى السلطات البريطانية، أو وقفوا بعيداً عن الحركات الحربية، بين الحكومتين بمحض ارادتهم، غير ان بعض الأشخاص من الطائشين قد أغراهم العدو على حمل السلاح لمساعدته ضد الجيوش البريطانية.

لقد أصدرنا هذا التنبيه لنحذر جميع الشيوخ، والقبائل في ولاية البصرة، وبضمنها مناطق البصرة، والقرنة، والعمارة المنتفك. ان اولئك الذين ينحرفون عن طريق الصداقة والحياد، ويحملون السلاح لمعاونة العدو، ستستحوذ الحكومة البريطانية على أملاكهم التي تقع ضمن النفوذ البريطاني، وسوف يُعلن في حينه عندما ينفذ أمثال ذلك. هذا ما وجب بيانه ».

بأمر قائد القوات

ب. ف. كوكس رئيس الحكام السياسيين[٢٦]

ب- احتياجات الجيش المحلية: وقد أدّت احتياجات الجيش المحلية إلى اصدار عدد كبير من البيانات والاعلانات والأوامر المعقدة، هيمنت على العلاقات بين الجيش والأهلين، فكانت شديدة الوطأة صعبة التنفيذ بحيث انتقدها العسكريون قبل السياسيين.

موقف علماء الدين:

ان من أسباب الثورة واندلاع لهبها في نظر الكثير من الباحثين والمؤرخين هو موقف رجال الدين. ولا يخفى ان المجتهدين من علماء الشيعة الإمامية، مرجع جميع أبناء هذه الطائفة في تلقي

الفتاوى والأحكام الدينية، وهم يعتقدون ان علماءهم نوّاب أئمتهم فلا يخالفون لهم أمراً، ولا فتوى، ولا حكماً من الأحكام الشرعية. وقد ظهرت من قديم الزمان طبقات مختلفة من العلماء المذكورين، واختلفت اجتهاداتهم في كيفية كفاح الغزاة من الاستعماريين، فكان بعضهم، منطلقاً من حالة الضعف، يقصره القيام بوظائفه الدينية، وقسم آخر يعتقد با الاسلام لا يجتمع مع السيطرة الأجنبية تحت صعيد واحد مهما كانت الأصول، فعلى المسلم أن يستميت في الدفاع عن نفسه، متى هاجمه أو أراد الاستيلاء مستمر غاشم.

وقد كان من هذين التوجهين جماعات في كربلاء والنجف والكاظمية وسامراء، فلما اندلع لهيب الحرب العالمية الأولى جرت مناقشات ومداولات كثيرة، في المحافل الدينية الموجودة في هذه المدن المقدسة، في موضوع الجهاد والقتال، فكان فريق يدعو إلى المسالمة بسبب ضعف الاستعداد وقلة وسائل الدفاع، وعدم ملائمة الظروف للقتال، وكانت أكثرية العلماء والطلاّب، ولاسيّما العرب من دعاة الحرب والدفاع عن بيضة الإسلام، وقد تغلب هذا الحزب أخيراً، فكان لآرائه وفتاواه النفوذ الواسع على جمهور الناس في العراق[٢٧].

ولا غرو في هذا الرأي والتحمس فقد قاد رجال الدين الرأي العام في أيام الانقلاب الدستوري وفي أثناء الحرب العالمية فكانوا من أصدق العامة المتفانين في سبيل مبادئهم، ومن أخلص الزعماء المؤمنين بعقائدهم، وكان كل ما لديهم في هذه القيادة الايمان والعقيدة الدينية التي اتنفروا بها الناس للجهاد سواءاً أكان ذلك في الحرب العالمية أم في ثورة العشرين - الثورة الكبرى - وهذا ما أزعج الاستعمار البريطاني والذي لم يضع في حساباته أهمية هذا الدور الكبير.

ولما تقدم نائب الحاكم الملكي العام في العراق (أي. تي. ولسن) باستفتاء طرحه للعراقيين يتضمن ثلاثة أسئلة:

١- هل العراقيون يرغبون في دولة عربية واحدة، تحت الوصاية البريطانية تمتد من الحدود الشمالية لولاية الموصل حتى الخليج « العربي » الفارسي؟

٢- هل يرغبون، في هذه الحالة، في رئيس عربي بالإسم يرأس هذه الدولة الجديدة؟

٣- مَن هو الرئيس الذي يريدونه في هذه الحالة؟

ان هذا الاستفتاء أثار موجة غضب واستياء في مناطق النجف، كربلاء، الكاظمية، والحلة، والموصل، واشدها وأعنفها مدينة النجف، فقد كانت هذه المدينة قذىً في عين البريطانيين وسياستهم، كما يصفها السير برسي كوكس، وكانت المدينة الأولى التي تحسست بثقل الاستعمار، واول مدينة عراقية فكّرت بالتخلص من الاستعمار البريطاني، بالنظر لما قد تشبعت من روح الحرية والنزوع إلى الديمقراطية، بسبب ما كانت تلقاه من دروس متواصلة عن فلسفة نهضة الإمام أبي عبد الله الحسين بن علي (عليهما السلام)، وبسبب كونها مهد العلماء ومركز الروحانية، ولذا فقد اهتم بها الحاكم الملكي العام اهتماماً عظيماً، وأراد أن يعرف رأي سكانها والمحيطين بها في مستقبل بلادهم، معرفة دقيقة، فسافر إليها في اليوم الحادي عشر من شهر كانون الأول سنة ١٩١٨م بعد أن أوعز إلى المبجر نوربري، الحاكم السياسي للواء الشامية والنجف، أن يدعو علماء النجف وأشرافها، وزعماء القبائل وساداتها، في أبي صخير والشامية للاجتماع بهم[٢٨].

وبعد ان اجتمع الحاكم العام مع مجموعة نذكر منهم: الشيخ محمد رضا الشبيبي، والحاج عبد المحسن شلاش، والسيد هادي الرفيعي، والشيخ عبد الواحد سكر، والسيد علوان الياسري، وبعد المناقشات وابداء الآراء احتدم الموقف بينهم وبين الحاكم العام. طلبوا تأجيل الاجتماع إلى الغد، لدرس المواضيع الثلاث فوافق، حيث ذهب الحضور إلى الزعيم الروحي الجليل السيد محمد كاظم اليزدي

لطرح الموضوع عليه، فأشار عليهم السيد اليزدي بالاجتماع وتداول الأمر فيما بينهم حيث اجتمعوا في دار « الشيخ محمد جواد صاحب الجواهر » حضره رهط من العلماء والزعماء والمتمولين والمتعلمين، والأشراف والسادات وغيرهم، وجرى نقاش حول مسألة الحاكم العام، وتشعبت الآراء، وداهمتهم الشرطة فشتتهم أيدي سبا.

انتفاضة النجف:

جميع أبناء العراق استجابوا لنداء الثورة بالرغم من ان بؤرة الثورة الرئيسية وقيادتها كانت في المدن المقدسة والفرات الأوسط بشكل خاص... وبينما كانت مدينة النجف تشكو من قلّة الطعام، قدم إلى النجف شيخ من قبيلة عنزة محمّلاً برسالة من قبل « ليشمان » - وهو ضابط انكَليزي اشتهر بقمعه لأنتفاضة النجف - إلى حميد خان المنصوب من قبل الإنكَليز لمساعدته على حمل كمية كبيرة من الحبوب على متن قافلة قوامها ١٢٠ جملاً مرسلة من قبل شيخ مشايخ عنزة (فهد بن هذال) حليف الإنكَليز الحميم، ولم يكن بوسع النجف أن توفر هذه الكمية من الحبوب لقبيلة وهابية هاجمت مدنهم وأهانت مقدساتهم وقتلت رجالهم في حملات نهب سابقة، ثم تجلس على بساط القصر تنتظر الجماعة أو العون على يد المحتلين الإنكَليز، لذلك ثارت الجماهير وخرجت في مظاهرة اتجهت نحو محط قافلة عنزة فنشبت معركة ونهب، وفوضى شاملة، فقدم النجف ضابط الارتباط السياسي المقيم في الشامية الكولونيل بلفور، ليسوي الأمور بالتي هي أحسن، ولكنه فشل في مهمته وخرج من النجف تحت حراسة مشددة، وامتدت ثورة أهالي النجف إلى حواليها حيث هاجم الأهالي مكاتب الحكومة في الكوفة وأبي صخير وانتصر الثوّار في الجولة الأولى[٢٩].

ان الضغط المادي والمعنوي وواقعة قافلة ابن هذال هيأت النفوس للثورة، كما اجتمع أعضاء جمعية

النهضة الذين اجتمعوا في ١٩ آذار في النجف الأشرف وقرروا بالاجماع البدء بالثورة عن طريق اغتيال الضابط مارشال حيث سيؤدي ذلك إلى سلسلة ردود فعل من جانب الإنكَليز وضدهم، تؤدي في النهاية إلى قيام ثورة عامة في الفرات الأوسط.

وبالفعل تمَّ اغتيال مارشال على يد عشرين شخصاً تنكروا في ثياب الشبانا (البوليس المحلي) ودخلوا مقر الإدارة المركزية البريطانية في خان عطية أبو كلل تحت شعار انهم يحملون رسالة مستعجلة إلى المارشال[٣٠].

من المقاومة إلى الثورة:

ان تشكيل الجمعيات الوطنية وتعبئة الجماهير بالعمل ضد الاحتلال والتفاف المواطيني حول مرجعيتهم يساندهم بذلك رؤساء العشائر والجماهير، كان بمثابة بدء التحركات والمناوشات في المدن المقدسة في النجف الأشرف وكربلاء والكاظمية وسامراء، ضد الإنكَليز وسريان تلك التحركات إلى المناطق الأخرى مما أدى إلى اصدامات بين الثائرين وحكومة لاحتلال، وأخذت النار تشتعل وتبرز بوادر الثورة الكبرى ملوحة بالأفق لتحرير العراق من احتلال العدو لها.

« في الأسبوع الأول من ١٩١٨م كانت قوات بريطانية قد أخذت مواقعها في الكوفة، وكلّفت دورة عسكرية بالتجول حول سور النجف، فأُطلقت عليها النار وقتل اثنان من أفرادها ».

وأعاد هذا الحادث إلى الأذهان مرة أخرى فكرة المواجهة بين الشيعة والإنكَليز وأعطى انطباعاً عاجلاً، ربما شخص على طاولة العسكريين البريطانيين بان السهولة التي دخلت فيها قواتهم إلى بغداد سوف لا تتكرر في مدينة النجف.

ففي بغداد لم يواجه البريطانيون مقاومة، بعد أن انسحب الجيش التركي منها إلى مواقع دفاعية في سامراء، ولم يكن أهالي مدينة بغداد في وضع يساعدهم على المقاومة، فوجهت ضربة قوية لحركة الجهاد، ولكن البقية الباقية من السكان لم

يساهموا أساساً في عمل ضد الاحتلال مما سهل أمر السيطرة على بغداد.

وأغلب الظن ان ادارة الاحتلال أدركت، بان الرد بالمثل ومهاجمة النجفيين سيضعهم في مأزق أمام المسلمين سواء في العراق وفي خارجه كالهند وإيران وبعض البلاد العربية.

كما ان رد الفعل قد يسحب الفريقين إلى مواجهة عسكرية، فاكتفت بارسال طائرة عسكرية حلقت على ارتفاع منخفض في سماء النجف بقصد الارهاب، فاطلقت عليها النار بغزارة من جميع المحلات[٣١].

« وبالاجمال فانّ المشروع المطروح في النجف، والذي يقف وراءه علماء بارزون، خلاصة مخلصة لتلك الجهود العظيمة التي بذلها الاصلاحيون الاسلاميون في مدرسة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي، فقد جعل واضعو المشروع الإسلام حلاً لمشكلات المجتمع، لكنهم لم يغلقوا الأبواب أمام التجارب العالمية »[٣٢].

وقد وضع هذا المشروع علماء ومجتهدون منهم الشيخ عبد الكريم الجزائري والشيخ محمد جواد الجزائري والسيد محمد علي بحر العلوم والسيخ محمد علي الدمشقي الذين أسسوا لتنفيذه تنظيماً حزبياً، وأقاموا له هيكلاً ونظاماً داخلياً، وهو « حزب النهضة الإسلامي » وكانت الأحزاب تسمى على الأغلب جمعيات، فغلبت عليها هذه التسمية وأصبح معروفاً باسم « جمعية النهضة الإسلامية »[٣٣].

وفي متابعتي لمطالعة الشيعة والدولة القومية في العراق من موضوع النجف والإنكَليز ص: ٨٩ إلى ص: ١٠٦، لاحظت ان الكاتب الأستاذ حسن العلوي يصف السيد اليزدي المرجع الديني، بانه كان من أتباع الإنكليز وانه ساعد بموقفه على وأد الثورة في النجف، وهذا خلاف ا أعلفه وأتتبعه في ان موقف لسيد اليزدي، كان على خلاف هذا الرأي وانه كان مفكراً في تصرفه ومتأنياً ودقيقاً في تعامله مع حكومة الاحتلال، ولا أدري

ما الذي دعا الكاتب إلى أن يصفه بهذا الوصف؟ وربما يرى الأستاذ العلوي ان المجتهد قد يختلف في رأيه مع الآخرين ولكن لا يعني ذلك عصياناً وتمرداً في رأيه مع غيره، فالمرجع السيد اليزدي عُرف عنه انه كان يتعقل الأمور ويتصرف بحكمة ودقة. ولربما كان يرى في عدم اظهار موقفه العدائي لحكم الاحتلال مجالاً لحل كثير من الأمور التي تتعلق بادارة البلد والأمة، ومنها الجانب الاقتصادي والسياسي.

حكومة النجف الثورية:

لقد شهدت حركة المعارضة الإسلامية هذه، أولى تحركاتها مع بداية انحسار حركة الجهاد، أي في أعقاب معركة الشعيبة، حيث عقدت لقاءات ومؤتمرات متتالية بين عدد من العلماء في النجف وكربلاء، وزعماء العشائر في الشامية والناصرية والشطرة... وغيرها من مناطق الفرات الأوسط، وكان الرأي السائد فيها هو الإعداد للثورة على الإنكَليز ومحاربتهم، غير ان التشكيل العملي لهذه المقاومة لم يبدأ، إلاَّ بعد احتلال بغداد، وعلى وجه التحديد، في أواخر العام ١٩١٧م وأوائل ١٩١٨م، حيث دخلت حركة المعارضة اعتباراً من ذلك التاريخ في مواجهات سياسية وعسكرية قوية مع سلطات الاحتلال كان أهمها: المواجهة المسلحة الموضعية التي مثلتها « ثورة النجف » خلال آذار - نيسان ١٩١٨م.

والمواجهات السياسية ابان عملية الاستفتاء التي أجرتها الادارة الإنكليز في أواخر ١٩١٨م وأوائل ١٩١٩م، رغم المواجهة المسلحة الشاملة التي مثلتها « ثورة العشرين » خلال حزيران - تشرين الثاني ١٩٢٠م، والتي شكلت ذروة المواجهات السياسية والمسلحة ضد الإنكَليز، حيث أعقبت ذلك فترة من المواجهات السياسية ضد الانتداب، وضد المشروع الإنكَليزي لإقامة دولة محلية (محدثة) وتابعة للغرب[٣٤].

لقد شكلت النجف منذ بداية الاحتلال، مركزاً أساسياً لحركة الجهاد، واثر التصادم مع الادارة

العثمانيـة المحليـة وطردهـا فـي آيـار ١٩١٧م. أقـام زعماؤهـا المحليـون ارة ذاتيـة لتسـيير شـؤون الأهـالي، وهـي ادارة يصـفها « لـونكرك » بانهـا أشـبه بحكومـة مؤقتـة، وخـلال السـنتين تمتعت بهما المدينة بوضع مستقل عن الادارتـين العثمانيـة والإنكَليزيـة، أقـام علماؤهـا وزعماؤهـا صـلات وثيقـة، بمعظم أنحاء العـراق والعـالم الخـارجي ولاسيما زعمـاء ورؤسـاء عشـائر الفـرات الأوسط[٣٥].

كـان العراقيـون قـد انتظمـوا فـي ترتيب تشكيل حكومـة وطنيـة لتسـيير دفة البلاد بعد ان بلغ الأمـر ذروتـه مـع الاحـتلال وبـدؤوا ينزلـون ضـرباتهم بالمحتـل، فثـورة العـراقيين فـي وجـه الظلـم والاسـتبداد والجـور والاسـتعباد كانـت تـزداد يومـاً بعـد يـوم فنظمـوا شؤونهم مادياً وحربياً، وأخذوا يشـكلون في المدن التي يستولون عليها حكومـة محليـة، وتقـف علـى تنظيمهـا هيئـات علمية.

« ففـي مدينـة النجـف انشـئ مجلـس بلـدي قوامـه ثمانيـة أشـخاص لكل محلة من محلات المدينـة الأربـع شخصان، والثمانية هم:

محلـة المشـراق: ١- عبـد الـرزاق شمسة ٢- عباس شمسة.

محلة البراق: ١- أحمـد نـاجي ٢- محمد جواد عجينة.

محلة العمارة: ١- كـردي أبـو كلـل ٢- علوان الخرسان.

محلـة الحـويش: ١- سـعيد كمـال الدين ٢- حسين الظاهر.

وكانت وظائف هذا المجلـس جمع الضـرائب، وجبايـة الرسـوم المحليـة والاشـراف علـى الأمـور الصـحية، والقضـايا البلديـة، ولهـذا انشـؤوا حرسـاً خاصـاً للأمـن ومـراقبين صـحيين للنظافـة، ومـوظفين مـاليين للجبايـة. وقامـت إلـى جانـب المجلـس البلـدي هيئتان محليتان:

الأولى: هيئـة أعضـاء مجلـس الادارة وكانت مكونة من:

١- الشـيخ جـواد صـاحب الجـواهر رئيساً

٢- الحاج عبـد المحسـن شـلاش

ناظراً للمالية

٣- السيد مهدي السيد سلمان رئيساً للقوة الاجرائية

الثانية: هيئة القوة التنفيذية وكانت مكونة من:

١- كردي آل عطية ابو كلل.

٢- الحاج حسين آل ظاهر.

٣- السيد علي جريو.

٤- السيد مهدي السيد سلمان.

٥- الحاج عبد الله الشمرتي.

٦- غيدان عدوه.

٧- الحاج حسون سربه.

٨- الحاج محمد الشرباوي.

وإلى جانب هاتين الهيئتين قامت « الهيئة العلمية الدينية العليا » فكانت تشرف على شؤون الثورة العامة، وتدير امورها وتصدر التعليمات المقتضية لهيأتي « المجلس البلدي » و« القوة التنفيذية » وتقضي في المشكلات التي تحصل آنياً، أي أنها كانت تجتمع إثر كل حادثة أو مشكلة لتجد لها الحلول والمنافذ وكان الاجتماع برئاسة شيخ الشريعة، أما أعضاء هذه الهيئة العلمية العليا فكانوا:

١- الشيخ فتح الله شيخ الشريعة.

٢- الشيخ عبد الكريم الجزائري.

٣- الشيخ جواد الجواهري.

٤- الشيخ مهدي الملا كاظم.

٥- الشيخ موسى تقي زاير دهام.

٦- الشيخ اسحاق حبيب الله.

٧- الشيخ مشكور الحولاوي.

٨- الشيخ علي الحلي.

٩- الشيخ عبد الرضا الشيخ راضي.

١٠- الشيخ أحمد الملا كاظم.

١١- السيد محمد علي بحر العلوم.

١٢- السيد محمد رضا الصافي.

١٣- السيد علي السيد حسن.

١٤- الشيخ علي المانع[٣٦].

وهكذا وعلى اثر هذه التشكيلات العملية لبدء انطلاقة الثورة، سارت بقية المدن الثائرة بتنظيم شؤونها وتشكيل الهيئات فيها، ومنها مدينة كربلاء ومحل اقامة الإمام الشيرازي.

ان ثورة النجف كانت أول ثورة في العراق على الإنكَليز، وهي لم تستمر طويلاً إذ سرعان ما تمكن الإنكليز من القضاء عليها في مهدها، ولكنها على الرغم من قصر عمرها تُعتبر حدثاً مهماً من الناحية السياسية والاجتماعية، فهي تعطينا صورة حية من صور المجتمع العراقي في تلك المرحلة، ومن الممكن القول انها من الأحداث التي تهم الباحث الاجتماعي والمؤرخ في آن واحد، أو لعل أهميتها الاجتماعية أكبر من أهميتها التاريخية[٣٧].

ثمار الثورة:

لما تمَّ للبريطانيين احلالت بغداد في ١١ آذار ١٩١٧م بعد اتفاقية سايكس بيكو، اتخذت دوائر الاحتلال البريطاني بموجبها قرارات خطيرة بكيفية احلال المناطق العراقية في البصرة والناصرية والحي وبدره، وتنظيم شؤون الاحتلال والتمثيل في المدن وكيفية تشغيل الموظفين في تلك الادارات، ونتيجة التحركات الانتفاضية والثورية للمناطق المقدسة كالنجف وكربلاء والكاظمية وسامراء، كان قرار الاحتلال البريطاني ان تكون لـ « أماكن الشيعة المقدسة » ادارة مستقلة غير خاضعة للهيمنة البريطانية المباشرة على أن ينتبه إلى عدم ادخال أراضي سقي، أو قابلة للسقي فيها.

أما كيف تسرّب الاحتلال إلى النجف والمدن المقدسة الأخرى وبدأت المدينة تدك بالمدافع ودنسها دخول الجيش، فقد سبق أن أشرنا في البحث إلى رفض المواطنين وفي مقدمتهم العلماء الأعلام السيطرة الأجنبية مهما كانت صفتها ونتيجة لهذا الرفض القاسي كان الشيعة قد تحملوا عبئاً كبيراً جداً ودفعوا الثمن باهضاً حتى يومنا هذا وسيأتي البحث عنه مفصلاً.

قرّر مجلس الحلفاء الأعلى في ٢٥ نيسان سنة ١٩٢٠م فرض « الانتداب البريطاني » على العراق، وأخذ وزير الخارجية البريطاني اللورد وكرزن يفكر في كيفية ادارة العراق في الوقت الذي اخذت روح الاستقلالية تسري بين

مواطنيه بسرعة فائقة رافضين كل هيمنة أجنبية، فكان تفكير الوزير - كما صرح في خطابه في مجلس اللوردات - حول حاكم يجمع عليه رضى العراقيين، في الوقت الذي كان لهب الثورة قد تفجر بشكل خطير، واندلعت ألسنتها تسير في جميع أنحاء العراق سريان النار في الهشيم حتى لم يبقَ للاستعمار موضع قدم في حين كانوا يتصورون أن لهم الأيادي المتعاونة فيها، الأمر الذي دفع بالبريطانيين إلى التعجيل في اختيار الحاكم العربي للعراق لوضع الحد لهذا اللهيب المستعر وتكونت فكرتهم باستدعاء الأمير فيصلاً الموجود في درعا، وبدأت المحاولات والمراسلات والاعتراضات حتى تحقق أن فيصل هو الوحيد بين زعماء العرب الذي يدرك المشكلات العملية في ادارة حكومة متمدنة، بموجب الطرق العربية، ولهذا أشارت الأصابع إلى تسلمه لحكم العراق.

« فقرّرت الحكومة البريطانية دعوة الأمير فيصل إلى انكَلترا فوراً، فجاء إلى لندن في ٢ كانون الأول ١٩٢٠م وقابل الملك جورج الخامس في اليوم الرابع من هذا الشهر لتقديم الشكر على الهدايا التي أهداها الملك جورج إلى والده الملك حسين »[٣٨].

« في يوم ٢١ تشرين الأول ١٩٢٠م جمع السير برسي كوكس مجلسه الاستشاري المكون من « السير بونام كارتر » ناظر العدلية والكولونيل هاول ناظر المالية ومساعده الكولونيل سيلتر، والميجر بولارد ناظر الأشغال، والمستر فلبي ناظر الداخلية، والمس بل السكرتيرة الشرقية لفخامته، وعرض عليهم مشروعه قائلاً: انه يرى أن يسلك طريقاً خاصاً في تنفيذ السياسة المقررة في البلاغ الصادر في ١٧ حزيران فيحافظ على الروح الوثابة، ويشذ في طريقة البناء، وانه يرى أن يؤلف حكومة مؤقتة، تكون كالجسر بينه وبين الشعب العراقي وتأخذ على عاتقها تعبيد الطريق لأقامة الحكم المقرر، دون أن يمس جوهر السياسة المرسومة. وأضاف إلى ما تقدم، أنه قرر الاستعانة بالسيّد عبد الرحمن الكَيلاني

« نقيب اشراف بغداد » ليوليه رئاسة هذه الحكومة، لما له من المنزلة الاجتماعية والمقام الروحي، وذلك بعد أن اعترضته صعوبات وعقبات جمة في ترشيح غيره »[٣٩].

وبعد فراغه من المناقشات والتصورات مع اعضاء مجلسه (أي السير برسي كوكس) واجهته صعوبات من معظم الوجوه والأشراف لمخاوفهم المختلفة من هذا الطرح، كما ان علماء الكاظمية أصرّوا على تشكيل حكومة تنتخب من الشعب، وأخيراً تكونت الحكومة المؤقتة على النحو التالي:

١- السيد عبد الرحمن النقيب (نقيب بغداد) رئيساً لمجلس الوزراء.

٢- طالب النقيب وزيراً للداخلية.

٣- ساسون حزقيل وزيراً للمالية.

٤- مصطفى الآلوسي وزيراً للعدلية.

٥- جعفر العسكري وزيراً للدفاع.

٦- السيد محمد مهدي بحر العلوم وزيراً للصحة والمعارف.

٧- عبد اللطيف المنديل وزيراً للتجارة.

٨- السيد محمد علي فاضل وزيراً للأوقاف.

٩- عزّت باشا الكركوكي وزيراً للثقافة.

ثم توصل السير برسي كوكس إلى تشكيل مجلس استشاري لمجلس الوزراء يتناول المخصصات الوزارية ولا عمل لهم رسمياً إلاَّ إذا دعوا للاشتراك في جلساته وهم:

١- الشيخ ضاري السعدون المنتفك

٢- عبد الجبار الخياط بغداد

٣- عبد الغني كبة بغداد

٤- عبد المجيد الشاوي بغداد

٥- فخر الدين جميل بغداد

٦- عبد الرحمن الحيدري بغداد

٧- محمد الصيمود الكوت

٨- عجيل السرمد الكوت

٩- أحمد الصانع البصرة

١٠- سالم الخيون المنتفك

١١- الحاج نجم البدراوي العمارة

١٢- داود اليوسفاني الموصل

وكانت مخصصات رئيس الوزراء سبعة آلاف روبية شهرياً. وثلاثة آلاف روبية للوزير سواء كانت له وزارة أم لم تكن[٤٠].

دور النجف في ثورة العشرين:

لثورة العشرين أهمية خاصة، حيث ان ١٣٠ ألف ثائر من الفلاحين والبدو وسكان المدن، شهروا السلاح في وجه أقوى دولة امبريالية في ذلك الحين، وقاتلوا قواتها المتفوقة عدداً وعدة لأكثر من خمسة أشهر بشجاعة لم يسبق لها مثيل[٤١].

وان الانتفاضات التي قام بها الشعب العراقي، والتي انطلقت من المدن المقدسة ابتداءاً من النجف الأشرف، دفعت بسريانها ضد الاستعمار البريطاني خلال ١٩٢٠ و١٩٢٤ و١٩٢٦ و١٩٢٧ و١٩٢٨م والانتفاضة الجبارة التي حدثت خلال الأعوام ١٩٣٥ - ١٩٣٨م سجلت أحداثاً مجيدة في تاريخ النضال التحرري للشعب العراقي[٤٢]. الحدث العظيم الذي حدث في ميثاق النجف ٢٣ آذار ١٩٣٥م الموجه من الشعب العراقي لمرجع المسلمين الشيعة آنذاك الإمام الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء[٤٣].

واستمر العراق بعطائه حتى كانت اتفاقية بورتسموث ١٩٤٨م حيث أحبطها الشعب بثورته ومزّق اتفاقيتها، وامتدت اعوام الجهاد حتى عام ١٩٥٦م عندما قام العدوان الثلاثي البريطاني والفرنسي والاسرائيلي، على الشقيقة مصر، فكان الشعب العراقي يقف بالمرصاد لحكومة العراق فتظاهر مستنكراً، وسقط الضحايا في رصاص نوري السعيد.

ويقول السيد عدنان ابراهيم السراج: « قاوم العراقيون الاحتلال الإنكَليزي مع القوات العثمانية وكانت القوات المساعدة للعثمانيين من العشائر بقيادة علماء النجف[٤٤] الأشرف وكربلاء والكاظمية... الخ »[٤٥].

ويتابع قوله: « في احداث ١٩٥٦م المتمثل بالعدوان الثلاثي على مصر، كان للنجف موقف مشرّف شجب هذا الاعتداء، فخرجت تظاهرات في الشوارع والأسواق، واستمر الاضراب في النجف اسبوعاً كاملاً اتخذ العنف طابعاً له، فعمدت السلطة إلى القوة، واطلقت النار على بعض المتظاهرين في مرقد الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام، فقتل اثنان »[٤٦].

في عام ١٩٥٩م وعندما كان المد الشيوعي في العراق قد تفاقمت تصرفاته (امتدت الهجمة الشيوعية لتطاول التيار الديني والمرجعية في النجف، وبدأت حالة من المواجهة في النجف بعد وضع علامة (لا) على دور علماء الدين بغية مهاجمتها ليلاً)[٤٧]. ان هذه النماذج من المواقف التي وقفتها النجف الأشرف بمراجعها العظام وعلمائها الأعلام وشعبها المتفاني، جعلتها تكون غرفة عمليات للمجاهدين للانطلاقة الأولى للثورة ابتداءاً من سنة ١٩١٧م بدء الحركة الجماهيرية ضد الاستعمار الإنكَليزي وامتداداً واستمراراً بجميع الأحداث والانتفاضات والحركات التي مرت على عراقنا الحبيب حتى يومنا هذا.

ونتيجة لهذا الموقف العلماني تجاه المستعمر الأجنبي يحدثنا الأستاذ عبد الكريم الأزري فيقول: « فان جميع المطلعين على تاريخ العراق الحديث، ولاسيّما بعد قيام الثورة الكبرى سنة ١٩٢٠م يعرفون جيداً ان الشيعة كانوا ضحية الانتقام الإنكَليزي لمواقفهم الوطنية الصلبة العنيدة ضد الإنكليز الذين وجدوا انه من الصعب التفاهم مع زعماء الشيعة واعتبروهم حملة لواء التطرف في الوطنية، واستبعدوهم عن جميع المناصب، وهضموا حقوقهم، بل وهدروها هدراً، وقاوموهم بكل شدة وقسوة، وقربوا عوضاً عنهم، مَن سموهم « بالمعتدلين » وسلموهم مقاليد الحكم[٤٨].

كان الملك فيصل الأول واعياً لموضوع استبعاد الشيعة عن الحكم وقد رفضه ووضح ذلك في مذكرته التي اصبحت وصية من بعده مؤكداً فيها ضرورة مشاركة الأغلبية السكانية في

العراق في اتخاذ القرار السياسي[٤٩].

الحقد القديم يطال الشيعة:

ان ثورة العشرين كانت نتيجة صراع طويل بين قوى الاستعمار البريطاني وبين الشعب العراقي المتمثل في مراجعه العظام ومسيرة العلماء الذي وقفوا صفاً واحداً لتحريره فأوقعوا بالمستعمر ضربات موجعة لم تكن بحسبانه... وأخيراً استسلم لما ألم به من الخسائر فقرر مكرهاً ترك العراق بعد أن يعطى البلد استقلاله. فهل ترك العراق؟ وترك شيعة العراق الذين طردوه؟ !

لقد ترك الاستعمار البريطاني للشيعة ما يعانونه حتى يومنا هذا مروراً بكل الأدوار التي جاءت لتحكمه باسم استقلال العراق، حيث يعيش الشيعة في غليان ثورات وحركات ونتفاضات لمطالبتهم بحقوقهم السياسية التب فقدوها ولم يحصلوا عليها. ان شعب العراق يعاني في كل دقيقة من قمع وارهاب واضطهاد، وهناك مَن يعاني الغربة القاتلة، وفراق الوطن المذبوح بمدية الدكتاتورية، ويعاني كل شبر من رماله المضجرة بدماء الشهاداء الأبرار، ومن أنين آلاف المسجونين، وتضور المعتقلين الذين لا يُعدّون، انها مأساة امة هي الغالبية الساحة.. كل صور المعاناة المرهقة، وعلى مسمع من العالم الحر، ومرأى منه، وقد غفا الصمت المثقل بالهموم على شفاهه، وباتت الكلمة الجريئة مشنوقة على لسانه.

انهم يؤسسون جمعيات لحقوق الحيوان، ويدافعون عن مظلومية الحيوان وكيف يذبح الخروف، في الوقت الذي يُذبح فيه آلاف من البشر في العراق، وما من مؤسسة تدافع عن حقوقه المهدورة.

منذ ثورة العشرين والإنكَليز عرفوا ان الشيعة بالتحديد يشكلون غالبية العراق - في أكثر الاحصائيات الرسمية - في النسبة السكانية في العراق، فعمدوا إلى وضع دستور لتصعيد الأقلية إلى حكم البلاد وحرمان الأغلبية السيعية من حقّها الوطني ويضعون التبرير السخيف لتحقيق

مـآربهم، لأنهـم تكبـدوا الخسـائر مـن اولئك الشـيعة الـذي اذاقـوهم العـذاب في ثورتهم وحطموا شوكة الامبراطورية البريطانيـة وألحقـوا بهـا خزيـاً وعـاراً... فأصبحوا للشيعة أعداءاً.

وبعـد أن خـرج الإنكَليـز مكـرهين من العراق تركـوا دسـتوراً ينفـذ ارادتهـم الحاقـدة ويمنـع الشـيعة مـن الحصـول علـى حقـوقهم الوطنيـة فالشـيعة لا تتمتع:

أ- بحـق المشـاركة فـي الحكـم بالشكل العادل كما يتمتع به الآخرون، ولا يحق لهم صياغة القرار السياسي في وطنهم.

ب- كمـا لا يحـق لهـم اقامـة شـعائرهم وطقوسـهم بحريـة كسـائر الأديان والمذاهب.

جـ- ولا يتمتعون بحق اقامتهم في بلـدهم الـذي ولـدوا فيـه، وبمنـاطق عيشـهم التـي قضـوا فيهـا السـنين الطوال.

د- ولا يتمتعـون بحـق المواطنـة المتساوية، وممارسة حقهم في التعبير عن رأيهم إلى جانب المواطن الآخر.

هـ - وكـذلك لا تمتعـون بحـق كونهم الأغلبية السكانية والتي تشكل الهويـة الوطنيـة والقوميـة والثقافيـة للبلاد.

إذ يجري تمييز صارخ ضدهم - أي الشيعة - من أجل تغيير هذه الهوية بـل في سحقها، ويجري علـى مـر السـنين ترحيل الكثير منهم إلى الخارج الـوطن بحجة واخرى والتشـكيك بمـواطنتهم، وتصفيتهم جسـدياً والابـادة الجماعيـة، ومحاولـة مسـخ التـراث الثقـافي والحضـاري، وتـدمير بنيـتهم الروحيـة والعلميـة، وتشـتيت جـامعتهم الدينيـة ومعاهدهم العلميـة، كجامعـة النجـف، وحوزتهـا العلميـة، والاعتـداء علـى مـرجعيتهم الدينيـة، وقتـل علمـائهم وتدمير وهدم مساجدهم، وحرق نفائس مكتبـاتهم، والاعتـداء علـى مراقـد أئمتهم المقدسة، وتغيير معـالم مـدنهم التاريخية.

هذه السياسة الطائفية الهوجاء هي جـزء مـن الطائفيـة السياسـية التـي

تمارسها الأنظمة المتعاقبة على الحكم في العراق على مر السنين، وفي جميع مراحل الحكام بين الصعود والنزول حسب متطلبات الظروف وطائفية الحاكمين. وفي الوقت الذي يقوم الشعب العراقي بانتفاضاته ورفضه للاستعمار وأذنابه ومعاهداته فمن ثورة العشرين إلى انقلاب بكر صدقي ١٩٣٦م إلى انقلاب رشيد عالي الكَيلاني ١٩٤١م إلى وثبة بورتسموث ١٩٤٨م إلى انقلاب محمد نجيب في مصر ١٩٥٥م، ومأساة النجف واستئزار نور الدين محمود في ١٩٥٥م، إلى المعارضة في حلف بغداد عام ١٩٥٥م والعدوان الثلاثي على مصر ١٩٥٦م، إلى الإنقلاب الجمهوري في ١٩٥٨م ومنه إلى الوحدة بين مصر وسوريا من نفس العام، إلى الانقلاب الدموي البعثي الأسود في ١٩٦٣م والانقلاب البعثي الأخير في ١٩٦٨م وحتى يومنا هذا، تعطي النجف خاصة والشيعة عامة قرابين من الدماء بعلمائها وبمراجعها وشبابها وشيوخها نساءً ورجالاً وحتى اطفالاً.

وتحاول السياسة الطائفية هذه الظهور بمظهر الضحية لتبرير انتهاكاتها الصارخة لحقوق الانسان، وممارساتها الارهابية والقمعية ذد أبناء البلد الأصليين، وبالطبع فان السياسة تلك مرتبطة بطبيعة النظام السياسي، ونهجه وبعموم التقاليد الموروثة في المجتمع العربي، بغض النظر عن حجمها كماً أو كيفاً.

جذور المشكلة الطائفية:

ورجوعاً إلى تاريخ جذور هذه المشكلة المؤلمة ودافعها الحقيقي، فقد كان هناك اتجاه سياسي تغلب على جميع الاتجاهات الأخرى، وشكل بداية جديدة لظهور عرب المسلمين الشيعة على المسرح السياسي العراقي، فبعد انتهاء اضطهادهم من قبل الدولة العثمانية، بدأ جهاد علماء الشيعة ضد المستعمر البريطاني من جل الاستقلال، واقامة الدولة العراقية، ونهضوا بالقسط الأكبر من هذا الجهاد وبالكفاح الكبير من خلال تفجيرهم وقيادتهم لـ « ثورة

العشـرين » أولاً، ثـم مـن خـلال منـاداتهم بملـك عربـي انسـجاماً مـع عروبتهم ثانياً[٥٠].

وقـد اتضـح بعـد تقـديم الضـحايا والاستقرار على استقلاليتهم من خلال المرجعية الدينية في النجـف، وفتاواها التي تجد صدى التنفيـذ المباشـر مـن قبـل جمـاهير الأغلبيـة الشـيعية فـي جميـع انحـاء العـالم الإسـلامي. ومـن جـراء هـذا الشـعور الـرافض للمسـتعمر البريطاني كرست سياسة تقديم الأقليـة المؤيـدة لقبـول الأمـر الواقـع، علـى الأغلبية، وعوملت هذه الغالبية كأقليـة مضطهدة عاشت أوضاعاً تعرضت فيهـا لا للتمييز في المعاملـة - الـذي لا تقـرّه مواثيق حقوق الانسـان - فحسـب، بـل لحملات تصفية جماعية وابادة شاملة.

ورغم ان العهد الملكي الذي جـيء به بعد ثورة العشرين حتى عام ١٩٥٨م، لـم يشـهد تصـفيات جسـدية لهـذه الأغلبيـة كمـا حـدث فـي الأزمنـة مـن بعـده، إلاَّ ان سياسـة التمييـز الطـائفي كانـت قائمـة - حينـذاك - وكانـت أحـد اسس النظام السياسي الذي قـام علـى أساس من هذا التمييز الـذي لـم يغيـره عهد في هذه الـوزارة أو تلـك، وتميـزت بشكل واضح في المناصب الحكوميـة، حيث شـكلت مـن عـام ١٩٢٠م وحتـى تاريخنـا الحـالي وزارات ورئاسـات كـان نصـيب الأغلبيـة الشـيعية اشـبه بالانعدام. كما تمثلت هذه الطائفية في البرلمانـات أيضـاً، واسـتمراراً فـي سـائر مرافق الدولة، ومجالاتها الواسعة.

أمـا مركـز سـلطة الجـيش والقـوات المسلحة، فلـم يكـن للشـيعة إلاَّ العـدد الرمزي القليل جداً وذلك علـى هـامش القوات المسلحة، وهو في الواقع سـتاراً للتغطيـة الطائفيـة السياسـية السـائدة، والتـي وضـع اساسـها القـانوني (قـانون الجنسـية) الـذي صـاغه البريطـانيون، حيـث وزعـوا السـكان العـراقيين إلـى فئتين في تبعيتها هما « فئة عثمانية » في تبعيتها و(فئة ايرانية) فـي تبعيتهـا. مما يلغي أصلاً الأصل العراقي لسـكان العراق، وقـد أصـبحت الفئـة العثمانيـة تمثل السكان الأصليين للـبلاد، وتُحـد من يغداد إلى الشمال والغرب، أما الفئة الأخـرى فتشـملها منـاطق بغـداد إلـى

الجنوب والشرق، واستناداً إلى هذا التقسيم البريطاني كان يتم نفي المعارضة السياسية والدينية الشيعية إلى إيران، للتخلص من نفوذهم، وتأثيرهم في العراق، وهو الأساس الذي اتبعه بحذافيره نظام صدام منذ عام ١٩٦٩م، في تهجير السكان العراقيين العرب الذين كان الكثير منهم يعمل حتى في القطاعات العسكرية والتجارية والدينية، والثقافية الاجتماعية. وحتى الاكراد شملهم هذا التقسيم ولحقهم أخيراً التركمان والآشوريون، وجرد هذا القطاع الكبير من حقوق المواطنة، ومصادرة مستمسكاتهم وأموالهم للتخلص من ثقلهم الاجتماعي والسياسي والديني، ومن ارتباط العراق بتاريخهم الطويل وبتشكيلهم الهوية الوطنية والقومية والثقافية للبلاد.

وقد حاول صدام بعد حملات التهجير القسرية للعراقيين فتح الباب لبعض مواطني الدول العربية لأستيطانهم مناطق الجنوب لتغيير الخارطة العراقية ولرفع نسبة الطائفية بعد منحهم الجنسية العراقية على حساب العراقيين الأصليين.

نماذج من معاناة الشعب العراقي في عهد صدام:

وسأتعرض إلى بعض النماذج من آلام ومعاناة الأغلبية السكانية الشيعية على يد الحكم الصدامي وبمرأى من العالم الحر وجمعيات حقوق الإنسان ومجلس الأمن الدولي وغيرهم:

١- اقادام صدام على تدمير وابادة قرى ومدن الأهوار في جنوب العراق بالسلاح الكيمياوي، والحرق الشامل، والذي اودي بحياة الآلاف من أبناء القبائل الشيعية العربية وتشريد الآلاف منهم والقضاء على حياة تلك البيئة الفريدة التي تتمتع بعمق حضاري وانساني يعود إلى آلاف السنين.

٢- انتفاضة الجماهير العراقية ١٩٩١م، ورد فعل صدام ونظامه عليها وهو خاسر ومهان في حرب الخليج مع الكويت. انه قمعها بابشع الأساليب وراح ضحيتها أكثر من نصف مليون عراقي.

٣- حرب صادم مع الجارة المسلمة - الجمهورية الإسلامية الإيرانية - والتي راح ضحيتها ما يزيد على مليون قتيل ومعوق وجريح، والتي استمرت ثمان سنوات، اضافة إلى دمار البيئة، والبنية التحتية.

٤- فاذا ما اضفنا رقم الخسائر البشرية وغيرها إلى حصيلة خسارة حرب الخليج الثانية، تنكشف الحقيقة المروعة وهي ان قرابة اكثر من ملبونين من عرب الشيعة طحنتهم سياسة النظام العدوانية خلال عقد من الزمن بسلاح ودعم اوربي امريكي للقضاء على الشيعة في البلدين وفي العراق خصوصاً انتقاماً من موقف الشيعة في ثورة العشرين. وإذا ما دقّقنا في نسبة العرب الشيعة المشردين، والذين يعيش البعض منهم في المخيمات على الحدود في ايران وفي داخلها وفي سوريا اضافة إلى اولئك المهجرين والمهاجرين الفارين من ضيم النظام وفتكه، وحماية لحياتهم من قمعه واضطهاده، والمنتشرين في أرجاء العالم، تتضح لنا أبعاد المأساة المروعة التي لحقت بالشيعة العراقيين.

٥- نضيف إلى هذا انتهاك صدام وبشكل سافر ومنذ منتصف السبعينات لحرمة علماء المسلمين الشيعة وتشريع مبدأ اغتيالهم ومطاردتهم واعتقالهم وفقدانهم في سجونه، إلى انتهاك حرمة الجامعات العلمية، والمساجد، واحراق المكتبات، وبكل وقاحة واستهتار وبمرأى من العالم الإسلامي والعرب والغربي. وقد أعدم الكصير من علماء الدين وكبارهم حتى طالت يداه المراجع العظام، ولا زال الكثير منهم لا يُعرف عن مصير بعد اعتقالهم ومنذ أكثر من عشر سنوات.

٦- كما ان صداماً شتت جامعة النجف العلمية وحوزتها الدينية، ذات الألف عام من العمر، وهي احدى أربع جامعات عالمية اسلامية: جامعة القرويين في المغرب، والزيتونة في تونس، والأزهر في القاهرة، والنجف الأشرف في العراق، هذه الجامعات التي أنمت الفكر العربي والإسلامي طوال سنوات عمرها الزاهر.

٧- ولم يكتف صدام بهذا بل اعتدى على المراقد المقدسة للإمامين علي بن ابي طالب عليه السلام في النجف الأشرف وابنيه الإمام الحسين وأخيه العباس (عليهما السلام) في كربلاء، حيث دكت صواريخه هذه المراقد المقدسة، وعمد إلى تغيير المعالم الحضارية والتراثية في المدينتين النجف الأشرف وكربلاء.

٨- ولو تابعنا تلك الروح الطائفية البغيضة في نفس صدام لرأينا ابان الانتفاضة الشعبية في عام ١٩٩١م، والتي عبر فيها الشعب العراقي البطل عن رفضه القاطع لنظام صدام الدكتاتوري، كيف ان النظام ألغم ودمر أكثر من ١٢٠ مسجداً، في مدينة كربلاء، و١٣ مدرسة ومعهداً علمياً في النجف الأشرف، واحرقت أكثر من خمس مكتبات عامة في النجف الأشرف كانت تحوي نفائس المخطوطات والكتب الإسلامية، كما تمَّ هدم قبور المسلمين في المقبرة العامة في النجف الأشرف، وتدمير المعالم والرموز الشيعية في هذه المدن المقدسة. جاء كل ذلك منسجماً مع شعار النظام الصدامي، الذي رفعته قوات الحرس الجمهوري ابان دكها وقصفها لهاتين المدينتين النجف الأشرف وكربلاء المقدستين « لا شيعة بعد اليوم ». ان رفع هذا الشعار على دبابات ومصفحات جيش صدام ودخوله المدينتين المقدستين وقصف المراقد المقدسة وقتل الآلاف من الأبرياء إلى جانب قتل الأبرياء في مناطق الجنوب الأخرى، وما هو إلاَّ بدافع الانتقام الطائفي وتحقيق المخطط الاستعماري البغيض، في حين لم تعترض أية دولة عربية أو اسلامية - عدا الجمهورية الإسلامية في ايران - أو اية دولة في عالمنا الحاضر، اضافة إلى اعتقاله المرجع الديني الأعلى للطائفة الإسلامية الشيعية الإمام الخوئي قدس سره ونقله إلى بغداد.

وكان العالم كلّه يشهاد تلك العنجهية الصدامية واللامبالاة والاستهانة بالبشرية ترتسم على شفتيه ! فماذا كان رد الدول الكبرى

وغيرها، في الوقت الذي كانت النجف الأشرف أول من يسجل موقفاً في استنكارها واحتجاجاتها الدينية والوطنية في مناصرة شعوب العالم في كل مكان؟

الخاتمة:

ان النجف الأشرف شارك بجامعته العلمية وحوزته الدينية، وبكل ثقله وامكاناته الفكرية، المحن التي مرت بها شعوبنا العربية الإسلامية، وسجل في كل قضية مصيرية لهذه الأمة، طوال العقود المنصرمة موقفاً مشرفاً أملاه عليه الواجب الأخوي، والغيرة العربية، بداية من القضية الفلسطينية، ومروراً بالجزائرية، والتونسية، والمغربية، والسورية، والمصرية، وأخيراً الكويتية.

وسجل كل ذلك - بكل فخر واعتزا - في صفحات تاريخ هذا البلد العربي العراقي جهاداً، وفكراً... ولكن - ويا للأسف - لم تعكس هذه المواقف المبدئية رد فعل مناسب وحجم هذه المأساة. فلم تنعكس صدى هذه المحنة لدى أخواننا العرب بما ينسجم وعمق المأساة، بل العكس فقد تركوا شعبنا المظلوم للحاكم ينفذ فيه مؤامراته دون رحمة أو رأفة، وبقي الأشقاء، والاصدقاء يرقبون العملية المأساوية وما من متحرك للإنقاذ.

ان الشيعة في عراقنا الحبيب عندما ثاروا قبل ثورة العشرين واستمروا في ثورة العشرين وما بعدها وطردوا المستعمر الانكليزي شرّ طردة من بلاد الرافدين فاشترك الشعب مع قيادته العلمائية المتمثلة بالمرجعية الرشيدة... دفعوا ثمن ذلك العمل البطولي حيث نفذ ما سنّه الإنكليز من دستور طائفي بغيض مدركين ان كل حاكم يستلم زمام الحكم في العراق يسارع إلى تطبيق الدستور ليتجاهل الأغلبية السكانية في الوقت الذي يصرح الملك فيصل الأول مؤسس الدولة العراقية في مذكرته التي اصبحت وصية بعده بقوله: « ان الضرائب على الشيعي، والموت على الشيعي، والمناصب للسني، ما الذي هو للشيعي؟ »[٥١].

ان سياسة التمييز الطائفي، والتي هي اليوم تجسيد واقعي للطائفية السياسية لنظام الحكم في العراق منذ تشكيل الدولة العراقية في العشرينات من قرننا هذا والتي صورت الغالبية العربية من سكان العراق بمظهر « الأقلية » لتبرير اضطهادها سياسياً ودينياً وثقافياً، بالرغم من مساهمتها الفاعلة، والجادة في بناء العراق... ادى ذلك إلى أن يعيش هؤلاء أوضاعاً شاذة واستثنائية.

وللتأكيد على ما يُعامل به جنوب العراق ووسطه امتداداً من مدينة النجف الأشرف وانتهاءً في مدينة البصرة مروراً على بغداد وضواحيها.. ما سمعنا ورأينا ما حلّ بأهوار العراق واستنهضنا همم المجتمعات الدولية بالاضافة للعربية والإسلامية واستغثنا لمساعدتهم، وكأن شيئاً لم يكن، قتل ابناء الأهوار بأفتك الأسلحة المحرمة، وشرّد آلاف... فلا عين رأت، ولا أذن سمعت ! !

ان قرارات الأمم المتحدة منها ما يُنفذ فور اقرارها ومنها ما يوضع على الرف رغم اهميتها وضرورتها. منذ غزو صدام للكويت في ١٩٩٠/٨/٢م وقف المجتمع الدولي في وجه صدام، وظهر ذلك بجلاء في قرارات الأمم المتحدة التي وصلت قرابة الثلاثين قراراً، ومن أجل تحديد نقاط الخلل، وعدم التوازن في السياسة الدولية تجاه شعبنا المضطر نستدرج المفارقة التالية بين قرارين صدرا عن المجلس الدولي في فترة متقاربة واحدة وضمن اجراءات مماثلة كمثل بسيط عن حديثنا هذا:

الأول: قرار ٦٨٧ الصادر في ٢ نيسان ١٩٩١م والذي يُعتبر اطول قرار تصدره الأمم المتحدة منذ تأسيسها، تناول تدمير الأسلحة العراقية الكيمياوية والبايولوجية، والصواريخ، ومسألة العقوبات والتعويضات، كما تناول معالجة عواقب الحرب المدمرة. أما مرتكب الجريمة صدام التكريتي فيبقى طليق اليد، يقتل ويسجن ويشرد ويعبث في أرض الرافدين وجوارها فساداً، ويهدد المنطقة ويختلق بين فترة واخرى حرباً، ويهدد كيان دول... كل ذلك ولم يشر القرار إليه بشيء ! !

اوجد حاكماً منذ البداية لينفذ أوامر أسياده وبالذات مسخ الهوية العربية الشيعية، ويحقق لأسياده ما يصبون إليه.

ان الإدارة الدولية بذلت اهتماماً كبيراً في تنفيذ هذا القرار، وقد اسندت مهمة تنفيذه مبدئياً إلى السفير - رالف اكيوس - من ادارة الأمم المتحدة - بصفة الرئيس التنفيذي للجنة الخاصة التابعة للأمم المتحدة المكلفة بازالة الأسلحة العراقية المحظورة - ومنذ صدور القرار وحتى استقالته، وتعيين السفير بتلر محله زارت اللجنة العراق اكثر من سبعين بعثة من الأمم المتحدة لتنفيذ بنود القرار، وامتلكت تلك البعثات الصلاحيات الواسعة في الوصول وتفتيش أي منطقة في العراق دون أي مانع، ولم يستطع العراق من الوقوف امام هذا الموقف الدولي، والامتناع من الاستجابة إليه بل انصاع ممتثلاً اوامره بكل مذلة، رغم ما فيها من غمط لحقوق العراق إذ كان بالامكان الاستفادة من بعض هذه المؤسسات للصالح العام العراقي، بان تتحول إلى طاقة يستفاد منها في المجالات الإنسانية والعلمية، اضافة إلى ذلك فقد تكلف تنفيذ هذا القرار مليارات من الدولارات تحملها شعب العراق المظلوم.

الثاني: قرار ٦٨٨ الصادر في ٥ نيسان ١٩٩١م، وهو القرار الوحيد الذي انتصر لجانب الشعب العراقي، والذي ينص على ضمان حقوق الإنسان في العراق، ويدين القمع الذي يتعرض إليه من قبل النظام.

وفي صيف ١٩٩١م عُين « فن دير شتويل » وزير الخارجية الهولندي السابق مقرراً خاصاً لحقوق الإنسان في العراق، ومنفذاً للقرار ٦٨٨، وبذل جهداً في مهمته الإنسانمية محققاً وباحثاً عن انتهاكات حقوق الانسان في العراق. فمنذ صدور هذا القرار وحتى يومنا هذا زارت العراق بعثتان، ومثيلها لدراسة انتهاكات النظام للاجئين العراقيين في الجنوب والشمال، ويقدم تقريره المفصل عن انتهاكات حقوق الانسان في العراق، كلما سنحت له الفرصة في كل اجتماع

للأمم المتحدة مدعماً تقريره بالأدلة والوثائق مضيفاً توجيهاته وتوصياته العديدة لحماية حقوق الإنسان من قمع النظام وابادته، وكانت من أهم تلك التوصيات:

أ- ضرورة انتشار المراقبين الدوليين في كافة انحاء العراق، وقد اقتراحه في شباط ١٩٩٢م ووافقت الجمعية العمومية على الاقتراح بالأغلبية، وذلك للحد من اعتداءات السلطة على المواطنين.

ب- في نوفمبر ١٩٩٢م لفت المقرر الخاص انتباه العالم إلى الكارثة البئية التي لحقت بالأهوار نتيجة استمرار النظام في عمليات التجفيف الواسعة، وتدمير حضارة قديمة يمتد عمرها إلى آلاف السنين، وتهجير سكانها المستوطنين منذ عشرات السنين أو اكثر إلى المناطق لم يألفوها ولم يتمكنوا من العيش فيها لأسباب بيئية.

ج- في شباط ١٩٩٤م حدد (فان دير شتويل) وشخص مسؤولية الجرائم التي ارتكبت تجاه الشعب العراقي برأس النظام، وطالب بمحاكمته كمجرم حرب. والغريب جداً ان الأمم المتحدة لم تنفذ أياً من الاقتراحات الخاصة بالحد من ارهاب وقمع النظام تجاه الشعب الذي يحمله قرار ٦٨٨.

سؤالنا وسؤال شعبنا الذي يرتسم على شفاه الملايين من العراقيين وغير العراقيين من اصحاب الضمائر الحية ! لماذا جندت الأمم المتحدة كل امكانياتها لتنفيذ قرار ٦٨٧، واهملت متابعة قرار ٦٨٨ الخاص بالشعب العراقي؟ ! ! أو لماذا نفذ قرار ٦٧٨ بحذافيره وجندت له الأمم المتحدة كل الامكانيات؟ ! نستنتج من متابعة الأمور:

١- إن الأمم المتحدة وقفت مكتوفة اليدين في انتفاضة الشعب العراقي (آذار ١٩٩١م) والتي شجعها رئيس التحالف الدولي الرئيس جورج بوش، فلم تصدر الأمم المتحدة قراراً تحفظ به حقوق الإنسان في العراق من الكارثة المأساوية التي جابهها الثوار العراقيون من انقضاض النظام عليهم،

في الوقت الذي يرى فيه جيش الحلفاء وبقيادة شوارزكوف آلاف المنتفضين يتساقطون قتلى برصاص صدام وبطائراته التي أجازوا له استعمالها، وهي ترمي أنواع القنابل عليهم.

٢- خلو كل القرارت المتعددة الصادرة من المنظمة الدولية بعد الانتفاضة المجيدة، وخاصة قرار مجلس الأمن الدولي ٦٨٧ من تحديد مسؤولية مفجر الحربين الإيرانية والكويتية، ومحاكمة المعتدي، وأبقي مرتكب الجريمتين طليقاً حراً يمارس كل أساليب القمع والاضطهاد مع الشعب العراقي، وبكل حريته، دون رادع أو محاسب.

٣- لم تضع الأمم المتحدة آلية تطبيق الحظر الاقتصادي المفروض على العراق ليقصر ضرره على النظام دون الاضرار بالشعب، وتركته ليصبح ضرره على الشعب أكثر بكثير جداً من ضرره على النظام.

ومن هذا كله يتضح ان هناك تناقضاً واضحاً بين المصالح الدولية ومصالح الشعوب، مما يجعل سياسة المنظمة الدولية في ظروف الهيمنة (الأحادية) غير متوازنة، ويبدو ان احد أسباب ذلك هو « غربة الشعوب » وعدم وجود التضامن في وحدة الموقف العام لنصرة الشعوب المضطهدة.

وبهذا الجهد اليسير من البحث في أهمية النجف الأشرف ودورها المشرف في ثورة العشرين وما تلاها من الحركات والانتفاضات، أسال الله تعالى أن يأخذ بيد شعبنا العراقي البطل لما فيه خيره وصلاحه في اختياره حكومة شرعية وطنية ينتخبها ابناؤه البررة من بين رجالاته المجاهدين وان يعيد للنجف الأشرف وكربلاء والكاظمية وسامراء، المدن المقدسة في عراقنا الحبيب كرامتها وعزّتها بعد هذا الشوط الطويل من الجهاد وللمراجع العظام والعلماء الأعلام والشعب المجاهد عزتهم وحريتهم وكرامتهم، انه سميع مجيب.

الهوامش

[١] راجع محمد بحر العلوم: الدراسة وتاريخها في النجف / موسوعة العتبات المقدسة – جعفر الخليلي – قسم النجف، ج٢، طبع بيروت – دار التعارف ١٩٦٦م.

[٢] قد خفُت بريق النجف الأشرف بعد الطوسي وبزغ نجمها مرة أخرى في القرن التاسع والعاشر الهجري، وقد ذكر الكاتب ذلك في الصفحة ٢٢٨ بقوله: « وازدهرت النجف ثانية بعد... » [اللجنة].

[٣] لا شك ان انتقال السيد بحر العلوم (رحمه الله) إلى النجف الأشرف قد أعطاها زخماً قوياً وفتح عهدها الجديد غير ان ذلك لا يعني الإحكام التام حيث كانت مدرسة كربلاء بما فيها من أفذاذ منهم شريف العلماء المازندراني استاذ الشيخ الأنصاري ومن بعده من كبار الفقهاء والأعلام [اللجنة].

[٤] دائر المعارف الإسلامية الشيعية، ج٣/ص: ٤١٥.

[٥] مصدر سابق، الدكتور السيد محمد بحر العلوم / موسوعة العتبات المقدسة، ج٢.

[٦] السيد مصطفى جمال الدين، مقدمة الديوان، ص: ١٣ – ٢٧.

[٧] ديوان علي الشرقي، ص١٥ – ١٦، طبع بغداد.

[٨] محمد جواد مغنية: امامة علي والعقل، ص: ٤٨.

[٩] ضياء الدين زين الدين: علي في التزام الحق، ص: ٣٣١.

[١٠] المستدرك (م. س)، ٣: ١٢: ١٢٨، والذهبي في تلخيص المستدرك، ج٣/ص: ١٢١، وابن عساكر في الترجمة، ج٢/ ص: ١٨٨، ٢٦٦، ٢٦٨.

[١١] كنز العمال (م. س)، ج٦/ ص: ١٥٥ (حديث ٢٥٧٨)، وفي المنتخب، ج٥/ ص: ٣٢ والحاكم في المستدرك، ج٣/ ص: ١٢٨.

[١٢] السيد حسن الأمين: دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج٣ / ص: ٤١٤. والدكتور السيد بحر العلوم في موسوعة العتبات المقدسة، قسم النجف، ج٢/ ص: ٢٨ – ٣٢.

[١٣] د. عبد الهادي الفضلي: تاريخ التشريع الإسلامي، ص: ٣٣٣ – ٣٣٤.

[١٤] المصدر السابق، ص: ٣٩٩.

[١٥] المصدر السابق، ص: ٤٠١.

[١٦] حسن شبر: العمل الحزبي في العراق، ج١ / ص: ٧٤.

[١٧] المصدر السابق، ج١ /ص: ٦١.

[١٨] المصدر السابق، ج١/ ص: ٦٣.

[١٩] مذكرات السيد محمد علي كمال الدين من رجال الثورة العراقية، ص: ١٠٠.

[٢٠] مذكرات السيد محمد علي كمال الدين من رجال الثورة العراقية، ص: ٢٨٤.

[٢١] المصدر السابق، ص: ٢٨٧.

[٢٢] المصدر السابق، ص: ٢٩٩.

[٢٣] عبد الرحيم الرهيمي: تاريخ الحركة الإسلامية في العراق، ص: ١٦٥.

[٢٤] مذكرات السيد محمد علي كمال الدين من رجال الثورة العراقية، ص: ٢٥ – ٢٧.

[٢٥] حليم أحمد: موجز تاريخ العراق الحديث، ص: ٦٢.
[٢٦] عبد الرزاق الحسني: الثورة العراقية الكبرى، ص: ٨٠.
[٢٧] عبد الرزاق الحسني: الثورة العراقية الكبرى، ص: ٨٤.
[٢٨] عبد الرزاق الحسني: الثورة العراقية الكبرى، ص: ٤٠.
[٢٩] عباس محمد كاظم: ثورة الخامس عشر من شعبان (ثورة العشرين)، ص: ١٩٦.
[٣٠] المصدر السابق، ص: ١٩٦.
[٣١] حسن العلوي: الشيعة والدولة القومية في العراق، ص: ٨٨.
[٣٢] المصدر السابق، ص: ٩٣.
[٣٣] حسن العلوي: الشيعة والدولة القومية في العراق، ص: ٩٤.
[٣٤] عبد الحليم الرهيمي: تاريخ الحركة الإسلامية في العراق، ص: ١٨٩.
[٣٥] المصدر السابق، ص: ١٩٠.
[٣٦] عبد الرزاق الحسني: الثورة العراقية الكبرى، ص: ٨٠.
[٣٧] د. علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج٥/ ص: ٢٠٥.
[٣٨] عبد الرزاق الحسني: الثورة العراقية الكبرى، ص: ٢٦٤.
[٣٩] المصدر السابق، ص: ٢٤٩.
[٤٠] عبد الرزاق الحسني: الثورة العراقية الكبرى، ص: ٢٥١.
[٤١] ل. ن كونلوف: ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق، ص: ٢٦٧.
[٤٢] المصدر السابق، ص: ٢٧٠.
[٤٣] مرفق ميثاق النجف لحركة ١٩٣٥م. وللوقوف على نصه يراجع: ج٤/ ص: ١٠١ من تاريخ الوزارات العراقية لمؤلفه عبد الرزاق الحسني، الطبعة الخامسة الموسعة.
[٤٤] عدنان ابراهيم السراج، الإمام محسن الحكيم، ص: ٢٠٣.
[٤٥] المصدر السابق، ص: ٢٠٣.
[٤٦] المصدر السابق، ص: ٢٠٣.
[٤٧] المصدر السابق، ص: ٢١٩.
[٤٨] عبد الكريم الأزري: مشكلة الحكم في العراق، ص: ١٤٤.
[٤٩] المصدر السابق، مذكرة الملك فيصل الأول.
[٥٠] من محاضرة لسماحة الدكتور السيد محمد بحر العلوم
[٥١] عبد الكريم الأزري: مشكلة الحكم في العراق، ص: ٤.

الشَّيخُ مُحَمَّدُ تَقِيُّ الشِّيرَازِيُّ
وَدَوْرُهُ فِي الثَّوْرَةِ العِرَاقِيَّةِ عَام ١٩٢٠
- دِرَاسَةٌ تَارِيخِيَّةٌ -

❖ د. جاسم محمد إبراهيم اليساري [١]

(١) باحث واستاذ جامعي / العراق.

المقدمة:

شهد تاريخ العراق المعاصر أحداثاً سياسية مهمة شكلت نقاط تحول تاريخية، كان من أبرزها مقاومة الشعب العراقي للاحتلال البريطاني والذي توج بثورة ١٩٢٠م ولم يكن العراق بمعزل عن محيطه العربي والإسلامي الذي ناهض الاستعمار الغربي (البريطاني والفرنسي) في سوريا ومصر وإيران وتركيا وغيرها من الدول العربية والإسلامية. حيث برز في هذه الدول العديد من القادة الوطنيين والزعماء الدينيين الذين التفت شعوبهم حولهم لنيل الحرية والاستقلال وطرد المحتلين الأجانب، برز في العراق كذلك العديد من الشخصيات الوطنية والدينية كان على رأسها المرجع الديني الأعلى آية الله الشيخ محمد تقي الشيرازي الحائري.

ورغم تناول العديد من الباحثين والكتاب لأحداث العراق في مرحلة الاحتلال البريطاني ودراسة العديد من جوانبها المختلفة، إلا إنه وللأسف فقد أهملت إلى حد ما دراسة العديد من الشخصيات الدينية العراقية التي كان لها أثر وطني كبير في تلك المرحلة الحساسة من تاريخه، ويرجع ذلك لأسباب عدة من أبرزها أسباب سياسية، لذلك ارتأينا أن نسلط الضوء على إحدى الشخصيات التاريخية المهمة وهو الشيخ محمد تقي

الشيرازي لدوره الكبير آنذاك في قيادة الشعب العراقي بمختلف أطيافه وعناوينه، وبعيداً عن النزعات الطائفية والعنصرية.

حيث سلطنا الضوء على دور الشيخ الشيرازي في ثورة عام ١٩٢٠ منذ الاحتلال البريطاني والتي بدأ التمهيد لها بالاجتماعات والمراسلات مابين القواد والزعماء والوطنين من جهة والشيخ الشيرازي من جهة أخرى، مما أدى إلى اندلاعها في ٣٠ حزيران ١٩٢٠ والتي كان من أبرز نتائجها تأسيس الدولة العراقية الحديثة.

أعتمد البحث على كثير من المصادر منها بعض المخطوطات للشيخ محمد الخالصي نجل الشيخ (مهدي الخالصي) أحد رجال الدين البارزين في العراق في تلك المرحلة والمقرب من السيد الشيرازي.

أما المصادر العربية فكان من أهمها كتاب فريق المزهر آل فرعون (الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها) والذي ذكر فيه العديد من الأحداث التي تخص الشيرازي، كما تم الاستعانة بمؤلفات عبد الرزاق الحسني (الثورة العراقية الكبرى) و(تاريخ العراق السياسي الحديث الجزء الأول) وغيرها، كذلك مؤلفات الدكتور علي الوردي ومن أهمها (لمحات أجتماعية من تاريخ العراق الحديث، القسم الأول من الجزء الخامس)، وكتاب نور الدين الشهرودي (أسرة المجدد الشيرازي).

كما أعتمد البحث على عدد من المصادر المعربة (الأنكليزية وغيرها) ومنها (فصول من تاريخ العراق القريب) للمس بيل، والذي ذكرت فيه الشيرازي بأوصاف شائنة كذلك كتب وكيل الحاكم المدني البريطاني (آرنولد ويلسن) بعنوان (الثورة العراقية) وكتاب (بلاد ما بين النهرين بين ولائين الجزء الثاني).

كما تم الرجوع إلى بعض من الأطاريح والرسائل الجامعية التي لها صلة بالبحث أو أحد الشخصيات المهمة التي عاصرت أحداث الثورة أو بعض رجالاتها المهمين، وفضلاً عن

ذلك كله تم الرجوع إلى كتب المذكرات الشخصية العربية أو المعربة ذات العلاقة بموضوع بحثنا.

الشيخ محمد تقي الشيرازي – نشأته – تعليمه – سيرته

أولاً: نشأته وتعليمه:

محمد تقي الشيرازي، هو الميرزا[١] محمد تقي بن مُحِب علي بن أبي الحسن بن الميرزا محمد علي الملقب بـ(كلشن)[٢]، الحائري[٣]، الشيرازي، ولد في مدينة (شيراز) في أيران سنة ١٨٤٠م (١٢٥٦هـ)، ينتسب لأسرة ذات علم وأدب فكان والده الميرزا محب علي من أهل الورع والدين، أما أخوه الأكبر الميرزا محمد علي فكان من كبار رجال الدين في إيران[٤].

درس في سامراء، ثم عاد إلى موطنه (شيراز)، وتصدى فيها لشؤون التدريس والفتاوي الشرعية طوال حياته، وكانت له المرجعية العليا فيها، كما إن عمه ميرزا حبيب الله كان من مشاهير الشعراء في مدينة شيراز[٥].

أما أبناء الشيخ محمد تقي الشيرازي فهم ثلاثة أولاد مع وواحدة وتسلسلهم كالآتي:

١. الشيخ محمد رضا الشيرازي: وهو أكبر أبنائه، وساعده الأيمن في تأجيج الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ضد الأحتلال البريطاني، وكان صلة الوصل بين والده والعشائر العراقية الثائرة[٦]. ولقي في سبيل ذلك متاعب ومعاناة كبيرة، إذ أعتقل وأدخل السجن ثم نفي إلى جزيرة (هنجام)[٧]، في الخليج العربي، ثم أفرج عنه بعد أقل من شهر وسافر إلى إيران وبقي هناك طيلة حياته ولم يرجع إلى العراق، بعد أن شجع الحركة الوطنية ضد الاحتلال البريطاني[٨]، لهذا السبب أتهته السلطات البريطانية بالميل إلى النزعة البلشفية في روسيا[٩]، وصفته المس بيل (١٨٦٨-١٩٢٦)[١٠]، « كان سياسياً فعالاً لا يستقر على حال، معارضاً للاتفاقية الإيرانية - البريطانية معارضة مرة، وعلى هذا الأساس فقد كرس جهوده لمناوئة الحكومة البريطانية في العراق »، كما

أتهمته بأنه يقبض المال من الأتراك، وأضافت المس بيل في وصف الشيخ محمد رضا: «.... ومع أنه لم يكن يعترف به كعالم فأنه كان يتمتع بالاحترام الذي كانت تعامل به أسرة المجتهد الأكبر، كما إن تأثيره على أبيه جعله مرجعاً أعلى للرأي »[١١]. حيث إن هذه الاتهامات لا تتناسب مع شخصية وطنية تنحدر من أسرة مرجعية فهي لا تتعدى محاولة للنيل من هكذا شخصية يهدف التقليل من دوره الاجتماعي والسياسي من خلال هذه الاتهامات.

صاهر الميرزا حبيب الله الشيرازي على كريمته وهي أخت العلامة الكبير السيد مهدي الشيرازي[١٢]، وتوفي سنة ١٩٥٧ في مدينة طهران في إيران[١٣].

٢. الشيخ عبد الحسين الشيرازي: وهو الابن الأوسط للشيخ محمد تقي الشيرازي، وكان عالماً فاضلاً من أعلام الحوزة العلمية في كربلاء، أتصف بحسن الأخلاق وطيبة النفس وحسن المعاشرة[١٤]، وكان موضع احترام العلماء والمراجع ورجال الدين، وديوان مجلسه يحضره جمع غفير من العلماء والأعيان والموظفين والزعماء السياسيين والكسبة[١٥]، متزوج وله ولدين الأول محمد علي وعمل حاكماً في المحاكم الإيرانية والثاني أسمه عبد الأمير وعمل مدرساً في المدرسة المتوسطة الإيرانية في كربلاء، توفي الشيخ عبد الحسين في سنة ١٩٦٢ ودفن في الصحن الحسيني الشريف مع والده.

٣. الشيخ محمد حسن الشيرازي: وهو أصغر أبنائه، عمل قاضياً في محكمة التمييز العليا في العاصمة الإيرانية طهران وتوفي سنة ١٩٨٦م[١٦].

٤. أما بنات الشيخ محمد تقي الشيرازي: فله بنت واحده فقط[١٧]، صاحب ثورة التنباك في إيران عام ١٨٩١م والشيخ محمد تقي الشيرازي، فليست هناك صلة قرابة بينهما لكن كلاهما في مدينة شيراز في إيران ولكنهما ليسا من أسرة واحدة وتربطهم صلة مصاهرة بين الأسرتين وهناك من يقول أن الشيخ محمد تقي الشيرازي

هو من أخوال السيد (محمد حسن الشيرازي)[١٨]، والثاني استاذ الأول كما سنرى في الصفحات اللاحقة.

ثانياً: وصف شخصيته:

تشير العديد من المصادر التاريخية والشخصيات التي عاصرت الشيخ محمد تقي الشيرازي إلى أنه شخصية تمثلت بالعديد من الصفات التي تنم عن قدرات ذهنية عميقة في العديد من العلوم المختلفة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. كما عبرت عن قدرات قيادية حكيمة وفي ذلك يقول عنه السيد حسن الصدر: « عاشرته عشرين عاماً فما رأيت منه زلة ولا أنكرت عليه خله، وباحثته اثنتي عشر سنة فما سمعت منه إلا الأنظار الدقيقة والأفكار العميقة والتنبيهات الرشيقة... »[١٩]، وعلق أحد تلامذته وهو العلامة أغا بزرك الطهراني على هذا الكلام (أي كلام حسن الصدر) بقوله: « أقول وقد تلمذت على يديه (يقصد الشيرازي) وحضرت بحثه ثمان سنين فتأكدت لدي صحة كلام سيدنا الصدر، وبانت لي حقيقة وصدق الخبر، وتحققنا من ذلك عن طريق السمع والبصر »[٢٠].

لم تشغله همومه عن تصديه لأعباء وصعوبات المرجعية وأعماله الكثيرة عن النظر إلى أمور المسلمين، فكان بيته المتواضع في مدينة كربلاء منتدى للزعماء السياسيين ورؤساء العشائر العراقية، ويزحم بالكثير من الناس من مختلف الطبقات، فضلاً عن رجال الدين والعلماء في معظم الأوقات[٢١]، وكان الناس يعتبرونه قائداً لهم بسبب ما يمتلكه من صفات ومؤهلات، وعندما تصدى لقيادة الثورة العراقية الكبرى عام ١٩٢٠ ضد البريطانيين، ولم يشغله هذا العمل الكبير عن إصدار الفتاوى والتشريعات الدينية، وظل يستقبل الناس وينظر في مشاكلهم الخاصة والعامة[٢٢]، وبهذا الصدد نقل عن أحد طلابه وهو السيد شهاب الدين المرعشي النجفي قوله (عندما كانت الثورة العراقية مشتعلة الآوار وكان جهاد الشعب العراقي المسلم ضد الاحتلال البريطاني على أشده، كان

المغفور له الشيخ ميرزا محمد تقي الشيرازي بمثابة ثقل هذه الثورة ومحور الحركة الدينية والدنيوية.... »، وأضاف المرعشي إن الشيخ محمد تقي الشيرازي التقى بهم وقال لهم (أيها السادة طلاب العلم الأجلاء ترون بأنفسكم كيف أن رجال العشائر ورجالات السياسة يحوطون بي ويزدحمون حولي وكيف أن الحرب مع الإنكليز تأخذ كثيراً، فأضاف أن واحداً منكم له حاجة معي ولا يمكنه الوصول إلي.... »، ووضع الشيرازي حلاً لهذه المشكلة بأن يقوم بالمشي إلى جانب نهر الحسينية بعد صلاة الفجر من كل يوم ليأتيه الناس إلى هناك للنظر في أمورهم ومشكلاتهم، ويقول المرعشي عن ذلك «... رأيته بنفسي (ويقصد الشيرازي) عدة مرات في الصباح الباكر وهو يمشي هناك أنتظاراً منه للقاء من له حاجة أو مسألة منه »[٢٣].

كان الشيخ محمد تقي الشيرازي في غاية الحلم والصبر، لم يحدث أن غضب في وجه أحد من الناس حتى من أساء إليه، ولم يكن ينظر إلى الأعلى بل كان منحني الرأس حتى إنه لم يكن ينظر إلى وجوه طلابه أثناء الدرس[٢٤].

سأل أحد تلامذته وهو الشيخ محمد كاظم الشيرازي عن عدله وتقواه وزهده، فأجاب بالقول: « لا تسألني عن عدله وتقواه وكلمات كهذه، بل أسألني عن عصمته وقل لي هو إنسان معصوم أم لا »، أي إنه في الكمال الروحي قد وصل إلى مرتبة عالية[٢٥].

كان الشيخ الشيرازي زاهداً إلى حد بعيد في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه، وكانت داره مستأجرة، على الرغم من وصول أموال كثيرة إليه من الدول الإسلامية، ولم يكن متقيداً بمظاهر الزينة ولا مكترثاً بمباهج الحياة وزخارفها لا في الملبس أو المسكن أو المأكل[٢٦]، كما كان يحترم كل من يقابله بمنتهى الأدب والتواضع[٢٧]، وكان دقيقاً في أصدار فتوايه حذراً أشد الحذر لمعرفته بخطورة ما يصدر لأنه رجل الدين المجتهد تكون مهمته في غاية الخطورة وأن

أي زلة أو خطأ منه في إصدار الفتاوى تجعله يتحمل وزر مقلديه وكل الذين أتبعوا الفتوى التي أصدرها لهم، وقد نُقل عن السيد (محسن الحكيم[٢٨]) عن وصف الشيخ الشيرازي حيث قال « لقد كان سماحته رجل دين ودنياً بما للكلمة من معنى... »[٢٩].

وكان الشيخ الشيرازي حريصاً يقوم هو بنفسه بمهامه الشخصية ولا يُكلف فيها أحداً من الناس أبداً[٣٠]. كان يحمي المستجير به بقوله (يجب إجارة المستجير إن كان غير مسلم، فيكف بمن هو مسلم فر من كافر حربي؟) ويقف إلى جانب المظلوم ضد الظالم مهما كان جبروته وعظمته، وبهذا الصدد ذكر أحد الأشخاص المقربين من الشيخ الشيرازي، إنه في إحدى المرات وعندما كان الشيرازي في مدينة الكاظمية لأداء مراسيم زيارة الإمام الكاظم عليه السلام التجأ إليه أحد الأشخاص وكان من أسرة (الشهبندر) مستجيراً به فقد أصدرت عليه السلطات البريطانية حكماً بالإعدام عليه بسبب قتله أحد الجنود البريطانيين، وبدأت السلطات البريطانية بتوسيط بعض الأشخاص لاسترداد المطلوب لهم، لكن جميع الوساطات التي أرسلها البريطانيون لم تفلح في تحقيق مبتغاهم حيث ردهم الشيرازي، وبدأت السلطات البريطانية باستعمال التهديد والوعيد للشيخ الشيرازي الذي ظل على موقفه الثابت، عند ذلك اضطرت السلطات البريطانية التنازل عن حكم الإعدام وأصدرت عفواً عن الشخص المطلوب ورجع الرجل آمناً إلى بيته.

أما عن أسلوبه في التدريس فقد ذكر عن أحد طلابه قائلاً: « كان سماحته يمتاز بأسلوبه الخاص في تدريسه، ومن جملتها أنه إذا اشتد النقاش بين الطلبة وعلا بحثهم وارتفعت أصواتهم، لم ينهرهم الميرزا (يقصد الشيخ الشيرازي) بل يتركهم وشأنهم ويشتغل هو بالذكر والتسبيح والتهليل إلى أن ينحل نزاعهم وتهدأ أصواتهم... »[٣١]، ولم يكن متزمتاً برأيه أو يفرض توجهاته على أعوانه ومساعديه، وإنما كان يستشيرهم في

كل صغيرة وكبيرة في مرحلتي السلم والحرب، وكانت جميع أموال الزكاة والخمس التي تأتيه من مختلف البلدان الإسلامية ينفقها على الفقراء والمحتاجين، ولاسيما خلال مرحلة الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ حيث مرت على الناس أوقات وظروف اقتصادية عصيبة، وكان مخصص لكل بيت ديناراً ذهبياً مسكوكاً[٣٢].

ولعل من المآثر المهمة في سيرة الشيخ الشيرازي هو أيمانه بالوحدة الإسلامية والتسامح الديني مع بقية الأديان الأخرى، فقد عمل الشيخ الشيرازي على التوفيق بين طائفتي السنة والشيعة، وأوصى بالمحافظة على سائر الملل والنحل وحسن معاملتهم[٣٣]، وقد علي البازركان دور الشيخ الشيرازي في توحيد كلمة المسلمين قائلاً: « زينا للشيعة الصلاة في مساجد السنة كما زينا للسنة الصلاة في مساجد الشيعة وقد بارك تلك الفكرة وشجعها الميرزا محمد تقي الشيرازي..... »[٣٤]، وقد وصف دور الشيخ الشيرازي في هذا المجال، بأنه: « عمل بكل جهد ووسيلة لإزالة النعرات الطائفية، والفوارق الإقليمية، والعصبات القبلية، ونسيان الأحقاد العشائرية وبفضل هذه المساعي توحدت الصفوف.... »[٣٥].

ودلالة على توجهاته التوفيقية فقد علق محمد مهدي البصير على الدور الكبير الذي قام به الشيخ الشيرازي في رص الصفوف بين أبناء الشعب العراقي بالقول: (... عرف المفكرون السُنيون ما للرجل (ويقصد الشيرازي) في المنزلة العظمى فصاروا يتقربون منه ليستعينوا بنفوذه الديني الواسع على تحقيق مقاصدهم السياسية فكان رحمه الله يؤيد الصلات الودية المتبادلة بين الشيعيين والسنيين بكل قواه....)[٣٦].

ووصفه عبد الرزاق الحسني بأنه: « زعيم روحي كبير، صادق العزيمة نافذ الكلمة، واسع النفوذ... »[٣٧]، أما عبد الله الفياض فقال عنه: « كان من رجال الدين الأفذاذ الذين واكبوا سير الحركات التحررية في عصورهم ووجهوا مؤيديهم لخدمة مصلحة

الوطن العليا »[٣٨].

أما المسؤولون البريطانيون فقد وصفوا الشيخ الشيرازي بأوصاف قاسية تظهر مدى الحقد الذي كانوا يكنونه له بسبب مواقفه المناهضة لهم. ومنهم أرنولد ولسن[٣٩] (نائب الحاكم المدني في العراق) حيث قال عنه: « ميال جداً إلى تقليل نفسه وغيره من العالم،... كما إنه لم يكن محظوظاً في نسله...، وكانت تنتابه هواجس الادعاء بالسلطة الزمنية التي كانت يعتقد أنها ناشئة عن تفوقه الثيوقراطي[٤٠] » كما وصف الشيخ الشيرازي وأتباعه بالجبن والطائفية، كما أتهم ويلسن الشيخ الشيرازي بأنه يسعى من أجل الحصول على السلطة وأتهم أنصاره بأنهم زوروا توقيعه[٤١].

أما المس بيل فقد وصفت الشيخ الشيرازي، حين وصفته بأنه (رجل خرف عجوز يستولي عليه أبنه محمد رضا بصورة كلية....)[٤٢]، وأيدها في ذلك بعض المؤرخين الأجانب[٤٣]، كما قالت إنها فرحت كثيراً عندما سمعت بنبأ وفاته وأدعت إن وفاته جاءت بسبب (التعفن الشيخوخي)[٤٤]، وهي كلمة قاسية تدل على مدى الشماتة والعداء الذي كان يضمره البريطانيون له بسبب مواقفه ودوره في تأجيج الحماس الوطني لدى الشعب العراقي من الشمال إلى الجنوب ضدهم.

الدور القيادي للشيخ محمد تقي الشيرازي في ثورة ١٩٢٠ منذ اندلاعها حتى وفاته

أن ثورة ١٩٢٠بدأت في ٣٠ حزيران ١٩٢٠ عندما القت السلطات البريطانية القبض على شيخ عشيرة الظوالم في الثلاثين من الشهر ذاته (شعلان أبو الجون) وقامت عشيرته بدورها الهجومي على السراي البريطاني بالقوة المسلحة وقتلت عدداً من الجنود البريطانيين، ثم انتشرت الثورة إلى بقية مناطق الفرات الأوسط ومن ثم إلى أنحاء واسعة من العراق، وقد ورد أسم (شعلان أبو الجون) في المؤتمر الذي عقد في مدينة كربلاء بتاريخ ٤ أيار ١٩٢٠ (١٥ شعبان

١٣٣٨هـ)[٤٥].

لم يكن يوم الثلاثين من حزيران هو ساعة الصفر التي كان يريدها الشيخ الشيرازي لإعلان الثورة بسبب عدم أخذ الاستعدادات الكافية لها وقد أثبتت الأحداث اللاحقة هذه الحقيقة، حيث جرت المعارك في منطقة السماوة لعدة أيام، كان ذلك يعني قدرة القوات البريطانية على قمع الثورة بسهولة فيما لو ظلت المعارك الطاحنة محصورة في تلك المنطقة فقط، لذلك قرر الشيخ الشيرازي التوسط لإيقاف القتال لكي يؤمن للثورة المزيد من التعبئة العسكرية والشعبية وتوحيد العشائر التي كانت على خلاف فيما بينها[٤٦]، فأرسل الشيرازي مبعوثين إلى بغداد هما (هبة الدين الشهرستاني وأحمد الخراساني) لمقابلة (ويلسن)[٤٧]، الذي وافق على إجراء المفاوضات لكسب الوقت وتعزيز القدرات العسكرية البريطانية من جانبه أيضاً[٤٨].

وضع مبعوثا الشيخ الشيرازي شرطين لإيقاف القتال هما:

سحب القوات البريطانية من مناطق القتال.

إعلان العفو العام وإطلاق سراح المنفيين وعودته إلى ديارهم[٤٩].

كان قبول البريطانيين بهذه الشروط يعني أنتصاراً سياسياً كبيراً للشيرازي وبقية الزعماء الوطنيين، تماماً كما حصل قبل عام من قيام الثورة عندما هدد الشيرازي بالذهاب إلى إيران على أثر أعتقال أعضاء من (الجمعية الوطنية الإسلامية) فاضطرت السلطات البريطانية آنذاك إلى أطلاق سراحهم. غير أن البريطانيين لم يقبلوا بهذه الشروط وأنتهت المفاوضات بالفشل[٥٠]، عند ذلك أصدر الشيخ الشيرازي فتواه الشهيرة التي نصت على أن (مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين ويحق لهم ضمن مطاليبهم رعاية السلم والأمن، ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية إذا أمتنع الأنكليز عن قبول مطاليبهم)[٥١]. لم تكن هذه الفتوى مؤرخة، لكن الراجح أنها صدرت في المدة الواقعة ما بين (٧- ١٤) تموز

١٩٢٠، لأن الفتوى صدرت بعد معارك الرميثة التي بدأت في ٣٠ حزيران ١٩٢٠م، واستمرت لعدة أيام وقبل الأجتماع الذي عقد في منطقة الشامية بين زعماء العشائر والقادة البريطانيين في ١٥ تموز من السنة ذاتها، وعلى أي حال فأن هذه الفتوى وضعت حداً نهائياً للحل السلمي بين الشعب العراقي والسلطات البريطانية، وعلى أثر ذلك انتشرت الثورة في أغلب مناطق العراق الأخرى وعلى ثلاث مراحل.

مراحل انتشار الثورة:

المرحلة الأولى: أمتدت الثورة من الرميثة إلى مناطق الشامية والحلة والكوفة على أثر فتوى الشيرازي وذلك بعد أثني عشر يوماً من أبتداء المعارك في الرميثة.

المرحلة الثانية: امتدت الثورة إلى مناطق الديوانية والناصرية بعد الأنتصار الكبير في معركة (الرارنجية) في ٢٤ تموز ١٩٢٠، كما أخرج الحكام السياسيين البريطانيين بالقوة من مدن كربلاء والنجف وما حولهما بعد وصول مبعوثين للشيرازي إلى هذه المناطق للتحريض على الثورة ونشر فتواه.

المرحلة الثالثة: أنتشرت الثورة في مناطق الفرات الأعلى (الرمادي) ومناطق عشائر الدليم، والمناطق الكردية.

ففي منطقة الشامية كان هناك نزاع عشائري بين عشائر الخزاعل وعشائر بني حسن، فتدخل الشيخ (عبد الواحد الحاج سكر) لفض النزاع بين الطرفين وتم عقد الصلح بينهما[٥٢].

وبعد صدور فتوى الشيرازي الأخيرة، حاول البريطانيون إقناع زعماء عشائر النجف والشامية بنبذ هذه فكرة الثورة المسلحة، فعقدوا اجتماعا مع هؤلاء الزعماء في منزل الشيخ (مرزوق العواد) في منطقة الشامية في الخامس عشر من تموز ١٩٢٠م (٢٨ شوال ١٣٣٨هـ) حضره حاكم النجف والشامية الميجر (نوربري)[٥٣]، فعرض

عليه زعماء العشائر شروطاً لإيقاف القتال هي:

منح الاستقلال التام للبلاد وتشكيل حكومة وطنية مستقلة.

إطلاق سراح المُبعدين، وعلى رأسهم نجل الشيخ الشيرازي (محمد رضا).

رفع مراكز المراقبة والتفتيش والثكنات العسكرية البريطانية في منطقة الفرات الأوسط.

لكن البريطانيين رفضوا تلك الشروط وأضطر الكابت (مان)، أحد القادة العسكريين البارزين في منطقة الشامية إلى الإنسحاب منها إلى الكوفة[٥٤]، بعد تهديد أحد شيوخ بني حسن وهو (خادم الغازي) الذي قال: (إننا تعاهدنا وتحالفنا أمام آية الله الشيرازي... إن نبذل كل ما في وسعنا في سبيل قضية بلادنا.... إن على الكابتن مان أن يخرج من الشامية من رضاه أو بالقوة...)[٥٥]، وبعث زعماء العشائر في منطقة الشامية رسالة إلى الشيخ الشيرازي تروي له تفاصيل ما حدث وإن الوضع الأمني هو بين الأستسلام لهم أو الحرب ضدهم، فكتب الشيرازي في جوابه لهم (إذا أصر الانجليز على غصبكم حقكم وقابلوا التماسكم بالحرب فيجب عليكم الدفاع بجميع قواكم ويحرم لهم الاستسلام)[٥٦].

أضطر العديد من زعماء العشائر على أثر تلك الفتوى إلى أعلان الثورة ضد البريطانيين لأن ضغط الرأي العام كان أُقوى من أن يقاوم، فزعيم العشيرة يفقد مكانته وسمعته إذا رفض العمل بفتوى المرجع الأعلى، ومن هنا نستطيع القول أنه لولا فتوى الشيخ الشيرازي لم يستطيع زعماء آل فتله المعروفون بعدائهم للبريطانيين الثورة ضدهم، إذا كان بإمكان البريطانيين إثارة العشائر المناوئة لهم وأسرع خادم الغازي مع أتباعه وأستولوا على مخفر (أبو شورة) وتمكنوا من الاستيلاء على أسلحته، وتبعتهم العشائر الأخرى في المنطقة[٥٧].

كانت أهم المعارك التي خاضها الثوار وانتصروا فيها على القوات

البريطانيـة فـي ٢٥ تمـوز ١٩٢٠ هـي معركة الرارنجية (الرستمية) التي جرت في شمال ناحيـة الكفـل، وفيهـا تكبـد البريطـانيين خسـائر فادحـة بـالأرواح والمعدات[٥٨].

أما في مدينة كربلاء وهي من أهم مراكز الثـورة، كونهـا مقـر زعـيم الثـورة الشـيخ الشـيرازي فقـد وقعـت هـذه المدينة تحت سيطرة الثـوار بعـد معركـة الرارنجيـة، حيـث ثـار الأهـالي ضـد البريطـانيين الـذين تـأزم مـوقفهم[٥٩]، واضطروا إلـى الانسـحاب مـن المدينـة التـي رفـع علـم الثـوار فيهـا علـى دار بلـديتها، وقـد حـاول حـاكم المدينـة (محمـد البوشـهري) أن يتحصـن فـي السـراي بحمايـة الشـرطة ريثمـا تأتيـه النجـدة مـن بغـداد[٦٠]، غيـر إن رجـال الشـــرطة انقلبـــوا عليـــه فأضـــطر (البوشهري) ومدير شرطته إلـى الفـرار إلى المسيب التـي كانـت مرابطـة فيهـا قوات بريطانية، ومنها توجه إلى بغـداد، وعندما سيطر الثوار على مدينة كـربلاء أجتمـع عـدد مـن الزعمـاء فـي منـزل الشيخ الشيرازي وتداولوا قضـية تنظـيم إدارة المدينة وتم الاتفاق على تشـكيل ثلاثـة مجـالس رئيسـية لإدارة وتسـيير أمور المدينة.

المجـالس المشـكلة لإدارة أمـور اكربلاء:

١. المجلـس العلمـي: ويمكـن اعتباره المجلس السياسـي والإعلامـي للثورة، ومن مهماته هي بث الثورة بين طبقـات النـاس المختلفـة فـي المـدن ومناطق العشائر بلـزوم الاشـتراك فـي الثـورة، وتوسـيع نطـاق العمـل وتوجيـه الإرشادات الدينية فيما يخـص الثـورة، كمـا يشـرف علـى المجـالس الأخـرى. وأنتخب السيد محمد علي هبـة الـدين الشهرستاني رئيساً لهـذا المجلـس[٦١]، أمـا بقيـة أعضـائه فهـم: أبـو القاسـم الكاشـــاني[٦٢] وأحمـــد الخراســـاني وحســين القزوينـي وعبـد الحسـن الشيرازي (نجل الشيخ الشيرازي)[٦٣].

٢. المجلـس المحلـي: ويمكـن أعتبـاره المجلـس الـوطني لـلأدارة العامة، ومن أبرز مهمات هذا المجلس هو ترشيح الموظفين وجباية الضـرائب

والرسوم وتوزيعها للصرف بحسب ما تقتضيه الأمور، والعناية بالصحة العامة وحسم الدعاوى وتأمين الطرق القريبة من كربلاء والقيام بواجب الإدارة، وكان الشيخ محمد حسن أبو المحاسن هو ممثل الشيرازي في هذا المجلس، أما بقية أعضائه فأبرزهم: عبد الوهاب الوهاب وأحمد الوهاب وهادي الحسون وعبد علي الحميري وإبراهيم الشهرستاني وغيرهم[٦٤].

٣. المجلس الحربي: وأبرز مهماته هي تنظيم الخطط العسكرية وقيادة الثوار وتنظيمهم وتعيين قادة الحملات في الهجوم والدفاع، أما أعضاءه فأبرزهم: علوان الياسري وعبد الواحد الحاج سكر ومجبل آل فرعون وشعلان الجبر ورابح العطية وغيرهم[٦٥]، كما كان هناك مجلس خاص بجمع الأغاثات لتمويل المعوزين من الثوار، وأعضاءه: عيسى البزاز ومحمد رضا فتح الله وحيدر القصاب والحاج قندي[٦٦]، وكانت هذه المجالس تعمل جميعها بأشراف الشيخ الشيرازي حتى وفاته، وقام المجلس الملي (الوطني) بتعيين مدير لشرطة الخيالة وهو (سمرمد آل هتيمي) وهو أحد رؤساء عشائر المسعود في كربلاء، وتم تعيين (عبد الرحمن العواد) مدير شرطة المشاة، فضلاً عن تعيين حراس وموظفين في البلدية وكتاب وجباة[٦٧].

أقتدت النجف بما جرى في كربلاء بتشكيل إدارة محلية[٦٨]، بمساعدة العلماء والشخصيات البارزة في المدينة ومنهم الشيخ عبد الكريم الجزائري، الشيخ جواد صاحب الجواهر، جعفر أبو التمن، عبد المحسن شلاش، مهدي الخراساني (نجل الشيخ محمد كاظم الخراساني) وقررت اللجنة تشكيل مجلسين[٦٩]، مجلس تشريعي وعدد أعضائه ثمانية ينتخب عن كل محلة في النجف أثنان، ومجلس تنفيذي يكون عدد أعضائه أربعة هم رؤساء المحلات الأربعة في المدينة[٧٠]. وهي طرف المشراق وطرف العمارة وطرف الحويش وطرف البراق[٧١].

كان للشيرازي دور قيادي كبير في الثورة حتى إنه أشرف على الخطط

العسكرية وكان يقترح بعضها ففي إحدى المرات أوفد أحد مساعديه إلى الثوار في منطقة (الوند) (وهي قرية صغيرة تقع على طريق كربلاء - بغداد) ليعرض عليهم رغبته بإرسال قوة لقطع المواصلات بين بغداد والحلة[٧٢]، كما كانت الرسائل التي يبعثها الشيرازي إلى قادة الثوار العسكريين تتضمن الغازاً متفق عليها بين الطرفين مسبقاً خوفاً من وقوعها بأيدي البريطانيين أو عملائهم وبالتالي تصبح حركات الثوار معروفة، وأتضح ذلك من خلال الرسائل التي بعثها الشيرازي بواسطة أحد معتمديه وهو السيد هبة الدين الشهرستاني في ٩ آب ١٩٢٠[٧٣]، كما تابع أخبار الثورة في المناطق الأخرى، فعندما تقهقر الثوار في الحلة أرسل السيد هبة الدين الشهرستاني للوقوف على حقيقة الأمر[٧٤]، وفي الوقت ذاته أرسل علوان الياسري رسالة إلى الشيخ الشيرازي يشرح فيها الوضع العسكري للثوار في الحلة[٧٥].

أمتدت الثورة إلى مدينة الديوانية في ٣٠ تموز عندما ثارت عشيرة (الأقرع) ضد البريطانيين[٧٦]، وكان من أبرز زعماء هذه العشيرة الشيخ (سعد) والشيخ (مخيف) وأعتقل البريطانيون الأخير ؛ لصلته الوثيقة بالعاملين في المجال السياسي الوطني في مدينتي كربلاء والنجف[٧٧]، ثم قاموا بنفيه إلى البصرة ومن هناك تم تسفيره إلى جزيرة هنجام[٧٨]، ثم ثارت مناطق (عفك) بزعامة الشيخ (صلال الموح)، وهكذا أصبحت كل مناطق الديوانية ممثلة بالعشائر الثائرة التي دفعت القوات البريطانية إلى الانسحاب من تلك المدينة[٧٩]. كما وصلت فتاوى الشيخ الشيرازي إلى المناطق الغربية من العراق بواسطة مبعوثه السيد (جدوع أبو زيد) الذي سافر إلى الفلوجة في ٢٣ تموز والتقى هناك برئيس عشائر الجنابيين (خضير الحاج عاصي) الذي كانت له اتصالات سابقة مع رجال الثورة في الفرات الأوسط[٨٠]، وأصطحب الشيخ خضير مبعوث الشيرازي إلى بقية عشائر المنطقة ومنها البونمر وزوبع والدليم، وكان أهم شخصية التقى بها أبو زيد هي الشيخ (ضاري المحمود)

رئيس عشيرة زوبع الذي كان له اتصالات كثيرة مع زعماء الفرات الأوسط، ولاسيما عبد الواحد الحاج سكر، وعندما أطلع الشيخ ضاري على صورة فتوى الشيخ الشيرازي ورسالته زاد حماسه للثورة قائلاً: « يشهد الله تعالى على أنني عربي مسلم وقد عاهدته وأنت من الشاهدين (يقصد أبي زيد) على أن عليّ أن أبذل الغالي والنفيس في سبيل إنقاذ بلدي من الإنكليز وليعلم العلماء والزعماء من أخواني أنني سأقوم بأدوار يسجلها التاريخ بعد أن يسمعونها فترضي الله والناس »[٨١].

كما راسل زعماء الثورة في كربلاء وأنتقل بعدها إلى منطقة النعيمية ومنطقة خان العطيشي الواقعة بين كربلاء والمسيب لمقاومة البريطانيين[٨٢].

كما وصل مبعوث الشيرازي (أبو زيد) إلى مناطق جنوب بغداد مثل المحمودية واليوسفية في ٢٨ تموز، كذلك منطقة (عويريج) وكان لأبناء هذه المناطق أتصالات سابقة مع السيد (هبة الدين الشهرستاني) وهو أحد وكلاء الشيخ الشيرازي حيث أرسل الشهرستاني عدة رسائل لعشائر هذه المناطق يحثهم فيها على الوحدة والثورة ضد بريطانيا[٨٣]، وطرد موظفيها وتخريب طرق مواصلاتها التي كانت تستخدمها لنقل الأسلحة والأعتدة خلال الثورة[٨٤].

ومن الجدير بالذكر أن (المس بيل) أجتمعت بمجموعة من علماء السنة والشيعة من أهل بغداد وطلبت منهم تشكيل وفد منهم للتوجه إلى مدينتي النجف وكربلاء للتفاهم مع رجال الدين في هاتين المدينتين لإيقاف العمليات العسكرية للثوار، وهذا يدل على مدى الضغط الذي عاناه البريطانيون من جراء الثورة[٨٥].

وأجمالاً يمكن القول، كانت لفتوى الشيخ الشيرازي تأثيراً فاعلاً على أغلب المناطق القريبة من بغداد سواء كانت هذه المناطق شمال بغداد أو جنوبها، وقد قال البازركان بصدد ذلك: « تأثرت العشائر التي تقطن أطراف بغداد بفتوى الإمام الشيرازي فأخذت تشن الهجوم

تلو الهجوم على ضواحي بغداد، الأمر الذي جعل الإنكليز ينشؤون الحصون والمواقع للمحافظة على المدينة، وكنت أشاهد بنفسي قنابل التنوير يطلقها الانكليز ليلاً في أطراف المدينة للكشف عن أماكن الثوار أينما وجدوا »[٨٦].

كما اندلعت الثورة في مناطق ديالى التي سقطت بأيدي الثوار في ١٢ آب[٨٧]، وأمتد نطاق الثورة إلى مدينة الناصرية والمناطق القريبة منها في ١٥ آب وأضطر الحكام السياسيون البريطانيون إلى الهرب منها[٨٨]، كما اندلعت الثورة في مناطق كردستان ولاسيما في (خانقين) والمناطق القريبة منها ومناطق أخرى عديدة[٨٩].

كان للثوار اتصالات مع الخارج على المستوى الإقليمي ولاسيما مع العراقيين الموجودين في سوريا والذين كانوا إلى جانب أشقائهم السوريين وحكومة الملك فيصل بن الحسين في دمشق التي سقطت في ٢٥ تموز ١٩٢٠[٩٠].

وقد كتب العراقيون الموجودون في منطقة (دير الزور) السورية إلى قادة الثورة في الفرات الأوسط وبغداد، رسالتين طلبوا فيهما المساعدة المالية منهم كانت الرسالة الأولى معنونة إلى (علي البازركان)، والثانية معنونة إلى (ميرزا كاشان)، كانوا يقصدون الشيخ الشيرازي[٩١]. حيث وصلت هذه الرسالة إلى كربلاء مع مبعوث أسمه (سلمان الجنابي) والذي جاء من دير الزور ووصل إلى كربلاء عن طريق البادية، ذكرت بعض المصادر عن هذه الرسالة أنها كانت مؤرخة في يوم ١٧ آب ١٩٢٠[٩٢]، ويبدو تاريخ وصولها غير دقيق لكونه صادف يوم وفاة الشيرازي إذ لا بد أن يكون تاريخ الرسالة قبل ذلك التاريخ بيوم أو بعدة أيام.

وعلى أية حال فبعد وصول هذه الرسالة إلى الشيخ الشيرازي أحالها إلى بقية قادة الثورة والذين اجتمعوا لمناقشة الأمر وأبدى عدد منهم موافقتهم على إرسال الأموال إلى دير الزور ومنهم: جعفر أبو التمن، قاطع العوادي، جدوع أبو زيد، محمد رامز،

عارف حكمت[٩٣].

لكن محسن أبو طبيخ رفض هذه الفكرة وأتهم الأهالي دير الزور بموالاتهم للعثمانيين، كذلك أتهموا بالعمل مع الثوار كموظفين وليسوا مقاتلين وبالتالي فأنهم أرادوا بتلك الأموال لأخذها كرواتب لهم، ولذلك قال محسن أبو طبيخ: «.... ولأجل هذا لا يعني أني أقدم شيئاً من مالي لأناس لا أعترف بصدق وطنيتهم في العمل.... »[٩٤].

أما أهم الاتصالات مع الخارج على المستوى الدولي في تلك المرحلة العصيبة من أيام الثورة عندما بعث الشيخ الشيرازي رسالة إلى جمعية (عصبة الأمم) في جنيف بتاريخ ١٢ آب ١٩٢٠م (٢٧ ذي القعدة ١٣٣٨هـ)، وذكر الشيرازي في تلك الرسالة بوعود الحلفاء بمنح العراق الاستقلال في إدارة شؤونه وتدبير مصالحه العامة بنفسه، غير إن المحتلين البريطانيين نكثوا بوعودهم وقابلوا الشعب العراقي بالقتل والتنكيل (عند ذلك قام العراقيون مدافعين عن أنفسهم وشرفهم، بعد أن يئسوا من أصغاء حكومة بريطانيا لهم حتى للتفاهم معهم بصورة سليمة).

وأختتم الشيخ الشيرازي رسالته بالقول (وبصفتكم ناصري الضعيف جئنا بهذه النبذة اليسيرة، نعلمكم موقف حكومة بريطانيا بالعراق فنستجير بمن يمثل العدل، فأنقذوا أمة تأبى أن تعيش دون أن تأخذ حقها الصريح المعترف به ودمتم بأحترام)[٩٥].

في غمرة أحداث الثورة توفي الشيخ الشيرازي في السابع عشر من آب ١٩٢٠ م (١٣ ذي الحجة ١٣٣٨هـ) ويقال إنه اغتيل بالسم على أيدي عملاء بريطانيين[٩٦][٩٧]، وأصدر شيخ الشريعة الأصفهاني الذي تولى المرجعية بعد وفاة الشيخ الشيرازي بياناً في ذات اليوم، أي في ١٧ آب، موجهاً إلى الأمة الإسلامية بصورة عامة والشعب العراقي بصورة خاصة، ينعى فيه الشيخ الشيرازي جاء فيه: « أما بعد فأنا أعزيكم وكافة الموحدين بفقد عميد المسلمين آية الله العظمى

الميرزا قدس الله نفسه المقدسة، فقد قضى نحبه والتحق بربه بعد أن أدى حق وظيفته وقام بها حسب طاقته، فلا تكن رحلته فتوراً في عزائمكم وتوانياً في عملكم فالجد الجد حماة الدين وأعضاء المسلمين النشاط النشاط.... »[٩٨].

كما أصدر السيد هبة الدين الشهرستاني بياناً نعى فيه الشيخ الشيرازي جاء فيه:

« نعزيكم وعامة العالم الإسلامي بوفاة حجة الإسلام ورئيس العلماء والأعلام، ركن النهضة العربية وروح الحركة الإسلامية الشيخ الميرزا محمد تقي الشيرازي قدس الله روحه ونور ضريحه فقد أفلت شمس حياته القدسية عند أفول شمس الثلاثاء ثالث ذي الحجة ١٣٣٨هـ »[٩٩].

وكان يوم وفاته مشهوداً حيث حضر عدد كبير من العلماء ورجال الدين ورؤساء العشائر، فجرى له تشييع كبير، ودفن في الصحن الحسيني الشريف في مدينة كربلاء وأقيمت له مجالس الفاتحة لأيام وشهور عديدة في كثير من مدن العراق وإيران[١٠٠].

ورثاه العديد من الشعراء من أبرزهم (محمد محسن أبو المحاسن) جاء في بعض أبياته:

يا غلة الأحشاء غاض المورِدُ
يا أزمة الأيام غاب المنجِدُ
لا نجده للمستغيث ولا روى
يشفي غليل حشاشة يتوقدُ
يا آية الله المقدسة التي
أمست بها الملائك تصعدُ
غادرتنا والخطب داج ليلةً
واليوم من صبغ الحوادث أسودُ
ساروا بنعشك والدموع سواجمٌ
تهوى وأنفاس الجوى تتصعدُ
إن العراق لشاكر لك نعمة
عنها يقصر واصفٌ ومعددُ
ان المؤسس نهضة دينية
عربية وفيها العلا والسؤددُ[١٠١]

كما رثاه الشاعر الحاج عبد الحسين الأزري في حفل تأبين أقيم له في مدينة الكاظمية:

منحاك عز على العراق الدامي
وأمضه يا خادم الإسلام
صدع القلوب حديث نعيك مد
خلت دار حميت ذكارها من حام
كادت تفنده المسامع خشية
من عبئه بقوادح الآلام
حتى إذا حق المصابُ استسلمت
ليد الكوارث أيما أستسلام
أقدس يوم قمت فيه مدافعاً
عن حقه المغصوب خير قيام[١٠٢]

الخاتمة:

يتضح مما سبق أن الشيخ محمد تقي الشيرازي نشأ نشأة فكرية وسط أسرة تهتم بالعلم والمعرفة، وكانت الهجرات غير القليلة التي قام بها الشيرازي، الهدف الرئيس من ورائها هو الدراسة والعلم أبتداءً من هجرته الأولى من شيراز إلى مدينة كربلاء ومن ثم من كربلاء إلى سامراء ومن ثم إلى النجف، ومن ثم رحيله واستقراره في كربلاء حتى وفاته فيها.

كما كان الشيخ الشيرازي سياسياً بارعاً، فقد أستطاع الضغط على البريطانيين بشكل كبير ليس في داخل العراق فحسب، كذلك راسل الشيخ الشيرازي الرئيس الأمريكي (ويلسن) لأن الشيخ الشيرازي كان يعتقد إن بإمكان استغلال نفوذ الدول الكبرى ولاسيما الولايات المتحدة الأمريكية التي رفعت آنذاك شعار (منح الشعوب حق تقرير المصير) من أجل الضغط على البريطانيين مما دفعهم إلى السعي إلى كسب الشيخ الشيرازي إلى جانبهم محاولين استرضاءه إلا إنهم لم يفلحوا في ذلك.

كان الشيخ الشيرازي حريصاً أشد الحرص على دماء الناس، فعلى الرغم من مساوئ الاحتلال البريطاني إلا إنه لم يجيز استخدام القوة والسلاح ضد الاحتلال البريطاني، بل أتبع كل الوسائل والسبل السلمية من أجل نيل حقوق الشعب العراقي قبل اللجوء إلى الاعتقال وأتضح ذلك في معظم رسائله التي أرسلها إلى الزعماء ورجال العشائر والقوى الوطنية حيث أكد فيها ضرورة

المحافظة على السلم والأمن.

كان الشيخ الشيرازي يحترم رأي الأغلبية وأجماع الأمة، وأبرز مثال على ذلك هو عندما كانت للشيرازي تحفظات على تولي أحد أنجال الشريف حسين عرش العراق بدليل أن الشيرازي لم يكن من الموقعين على المضبطة التي كتبها الكربلائيون في منزل الشيرازي أن هناك شبه أجماع عراقي على تولي عرش العراق أحد الهاشميين في الحجاز، بدّل رأيه وأيد هذا الرأي بدليل المراسلات الكثرة التي جرت بينه وبين نجله من جهة وبين أبناء الأسرة الهاشمية في الحجاز من جهة أخرى.

قائمة المراجع:

أولاً: المخطوطات:

١. محمد الخالصي، بطل الإسلام، سيرة حياة والد، محفوظة لدى مكتبة الكاظمية العامة، بغداد.

ثانياً: الرسائل والأطاريح:

١. ناهدة حسين علي ويسن، تاريخ النجف في العهد العثماني الأخير، (١٨٣١- ١٩١٧)، أطروحة دكتوراه (غير منشورة) كلية التربية، أبن رشد، جامعة بغداد، ١٩٩٩م.

ثالثاً: المذكرات الشخصية:

١. سندرسن باشا، مذكرات سندرسن باشا، طبيب العائلة الملكية في العراق ١٩١٨- ١٩٤٦، ترجمة سليم طه التكريتي، الطبعة ٢، بغداد - ١٩٨٢.

٢. محمد علي كمال الدين، مذكرات السيد محمد علي كمال الدين، من رجال الثورة العراقية، تقديم وتعليق كامل سلمان الجبوري، الطبعة ١، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٨٦.

رابعاً: الكتب العربية والمعربة:

١. أرنولد ويلسن، الثورة العراقية، ترجمة وتعليق جعفر الخياط، الطبعة الثانية، دار الرافدين للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٤.

٢. أغا بزرك الطهراني، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، الجزء الثالث عشر، الطبعة الثانية، مطبعة القضاء، النجف، ١٩٥٩.

٣. أغا بزرك الطهراني، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، الجزء السادس، الطبعة الأولى، جانجانة باتك علي إيران، طهران، ١٩٤٥م.

٤.....، طبقات أعلام الشيعة. نقباء البشر في القرن الرابع عشر، الجزء الأول، النجف، ١٩٥٤م.

٥.....، هدية الرازي إلى الأمام المجدد الشيرازي، النجف، ١٩٦٦.

٦. البرت نتشاشفيل، العراق في سنوات الانتداب البريطاني، ترجمة هاشم صالح التكريتي، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٧٨م.

٧. حسن الصدر، تكملة أمل الأمل، تحقيق السيد أحمد الحسيني، أهتمام السيد محمود

المرعشي، بيروت، ١٩٨٦.
٨. خضر عباس الصالحي، شاعرية أبي المحاسن، الطبعة الأولى، مطبعة الآداب، النجف، ١٩٦٥.
٩. سلمان هادي آل طعمة، تراث كربلاء، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٣.
١٠.....، معجم رجال الفكر والأدب في كربلاء، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٠م.
١١. شهاب الدين المرعشي، الأجازة الكبيرة، قم، ١٩٩٣م.
١٢.....، المسلسلات من الأجازات، قم، ١٩٩٥.
١٣. عباس الرائدي، حوادث الأيام، الجزء الأول، تحقيق أحمد محمد رضا الحائري، قم، ٢٠٠٠م.
١٤. عباس محمد كاظم، ثورة الخامس عشر من شعبان (ثورة العشرين)، الطبعة الأولى، بلا مطبعة، ١٩٨٤.
١٥. عبد الله الفياض، الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠، الطبعة الثانية، مطبعة دار السلام، بغداد، ٢٠٠٢م.
١٦. عبد الرحيم محمد علي العقيقي البخشايشي، كفاح علماء الإسلام في القرن العشرين، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٢م.
١٧. عبد الرحيم محمد علي، المصلح المجاهد الشيخ محمد كاظم الخراساني، الطبعة الأولى، مطبعة النعمان، النجف، ١٩٧٢م.
١٨. عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، الطبعة الثانية، ١٩٦٥م.
١٩.....، العراق في دوري الاحتلال والانتداب، الجزء الأول، صيدا، ١٩٣٥م.
٢٠. عبد الرزاق عبد الدراجي، جعفر أبو التمن ودوره في الحركة الوطنية في العراق، الطبعة الثانية، بغداد، ١٩٨٠.
٢١. عبد الشهيد الياسري، البطولة في ثورة العشرين، النجف، ١٩٦٦م.
٢٢. عدنان إبراهيم السراج، السيد محسن الحكيم ١٨٨٩- ١٩٧٠، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٣م.
٢٣. علي البازركان، الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية، مطبعة أسعد، (بغداد – ١٩٥٤م).
٢٤. علي الوردي، لمحات أجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء الثالث والخامس، القسم الأول، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٧٧م.
٢٥. فريق المزهر آل فرعون، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية في ١٩٢٠ونتائجها، الطبعة الثانية، مطبعة النجاح، بغداد، ١٩٩٥م.
٢٦. فؤاد قزايني، العراق في الوثائق البريطانية ١٩٠٥- ١٩٣٠،، بغداد، ١٩٨٨.
٢٧. فيليب ويلارد أيرلاند، العراق – دراسة في تطوره السياسي، ترجمة جعفر ألخياط، بيروت، ١٩٤٩م.
٢٨. كاظم المظفر، ثورة العراق التحريرية عام ١٩٢٠، الجزء الأول، النجف، ١٩٦٩م.
٢٩. (ل. ن) كوتولوف، ثورة العشرين الوطنية التحريرية في العراق، ترجمة عبد الواحد كرم، الطبعة الثالثة، بغداد، ١٩٨٥م.
٣٠. لجنة إحياء تراث الإمام الشيرازي، في رحاب قائد ثورة العشرين الإمام الميرزا محمد تقي الشيرازي، الطبعة الأولى، كربلاء، ٢٠٠٤.

٣١. محمد التنوجي، المعجم الذهبي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٦٩م.
٣٢. محمد حرز الدين، معارف الرجال في تراجع العلماء والأدباء، الجزء الثاني والثالث، النجف، ١٩٦٤م.
٣٣. محمد الحر العاملي، وسائل الشيعة، الجزء الخامس، بيروت، ١٩٧١م.
٣٤. محمد الحسيني الشيرازي، تلك الأيام – صفحات من تاريخ العراق السياسي، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٠م.
٣٥. محمد مهدي البصير، تاريخ القضية العراقي، الجزء الأول، بغداد، ١٩٢٤م.
٣٦. محمد يوسف إبراهيم القريشي، المس بيل وأثرها في السياسة العراقية، بغداد، ٢٠٠٣م.
٣٧. المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ترجمة وتعليق: جعفر الخياط، الطبعة الثانية، بيروت، ٢٠٠٤م.
٣٨. مكتب منابع الثقافة الإسلامية، كربلاء المقدسة تفجر ثورة العشرين، الكتاب الخامس، النجف، ١٩٦٨م.
٣٩. مير بصري، أعلام الأدب في العراق الحديث، لندن، ١٩٩٩م.
٤٠. نور الدين الشهرودي، أسرة المجدد الشيرازي، طهران، ١٩٩١م.

خامساً: المصادر والكتب الأجنبية:

أ. المصادر الفارسية:

١. مرتضى أنصاري، زندكاني وشخصيت شيخ أنصاري، جاب سوم، قم، ١٩٨٩م.

ب. المصادر الإنكليزية:

١. Elizabeth Burgoyne (ed) Gertrude Bell from her Personal papers ١٩١٤– ١٩٢٠، London، Ernest، Bennl، ١٩٦١.

ساساً: الصحف والمجلات:

أ. الصحف:

١. لواء الاستقلال، العدد ١٠١٧، السنة الرابعة، بغداد، ٢/٧/ ١٩٥٠م.
٢. المجتمع، العدد ١٢١، كربلاء، ٢٩/ ٦/ ١٩١٧م.

الهوامش

[١] الميرزا: لقب فارسي يطلق على الشخص الذي يولد من أم علوية، وقديماً كان يطلق على أبناء الملوك، ينظر: محمد التونجي، المعجم الذهبي، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٩، ص٥٥٣.

[٢] كُلشن: كلمة فارسية تعني روضة الأزهار، وهو البستان الذي تكثر فيه الأزهار. ينظر: المصدر نفسه، ص٥٠٨.

[٣] الحائري: نسبة إلى الحائر الحسيني، وهو حرم الأمام الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) في مدينة كربلاء، ويطلق على المدينة بأجمعها فيقال لساكنها بالحائري لأنه نشأ في كربلاء. ينظر: محمد الحر العاملي، وسائل الشيعة، الجزء الخامس، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص٥٤٣.

[٤] أغا بزرك الطهراني، طبقات أعلام الشيعة، نقباء البشر في القرن الرابع عشر، الجزء الأول، النجف، ١٩٥٤، ص٢٦١ ؛ خير

الدين الزركلي، الأعلام، المجلد السادس، الطبعة السابعة، بيروت، ١٩٨٦، ص٦٣ ؛ بسام عبد الوهاب، معجم الأعلام، الطبعة الأولى، قبرص – ١٩٨٩، ص٦٨٨ ؛ سلمان هادي آل طعمة، تراث كربلاء، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٨٣، ص٢٩١.

[٥] نور الدين الشهرودي، أسرة المجدد الشيرازي، طهران، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م، ص١٨٣.

[٦] أغا بزرك الطهراني، هدية الرازي إلى الإمام المجدد الشيرازي، النجف الأشرف، ١٣٨٦هـ/ ١٩٩٦م، ص٦ ؛ كذلك محمد الحسيني الشيرازي، المصدر السابق، ص١٥.

[٧] جزيرة هنجام: جزيرة صخرية موحشة في الخليج العربي، لا تبعد كثيراً عن المضايق، أما حالتها الجوية فحرارتها مرتفعة وتزداد فيها نسبة الرطوبة، وتكثر فيها الحشرات، ينظر: فيليب ويلارد أيرلاند، العراق، دراسة في تطوره السياسي، ترجمة جعفر خياط، بيروت، ١٩٤٩، ص ٢٠٥.

[٨] عباس الحائري، حوادث الأيام، الجزء الأول، قم، ٢٠٠٠، ص٤٤٣.

[٩] المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ترجمة وتعليف جعفر الخياط، الطبعة الثانية، دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤م، ص٤٤٣.

[١٠] المس بيل: موظفة بارزة في المخابرات البريطانية التي عملت في العراق، رفعت تقارير إلى حكومة الهند البريطانية بصورة مستمرة تناولت فيها: أحوال العراق خلال مرحلة الأحتلال البريطاني للعراق. للمزيد ينظر: محمد يوسف إبراهيم القريشي، المس بيل وأثرها في السياسية العراقية،، بغداد، ٢٠٠٣.

[١١] المس بيل، فصول من تاريخ العراق، ص٤٤٠.

[١٢] سيد مهدي الشيرازي: ولد سنة ١٨٨٦م /١٣٠٤هـ في كربلاء، درس في عدة أماكن وأصبح أحد علماء الدين البارزين في العراق، للمزيد من التفاصيل ينظر: محمد حرز الدين، معارف الرجال في تراجم العلماء والأدباء، النجف الأشرف، ١٩٦٥م، ص ١٦٦- ١٧١.

[١٣] أغا بزرك الطهراني، هدية الرازي، ص٦.

[١٤] نور الدين الشهرودي، المصدر السابق، ص١٩٢

[١٥] المصدر نفسه.

[١٦] المصدر نفسه، ص١٩٢.

[١٧] ومن الجدير بالإشارة هنا إن التشابه بالأسماء والكنى قد يوقع البعض في اللبس بين المجتهدين الشيرازيين، السيد الميرزا (محمد حسن الشيرازي)، أغا بزرك الطهراني، هدية الرزاي، ص٦.

[١٨] شهاب الدين المرعشي، الأجازة الكبيرة، قم – ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م، ص١١٧.

[١٩] حسن الصدر، تكملة أمل الأمل، بيروت – ١٩٨٦، ص ٢٤٢ ؛ عبد الرحيم العقيقي البخشايشي، كفاح علماء الإسلام في القرن العشرين، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٢، ص١١٦.

[٢٠] نقلاً عن أغا بزرك الطهراني، طبقات أعلام الشيعة، ص٢٦٢.

[٢١] نور الدين الشهرودي، المصدر السابق،

ص١٨٥.

[٢٢] سلمان هادي آل طعمة، معجم رجال الفكر والأدب في كربلاء، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٠، ص ١٨٧.

[٢٣] شهاب الدين المرعشي، المسلسلات من الأجازات، قم ١٤١٦هـ ١٩٩٥م، ص٩٣ ؛ لجنة أحياء تراث الإمام الشيرازي، في رحاب قائد ثورة العشرين الإمام الميرزا محمد تقي الشيرازي، الطبعة الأولى، كربلاء، ٢٠٠٤، ص ٣٣ ؛ نور الدين الشهرودي، المصدر السابق، ص١٨٦.

[٢٤] وفي هذا السياق فقد روى أحد المقربين من الشيخ الشيرازي أنه كان في قافلة مسافرة من مدينة سامراء إلى بلدة (سيد محمد) وحاول أحد المسافرين إثارة غضب الشيخ الشيرازي، وقد راهن أحد أصدقائه الذين كان معهم على ذلك، فأخذ هذا الرجل يجادل ويناقش الشيخ الشيرازي في المسائل الفقهية والدينية ويخالفه الرأي بعنف وشده، لكن الشيخ الشيرازي لم يغضب لذلك وعند ذلك أبدى الرجل إعجابه واحترامه للشيخ الشيرازي أضعاف ما كان عليه من قبل.

[٢٥] أغا بزرك الطهراني، هدية الرازي.....، المصدر السابق، ص٦، كذلك ؛ محمد الحسيني الشيرازي، المصدر السابق، ص١٧.

[٢٦] لجنة أحياء تراث الإمام الشيرازي، المصدر السابق، ص١٢.

[٢٧] نور الدين الشهرودي، المصدر السابق، ص١٨٨.

[٢٨] السيد محسن الحكيم (١٨٨٩- ١٩٧٠) ولد في النجف الأشرف في بيت علم ودين وتقوى شارك في عمليات الجهادضد الغزو البريطاني عام ١٩١٤م، أصبح مرجعاً أعلى للمسلمين الشيعة عام ١٩٥٢، للمزيد من التفاصيل عن هذه الشخصية ينظر: عدنان إبراهيم السراج، السيد محسن الحكيم (١٨٨٩- ١٩٧٠م)، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٣.

[٢٩] نقلاً عن لجنة إحياء التراث الإمام الشيرازي، المصدر السابق، ص٤٦.

[٣٠] ففي إحدى المرات وبعد أن أتم صلاة المغرب والعشاء في مسجد (السهلة) لم يلبث أن توقف فجأة وكأنه فقد شيئاً يبحث عنه، فسأله أحد الأشخاص من المقربين منه فلم يُجبه الشيخ بل تراجع عن مسيره وأتجه إلى مسجد السهلة ملتفتاً إلى الناس يأمرهم بمواصلة السير، حتى إذا وصل إلى مصلاه أخذ قلمه ومحبرته اللتين نساهما هناك ثم رجع متجهاً إلى مسجد الكوفة، وكان ذلك حرصاً منه إن يقوم هو بمهامه الشخصية ولا يكلف فيها أحداً.

[٣١] لجنة التأبين، المصدر السابق، ص٩٤.

[٣٢] شيخ مرتضى أنصاري، زندكاني وشخصيت شيخ أنصاري، جاب سوم، قم، ١٩٨٩م، ص٤٠٨.

[٣٣] مي بصري، أعلام الأدب في العراق الحديث، لندن – ١٩٩٩، ص٣٦٤.

[٣٤] علي البارزكان، الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية، مطبعة أسعد، بغداد – ١٩٥٤، ص٥.

[٣٥] عبد الشهيد الياسري، المصدر السابق، ص١٣٢.

[٣٦] محمد مهدي البصير، تاريخ القضية العراقية، الجزء الأول، بغداد – ١٩٢٤، ص١٩٠.

[٣٧] عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، الطبعة الثانية، مطبعة العرفان، لبنان – ١٩٦٥، ص٩٦.

[٣٨] عبد الله الفياض، المصدر السابق، ص٢١١.

[٣٩] أرنولد ويلسن ١٨٨٤– ١٩٤٠ عسكري وسياسي بريطاني قدم مع الحملة السعكرية البريطانية إلى العراق عام ١٩١٤ تحت أمرة المقدم برس كوكس وكان ويلسن آنذاك ضابط برتبة نقيب، ثم عين حاكماً عاماً بالوكالة بعد استدعاء بيرسي كوكس وتعينه سفيراً في طهران، أتهمته الصحافة البريطانية بأنه يسعى إلى (تهنيد) العراق أي جعله تابعاً إلى الهند، قتل ويلسن خلال الحرب العالمية الثانية أثناء أدائه للخدمة العسكرية في القوة الجوية البريطانية. ينظر: فؤاد قرانجي، العراق في الوثائق البريطانية (١٩٠٥– ١٩٣٠)، بغداد –١٩٨٩، ص٢٦ ؛ مذكرات سندرسن باشا (طبيب العائلة الملكية في العراق ١٩١٨– ١٩٤٦) ترجمة سليم طه التكريتي، الطبعة الثانية، بغداد – ١٩٨٢، ص ٥٤– ٥٥.

[٤٠] أن العناصر الوطنية والممتزجة بالمرجعية الدينية أمثال عنوان بحثنا لا ترتبي من محتل حرقت أوراقه السياسية العرامية إلى أسعاد شعبه على حساب أبناء الشعب العراقي ومسلمي العالم بأسره على أيدي تلك الثلة المؤمنة فهي لا تقابل بالورود والذكر الحسن وأما بالنسبة لقول أرنود ولسن بخصوص تقليل نفسه فهي من تواضعه ومدعاة للفخر، فكانوا أعلاماً بالدين والسياسة ورموزاً من رموز الوطنية من أجل فضح نوايا المحتل الكافر ولم تكن لديه هواجس الأدعاء بالسلطة الزمنية، فكان رحمه الله من سلاطين القلوب (الباحث).

[٤١] أرنولد ويلسن، الثورة العراقية، ترجمة وتعليق: جعفر الخياط، الطبعة الثانية،، لبنان – ٢٠٠٤، ص ١٣٩– ١٤١.

[٤٢] المس بيل، ص٤٦٣.

[٤٣] فيليب ويلارد أيرلاند، المصدر السابق، ص١٩٤.

[٤٤] المس بيل، العراق في رسائل المس بيل، ترجمة وتعليق جعفر الخياط، بغداد، ١٩٧٧، ص١٦٧.

[٤٥] عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، مطبعة العرفان، لبنان، ط٢، ١٩٦٥، ص٩٥ ؛ مذكرات السيد محمد علي كمال الدين، من رجال الثورة العراقية ١٩٢٠، تقديم وتعليق كامل سلمان الجبوري، الطبعة الأولى، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٨٦، ص١٢١٢ ؛ أما عبد الشهيد الياسري فذكر في كتابه البطولة في ثورة العشرين، مطبعة النعمان، النجف، ١٩٦٦ ص١٣٨، إن شعلان أبو الجون أجتمع مع عبد الواحد الحاج سكر في النجف، أما علي البارزكان فذكر في كتابه (الوقائع.....، ص١٤٦) إن شعلان أبو الجون أجتمع مع حزبه (حرس الأستقلال » –.

[٤٦] كان الشيرازي ممتعضاً لعدم نجدة عشائر السماوة وتركهم وحدهم في ساحة القتال يواجهون أعتى قوة عسكرية في ذلك الوقت، ينظر: عبد الشهيد الياسري، المصدر السابق،

ص١٩٣.

[٤٧] عبد الرزاق الحسني، العراق في دوري الأحتلال والأنتداب، الجزء الأول، لبنان، ١٩٣٥، ص ١٠٩، كذلك ؛ عبد الرحيم محمد علي، المصلح المجاهد الشيخ محمد كاظم الخراساني، الطبعة الأولى، مطبعة النعمان، النجف، ١٩٧٢، ص١٥٤.

[٤٨] ل. ن كوتلوف، ثورة العشرين الوطنية التحريرية في العراق، ترجمة عبد الواحد كرم، بغداد، ط٣، ١٩٨٥، ص١٨٦.

[٤٩] عباس محمد كاظم، ثورة الخامس عشر من شعبان (ثورة العشرين)، د. مط، (د. م ١٩٨٤)، ص٢٨٥. كانت صحف الثوار آنذاك تطالب كذلك بأطلاق سرح المنفيين وأرجاعهم إلى بلادهم. ينظر الفرات (صحيفة الفرات)، العدد الخامس، السنة الأولى، النجف الأشرف، ١٨ تشرين الأول ١٩٢٠.

[٥٠] عباس محمد كاظم، المصدر السابق، ص٢٨٦.

[٥١] لواء الأستقلال (جريدة)، فتوى الجهاد التي أذاعها الحائري (من سجل الثورة)، العدد ١٠١٧ السنة الرابعة، بغداد، ٢ تموز ١٩٥٠، كذلك ؛ عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، ص١٠٦.

[٥٢] عبد الله الفياض، الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠، الطبعة الثانية، مطبعة دار السلام، بغداد، ١٩٧٥، ص٣٠١.

[٥٣] أن الذي أجتمع مع زعماء العشائر هو القائد العسكري البريطاني الكابتن (مان) ينظر: عباس محمد كاظم، المصدر السابق، ص٢٨٩.

[٥٤] محمد مهدي البصير، تاريخ القضية العراقية، ج١، بغداد، ١٩٢٤، ص٢١٦- ٢١٧ ؛ كاظم المظفر، ثورة العراق عام ١٩٢٠، ج١، (النجف – ١٩٦٩، ص١٦٠- ١٦٢ ؛ عبد الله الفياض، المصدر السابق، ص٣٦٠٩.

[٥٥] نقلاً عن عباس محمد كاظم، المصدر السابق، ص٢٩١.

[٥٦] نقلاً عن محمد الخالصي، بطل الإسلام، سيرة حياة والد، مخطوطة محفوظة لدى مكتبة الكاظمية العامة، ص٢٣٦.

[٥٧] عباس محمد كاظم، المصدر السابق، ص٢٩١.

[٥٨] محمد مهدي البصير، المصدر السابق، ٢١٨ ؛ عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، ص ١٤٥- ١٥٢.

[٥٩] البرت منتشا شفيلي، العراق في سنوات الأنتداب البريطاني، ترجمة هاشم صالح التكريتي، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٧٨، ص١٦٧.

[٦٠] علي الوردي، لمحات إجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء الخامس، القسم الأول، ص٢٩٣- ٢٩٤.

[٦١] فريق المزهر آل فرعون، الحقائق الناصعة في الثورة العراقية في ١٩٢٠ ونتائجها، الطبعة الثانية، مطبعة النجاح، (بغداد ١٩٩٥)، ص٢٤٧.

[٦٢] هو السيد أبو القاسم بن السيد مصطفى الحسيني الكاشاني وهو من عائلة علمية وعلمانية وينتهي نسبه إلى الإمام زين العابدين (ع) ولد سنة ١٢٩٥هـ في طهران وبعد أن حصل على مبادئ العلوم في أواخر

العقد الثاني من عمره هاجر إلى النجف الأشرف وتتلمذ على يد الخراساني والميرزا حسن الخليلي وبعد أن نال الأجتهاد شارك في ثورة العشرين وأصبح عضواً في المجلس العلمي الذي شكله الشيرازي، للتفاصيل ينظر:

http: // www. alhadi. ws / wp/ ؟ page – id = ٩٠٧٦.

[٦٣] د. علي الوردي، لمحات إجتماعية، الجزء الخامس، ص٢٩٤.

[٦٤] فريق المزهر آل فرعون، المصدر السابق، ص٢٤٧– ٢٤٨.

[٦٥] مكتب منابع الثقافة الإسلامية، كربلاء المقدسة تفجر ثورة العشرين، الكتاب الخامس، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٩٦٨، ص٦١.

[٦٦] فريق المزهر آل فرعون، المصدر السابق، ص٢٤٨.

[٦٧] محمد حسن آل طعمة، ثوار كربلاء يشكلون حكومة محلية في كربلاء، جريدة المجتمع، العدد ١٢١، ٢٩ حزيران ١٩٧١.

[٦٨] عبد الله الفياض، المصدر السابق، ص ٣١١– ٣١٢.

[٦٩] عبد الرزاق عبد الدراجي، جعفر أبو التمن ودورهفي الحركة الوطنية في العراق، ط٢، بغداد، ١٩٨٠، ص١٢١.

[٧٠] ناهدة حسين علي ويسين، تاريخ النجف في العهد العثماني الأخير، ١٨٣١– ١٩٢٧، أطروحة دكتوراه غير مطبوعة كلية التربية (أبن رشد)، جامعة بغداد، ١٩٩٩، ص٤٧ ؛ كاظم المظفر، المصدر السابق، ص١٦٣.

[٧١] ناهدة حسين علو جعفر ويسين، المصدر السابق، ص ٢٥– ٢٦.

[٧٢] فريق المزهر آل فرعون، المصدر السابق، ص٢٩٥.

[٧٣] مكتب منابع الثقافة الإسلامية، المصدر السابق، ص٦٢– ٦٣.

[٧٤] عبد الله الفياض، المصدر السابق، ص٣٢٠.

[٧٥] فريق المزهر آل فرعون، المصدر السابق، ص٢٦٩– ٢٧٠.

[٧٦] عباس محمد كاظم، المصدر السابق، ص ٢٩٩– ٣٠٠.

[٧٧] عبد الله الفياض، المصدر السابق، ص ٣٢٣.

[٧٨] عبد الرزاق الحسيني، الثورة العراقية الكبرى، المصدر السابق، ص٢٥٩.

[٧٩] محمد مهدي البصير، المصدر السابق، ص ٢٢٤– ٢٢٦.

[٨٠] فريق المزهر آل فرعون، المصدر السابق، ص ٣٠٦، عباس محمد كاظم، المصدر السابق، ص ٣٠٥.

[٨١] نقلا عن فريق المزهر آل فرعون، المصدر السابق، ص ٣٠٦– ٣٠٧.

[٨٢] عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، ص ١٧١.

[٨٣] فريق المزهر آل فرعون، المصدر السابق، ص٣٠٥.

[٨٤] المصدر نفسه، ص٣٠٧– ٣٠٩.

[٨٥] Elizabeth Burgoyne (ed) Gertrude Bell form her Personal papers ١٩١٤– ،١٩٢٠ london, Ernest Bennl١٩٦١ ,. p١٤٠– ١٤٨.

[٨٦] علي البازركان، الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية، بغداد، ١٩٥٤، ص١٩٨.

[٨٧] كاظم المظفر، المصدر السابق، ص ١٧١ ؛ عباس محمد كاظم، المصدر السابق، ص٣١٤- ٣١٦.

[٨٨] عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، ص١٨٤- ١٨٨.

[٨٩] عباس محمد كاظم، المصدر السابق، ص ٣١٧- ٣١٨.

[٩٠] سقطت حكومة الملك فيصل في دمشق بعد معركة ميسلون التي جرت ما بين القوات السورية بقيادة (يوسف العظمة) وزير الدفاع والقوات الفرنسية بقيادة الجنرال (غورو) في ٢٤ تموز ١٩٢٠، وقتل في هذه المعركة يوسف العظمة. للمزيد من التفاصيل عن أسباب وأحداث ونتائج هذه المعركة ينظر: ساطع الحصري، يوم ميسلون، صفحة من تاريخ العرب الحديث، بيروت.

[٩١] د. علي الوردي، لمحات إجتماعية....، الجزء الخامس، القسم الأول، المصدر السابق، ص٢٩٥.

[٩٢] فريق المزهر آل فرعون، المصدر السابق، ص٢٨٣ ؛ د. علي الوردي، لمحات إجتماعية....، الجزء الخامس، القسم الأول، المصدر السابق، ص٢٩٦.

[٩٣] د. علي الوردي، لمحات إجتماعية، ص٢٩٧.

[٩٤] فريق مزهر آل فرعون، المصدر السابق، ص ٢٨٥.

[٩٥] فريق المزهر آل فرعون، المصدر السابق، ص٣٤٨- ٣٥٠، كذلك ؛ كاظم المظفر، المصدر السابق، ص٢٠٠.

[٩٦] أغا بزرك الطهراني، هدية الرازي....، المصدر السابق، ص٦.

[٩٧] وأن هذا الأمر لا يستبعد لشخصية قارعت الوجود والحيل والأكاذيب والقمع البريطاني للشعب العراقي وفي الوقت ذاته سياتا تتضمن المكيافلية ولم يكن لها رادع عن تنفيذ مخططاتها الدنيئة. (الباحث).

[٩٨] فريق المزهر آل فرعون، المصدر السابق، ص٣٥٢- ٣٥٣، كذلك ؛ كامل سلمان الجبوري، النجف الأشرف والثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠، الطبعة الأولى، دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥، ص٢٨٥.

[٩٩] د. علي الوردي، لمحات إجتماعية، ص ٢٩٩.

[١٠٠] نور الدين الشهرودي، أسرة المجدد الشيرازي، المصدر السابق، ص١٩٠.

[١٠١] خضر عباس الصالحي، شاعرية أبي المحاسن، الطبعة الأولى، النجف الأشرف، ١٩٦٥، ص ٧٩- ٨١.

[١٠٢] إبراهيم الوائلي، المصدر السابق، ص ٨٥ ؛ مير بصري، المصدر السابق، ص ٣٦٤.

الهَوِيَّةُ الوَطَنِيَّةُ لِثَوْرَةِ العِشْرِيْنِ فِي العِرَاقِ

- مُرَاجَعَةٌ تَارِيْخِيَّةٌ -

❖ أ. د. أســـامة عبد الرحمن [1]

(١) مؤرخ عراقي.

بعد مرور مئة عام على ثورة العشرين الوطنية التحررية التي انطلقت يوم ٣٠ حزيران ١٩٢٠، يلاحظ انها حظيت باهتمام الكثير من المؤرخين والسياسيين، فكتب عنها الكثيرون منهم ومن الباحثين، عراقيين وعرباً وأجانب. واليوم ونحن نحتفل بالذكرى المئوية الاولى لتلك الملحمة الوطنية، يتزامن احتفالنا مع ملحمةٍ جديدة يخوضها الشعب العراقي، للتخلص من كل اوجه الفساد، والأمل في بناء وطنٍ موحَّد آمن مُستقرٍ مُزدهر، وهو امل كل الشعب العراقي.

أود أن أتناول في البداية أسباب الثورة وأحداثها ونتائجها، وأسلِّط الضوء على المناطق التي ساهمت فيها، سواء كانت المشاركات عسكرية قتالية أم فكرية أم تنظيمية، فضلاً عن التركيز على أهمِّ الشخصيات التي ساهمت بشكلٍ فاعل في الثورة، سواء كانوا شخصيات عشائرية أو دينيَّة أو من الحركة الوطنية أو من الصحافة أو ضباطا عثمانيين أو أفندية. كما سأحاول من خلال المعلومات المتوافرة، بيان مشاركات العراقيين بغضِّ النظر عن اديانهم ومذاهبهم أو قومياتهم ومهما كانت طبيعة تلك المشاركات في توحيد الصف واللُحمة الوطنية.

حاولت الاعتماد على مصادر متنوعة، آملاً عدم إغفال دور أي طرف عراقي، لإيماني أننا نحتاج اليوم للتلاحم قبل فوات الأوان، وسوف لن

ينفع الندم على طغيان الصراعات التي لا تُغني ولا تُسمن من جوع، في الوقت الذي تتسابق فيه الأُمم من أجل تقدمها ورخاء شعوبها.

يقوِّم الدكتور علي الوردي، في كتابهِ (لمحات اجتماعية)، ثورة العشرين وهويتها الوطنية، بالقول: "يمكن القول على أيَّةِ حال أنَّ ثورة العشرين هي أول حدث في تاريخ العراق يشترك فيه العراقيون بمختلف فئاتهم وطبقاتهم، فقد شوهدت فيها العمامة إلى جانب الطربوش، والكشيدة إلى جانب اللفة القلعية، والعقال إلى جانب الكلاو، وكلَّهم يهتفون "يحيى الوطن".

أمَّا رأي الدكتور عباس كاظم في كتابه (ثورة ١٩٢٠)، المُترجم عن الإنكليزية، وهو آخر دراسة علمية مُعمَّقة قرأتها عن ثورة العشرين، وقد صدرت عن جامعة تكساس الأمريكية، فيُشير بقولهِ: "كانت ثورة العشرين ثورةً وطنية عراقية في المقام الأول ". مؤكِّداً أنَّ كلَّ المشاركين في الثورة لم يستلموا أيَّة مساعدة أو دعم خارجي، بل اعتمدوا على الموارد الذاتية.

المؤرخ العراقي الكبير السيد عبد الرزاق الحسني (١٩٠٣-١٩٩٧) أفرد كتاباً كاملاً لثورة العشرين، عنونه (الثورة العراقية الكبرى)، وأشار في خاتمتهِ الى "إنَّ ثورة العشرين... دفعت بالإنكليز إلى إعطاء العراق حكماً شبه وطني بعد تأمين مصالحهم الرئيسية فيه".

وقال السيد حسان علي آل بازركان في مدخل الطبعة الثانية لكتاب والده، ما نصه: "الذين حاولوا أن يعزوا ثورة ١٩٢٠م إلى قيام عشيرةٍ ما دون الشعب كلِّهِ، أو الذين عزوه إلى طائفةٍ ما دون سائر شعب العراق، أو إلى منطقةٍ ما دون سائر أرض العراق، ما هم إلاَّ مُفرقي الصفوف وممزقي وحدة الشعب وهم الذين حرفوا الحوادث التاريخية... ".

أمَّا الأستاذ الدكتور وميض جمال عمر نظمي، فقد أفاد: "إنَّ الثورة أسرعت وأسهمت - موضوعياً - في قيام الدولة العراقية الحديثة".

وكتب المؤرخ العراقي الكبير، الكردي الأصل، كمال مُظهر أحمد، ما يلي: "يأتي دور الكُرد في الثورة على رأس المواضيع التي يجب معالجتها، لا من حيث مدى الاشتراك الفعلي لجزءٍ مهم من أبناء الشعب العراقي في أحداث الثورة نفسها فقط، بل كذلك من منطلق دوره الواضح في العملية الثورية، التي اجتاحت مناطق مختلفة من العراق مع انتهاء الحرب العالمية الأولى، أي عشيَّة الثورة" .

ولا يمكن إغفال رأي الباحث المتخصص بتاريخ العراق المعاصر، السيد محسن جبار العارضي، الذي يقول: "برهن العراقيون عامةً، ولاسيَّما الفراتيون منهم خاصة أنَّهم جنود أُمناء في سوح القتال، ولن يصبروا على ضيم، فشهروا أسلحتهم ذائدين عن كرامتهم وحرياتهم المُغتصبة في ثورةٍ عارمة، عمَّت البلاد من أقصاها إلى أقصاها على مدى (١٤٠) يوماً".

وللمؤرخ والأكاديمي السوفيتي المعروف ل. ن. كوتلوف، رأيٌ لا يبتعد كثيراً عمَّا أسلفنا، إذ يقول: "سَرَت الثورة في البلاد سريان النار في الهشيم، وأصبحت تهدد باكتساح كافة أنحاء البلاد".

وبعد هذهِ الآراء التي تُعبِّر عن الهوية الوطنية للثورة لا بد من العودةِ للكلام عن أسباب ثورة العشرين.

أورد الباحثون والمؤرخون أسباباً كثيرة ومتنوعة لاندلاع ثورة العشرين، سنحاول هنا تثبيتها:

أنَّ أسباب الثورة تكمن في الضغط والاستغلال الاقتصادي واستنزاف جهود العاملين في ميدان الزراعة. كذلك في فتاوى العلماء الأعلام المُجاهدين في كربلاء والنجف، وفي مقدمتهم المُجاهدون مُحمَّد تقي الشيرازي والأصفهاني والخالصي.. إضافةً للفئة المثقفة في النجف. الى جانب الضغط السياسي والمُطالبة بحقِّ تقرير المصير، واختيار الحكَّام والحكومات بحرية. وقد تأثر بهذا العامل أبناء المدن والحواضر أكثر من غيرهم.

وسبب آخر هو أنَّ العراقيين عانوا

مـن ظلـم وإرهـاق الإنكليـز، فبثـوا شكواهم للعلماء فـاتفق الطرفـان علـى الشروع بمُقاتلة الغاصبين.

وهناك رأيٌ آخر يرى ان الثورة هي امتـداد للمعـارك التـي كانـت العشـائر العراقية تخوضها ضدَّ العثمـانيين بـين حينٍ وآخر.

ويُضـيف علـي الـوردي مفصـلاً أسباب اندلاع ثورة العشرين، بقولهِ:

اعتيـاد العـراقيين علـى الحكـم السائب ايـام العثمـانيين مقابـل صـرامة تطبيـق القـوانين والانظمـة ايـام الاحتلال البريطاني، كما اصاب البلاد تضخم نقدي ايام الاحـتلال البريطـاني فارتفعت اسعار القمح والرز فولّد مجاعـة وبالمقابـل زادت الضـرائب الـى ثلاثـة اضعاف ماكانت عليـه ايـام العثمـانيين. واتبـع الانجليـز سياسـة تقريـب شـيوخ عشائر وإهمال آخرين، فثارت الضـغينة بينهم وامتعضـوا مـن سياسـة المُحتـل البريطاني. كما إنَّ السياسة البريطانيـة التـي تتـوخَّى العدالـة والمُسـاواة فـي الحكم القضائي، دفعت الفلاَّحين إلـى أن لا ينظروا إلى شيوخهم كما كانوا في الماضـي، ولهـذا زاد كُـره الملاَّكـين للسياسـة البريطانيـة. وهنـاك أخيـرا رعونـة بعـض الحكَّـام السياسـيين البريطانيين ومعـاونيهم وقلَّـة خبـرتهم، ومنهم ليجمان في الموصـل ومـن ثـمَّ الرمادي، والنقيب ديلـي فـي الديوانيـة، حيـث اتَّسـمت سياسـتهما بالتعسُّـف والاسـتبداد والفظاظـة. وفـي السـياق نفسـهِ تجـاوز الكـابتن ويـب معـاون الضابط السياسي في ناحية عفج علـى الشـيخ صـكبان أبـو جاسـم، أحـد أبـرز شيوخ آل بدير، عنـدما قـال لـه حرفيـاً: "إنَّ كلبـي أنظـف منـك، لأننـي أنظفـه بالصـابون مـرتين يوميـاً". فخـرج ابـن السـتين عامـاً غاضـباً "ألعـن أبـوك وأبـو الإنكريز كلهم ! تريد تتميجر بجعبي". ولعـب دور المـوجهين بإثـارة حماسـة الجمـاهير مـن الناحيـة السياسـية، والتعاون بين الأفنديـة والمُلاَّئيـة، دوراً في التقارب الطائفي الذي ظهر بوضوح أيام الثورة.

وكانت الزيارة التي قـام بهـا الشـيخ مُحمَّد رضا نجـل آيـة اللـه محمـد تقـي

الشيرازي (١٢٥٦-١٣٣٨ هجرية) إلى بغداد، للتعرف والإطلاع على الحركة الوطنية في بغداد والكاظمية ومطالبهم في إنهاء الاحتلال وتأسيس حكومةٍ وطنية، عاملاً مُضافاً لتأجيج الموقف ضدَّ الاحتلال البريطاني. ولا يخفى ايضا تأثير الوعود البريطانية، بيان مود "إننا جئنا محررين لا فاتحين"، وغيره مما ساهم في بلورة الرغبة بالاستقلال. كما لا يمكن إغفال ما قاله السيد علوان الياسري في تموز من عام ١٩٢٠م للكابتن مان حاكم غماس: "عرضتم علينا الاستقلال ونحن لم نطلبه أبداً، ولم نحلم بهِ أبداً إلاَّ حينما وضعتموه أنتم في رؤوسنا، وفي كلِّ مرةٍ نُطالب بهِ، تسجنوننا".

وإنَّ ما حدث في دول الجوار ولا سيَّما في سوريا ومصر والحجاز، كان له تأثيره على الحركة الوطنية العراقية المُطالبة بالاستقلال. ولا يمكن إغفال دور الضباط العراقيين في الشام وتشجيعهم لإخوانهم في العراق بالوثوب والدعاية ضدَّ الإنكليز، ومن جهةٍ أخرى استمرار الدعاية العثمانية بأنَّهم عائدون إلى العراق لمُحاربةِ عدوٍ مشترك، لا سيَّما وأنَّ هناك من العراقيين من بقي يتمنَّى عودة العثمانيين، فضلاً عن أخبار المقاومة الوطنية الإيرانية ضدَّ بريطانيا والتي تروَّج في مختلف مناطق العراق، كذلك الدعاية البلشفية ودعوتها لمُحاربة الاستعمار وحثها العرب على النهوض.

ولعبت الموصل دوراً بالغ الأهمية لكثرة الأفندية فيها وموقعها القريب من تركيا، وكانت صلات العراقيين في سوريا مع الموصل قوية جداً، ولهذا كانت الموصل ملتقى ثلاث دعايات: تركية وعربية وبلشفية. ويبدو أنَّ تلك الظروف هيأت لتعليق إعلاناتٍ مناوئة للبريطانيين، وعقدت اجتماعات وطنية، وفي الوقت نفسهِ ازدادت الغارات على خطوط المواصلات البريطانية، وهذا ما أكدته المس بيل في كتابها (تاريخ العراق القريب).

ويُثير الوردي نقطةً في غاية الأهمية، وهي أنَّ آرنولد ويلسون، الحاكم الملكي العام في العراق وكالةً،

وابن الـ(٣٥) عاماً، كان على علاقةٍ سلبية مع آية الله الشيخ الشيرازي، وكان ويلسون يذمه في تقاريرهِ إلى حكومتهِ، لأنَّ الشيخ الشيرازي لم يترك له مجالاً في تأييد السياسة البريطانية.

وفي بغداد، حيث نشأت الحركة الوطنية التي تولاَّها المعارضون للحكم البريطاني، رُفع شعار "الاستقلال"، وتأسَّس حزبان سريان، اولهما "حرس الاستقلال" الذي ظهر في شهر شباط من عام ١٩١٩، والثاني نشأ بنفس الوقت، وهو فرع من حزب العهد. وكان للمدرسة الأهلية في بغداد، ومديرها علي البازركان، دورٌ في تأجيج روح الشباب والمثقفين الوطنية، حيث كانت مكاناً لعقد الاجتماعات كلَّ يومي اثنين وخميس، وتُلقى فيها القصائد والخُطب الوطنية التي تحث على العلم وحب الوطن. وبدأت تجري اتصالاتٍ بين بغداد ومدن الفرات الأوسط بوساطة السيد هادي زوين، ورافق تلك النشاطات في بغداد نشوء حركة وطنية في كربلاء إثر استفتاء ويلسون، كان قطبها الميرزا مُحمَّد رضا ابن آية الله الشيرازي، والذي أيده والده، فأسَّس جمعيةً سرية باسم "الجمعية الإسلامية". وتزامن مع هذهِ التطورات الفكرية والسياسية في بغداد إعلان الانتداب البريطاني على العراق في ٢٥ نيسان١٩٢٠.

ومن الجدير ذكره أنَّه جرت أحداث ومواجهات عسكرية في دير الزور وتلعفر ضدَّ الإنكليز وصولاً إلى الموصل خلال شهري مايس وحزيران من عام ١٩٢٠، كانت أخبارها المُبالغ بها تُثير الحماسة في وسط العراق وجنوبه.

وفي بغداد جرت أحداث خلال شهر رمضان ١٩٢٠، وأهمها اشتداد التقارب الشيعي السُنِّي، واستثمار مناسبة شهر رمضان للقيام بالمولد النبوي ومجلس التعزية الحُسينية، كما أُقيمت حفلات في جامع الميدان وأخرى في جامع الحيدرخانة وثالثة في جامع الشيخ صندل، وكان يحضرها أكثر من عشرة آلاف شخص. وتضمَّنت إحدى القصائد التأكيد على

وحـدة المسـلمين وعلـى اسـتقلال العراق، فاعتقل شاعرها عيسى عبد القادر الريزلي. والحقيقة ان الشعر لعب دوراً مهماً فـي تـأجيج الـروح الوطنيـة والدعوة للاستقلال.

لـم يقتصـر الـوعي الـوطني علـى التقـارب الشـيعي السُـنِّي فـي بغـداد، وتوحيـد جهودهمـا لمواجهـة المُحتـل البريطاني، فقد شَـهِدت بغداد وحسب التقـارير البريطانيـة توحيـد قـوى المسلمين والمسيحيين. ففـي مناسبةٍ دينيـة مسـيحية، كمـا يُشـير تقريـر الاسـتخبارات البريطانيـة، تجمـع وفـد إسـلامي ضـمَّ أبـو الـتمن والـداوود والبازركـان وغيـرهم مـن المتنـورين الشـيعة والسُـنَّة ورمـوا الـورود والمـاء المُعطَّـر علـى موكـب المسـيحيين، وهتفوا: "عاش مجد سيدنا المسيح.. عاشـت الوحـدة الوطنيـة"، وأجـاب المسـيحيون: "عـاش أخواننـا المُحمَّديون، عاش العرب"، وجرى كلَّ ذلـك بدايـة شـهر حزيـران مـن عـام ١٩٢٠.

ولن أستطيع طـي صـفحة النشـاط الوطني فـي بغـداد دون أن أقـف بكـلِّ وقـارٍ وخشـوع امـام قصـيدة الشـاعر العراقي الكبير مُحمَّد مهـدي البصـير، التي تهز الوجـدان الـوطني، وهـو أحـد أبرز شعراء ثورة العشرين، حين قال:

يا عِلمُ عش وأعش فعصرك راقِ
وأعِد شموس الشرق للإشراقِ

ولم يقتصر نشـاط الحركـة الوطنيـة علـى بغـداد، بـل تـزامن معهـا نشـاط وطنـي كبيـر فـي كـربلاء والنجـف والحلَّـة، والتـي ركـزت مطالباتهـا علـى حقـوق العـراقيين المشـروعة بـالطُرق السـلمية، وأدت إلـى اعتقـال الميـرزا مُحمَّـد رضـا الشـيرازي أواخـر شـهر حزيران. ويرى علي الوردي أمر اعتقاله وأصحابه من أهمِّ عوامل اندلاع الثورة.

ويُشير الدكتور وميض عمـر نظمـي أيضاً إلى وجود روابط سياسية وتنظيمية بـين القـوميين والزعمـاء الـدينيين والعشـائريين فـي الفـرات الأوسـط وبغداد، حيث جرى أول اجتماع بين قـادة الفـرات الأوسـط وشخصـياتٍ بغدادية، فكان ممثلو الفرات الأوسط

هادي زوين وشلاش، حيث عُقد الاجتماع يوم ٢٢نيسان، وحضره السويدي والصدر والنقشبندي وآل بازركان وأبو التمن ورفعت الجادرجي والداوود والنائب والدفتري وباقر الشبيبي وبابان وصادق حبه وصادق الشهربلي، واتفقوا على تنسيق جهودهم وتشديد فعالياتهم، ثمَّ أُرسل أبو التمن إلى النجف حيث عقد اجتماعاتٍ عديدة في شهر ايار من عام ١٩٢٠، وكانت تلك الاجتماعات بمثابة مسعى لعقد تحالف قومي ديني عشائري، وجرت اجتماعاتٍ عديدة في كربلاء والحلَّة والنجف والموصل، جرى التركيز خلالها على الوحدة واستقلال العراق، وحصلوا على تأييد آية الله الشيرازي.

كان السبب المباشر للثورة المسلحة هو نشوب نزاع ثانوي بسبب دينٍ قدره (٨٠٠) روبية، كان على شعلان أبو الجون، وهو شيخ بارز في مدينة الرميثة، أن يسدده للحكومة، وكانت الرميثة يومئذٍ تابعة إداريا لمنطقة الديوانية التي يحكمها النقيب ديلي، أحد أبشع الضباط البريطانيين قساوةً، والذي طلب إحضار الشيخ شعلان إلى الديوانية واوقفه، فعبأ أبو الجون رجال عشيرتهِ وأخرجوه من السجن فكانت شرارة الثورة.

وتزامن مع تلك الحادثة تصاعد الموقف ضدَّ البريطانيين في كربلاء والنجف، سواء من رجال الدين أو أعيان السادة وشيوخ عشائر الفرات الأوسط.

وفي الفرات الأوسط ترشَّحت فكرة الثورة المُسلَّحة وخاصةً في مدينة المشخاب، وانتشرت دعواتهم الى المناطق الأخرى.

أصدر آية الله الشيرازي فتوىً تُجيز الثورة المُسلَّحة، سُمِّيت "الفتوى الدفاعية"، ونصها: "مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين، ويجب عليهم من ضمن مطالباتهم رعاية السلم والأمن، ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية إذا امتنع الإنكليز عن قبول مطالبهم".

ويُشير السيد مُحمَّد الخالصي في

مذكراتهِ، إلى أنَّ آية الله الشيرازي كان يأمر "بإرسال ثلاثين إلى أربعين وزنة من التمر ومثلها خبزاً، وهذا غاية ما كان يمكن إرساله إلى جبهات القتال، فيُصيب كلَّ مقاتل كسرة خبز وكفٍّ من التمر، فيطوي عليها ليله ونهاره وهو صابرٌ مُحتسب". ومن هنا يمكن فهم الدوافع الحقيقية للثورة.

ولا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ الثورة أُعلنت في المشخاب بعد أن قرر الزعماء في مضيف الشيخ عبد الواحد الحاج سِكر يوم ١١تموز، ثمَّ بدأ حصار أبو صخير يوم ١٣تموز، وبدأت الثورة في مدينة الشامية، وأخفق مؤتمر الكوفة في عقد هدنة يوم ١٧تموز، ولهذا انتشرت الثورة في الفرات الأوسط.

يمكن اعتبار (معركة الرارنجية) نقطة تحول في ثورة العشرين وأعظم معاركها، فقد حلَّت كارثة بالقوات البريطانية وغنمت العشائر غنائم كثيرة. وجرت ثورة في شرقي الديوانية "شط الدغَّارة"، ثمَّ انضمت عشائر عفج والأكرع للثورة وجرت معارك القطار التي أربكت القوات البريطانية، فلم تستطع القوات البريطانية المُنسحبة من الديوانية الوصول إلى الحلَّة إلاَّ بعد أحد عشر يوماً، علماً أنَّ المسافة كانت (٨٥) كيلو متراً. وهذا يؤشر حجم المواجهة والمقاومة وبسالة المقاتلين، ولكن تعرض المقاتلون لنكسةٍ أثناء الهجوم على الحلَّة ما إدى إلى تراجعهم وتقديم تضحياتٍ كثيرة. ومن جانبها واصلت عشائر بني حجيم القتال ضمن محور السماوة والخضر، وجرت معارك الخضر والبواخر والمحطَّة. ولا يخفى دور عددٍ من الضباط العراقيين الذين التحقوا بالثوار، ومنهم: حسين علوان الدوري وشاكر القره غولي ومحمود رامز وإسماعيل حقي وفؤاد المدفعي وسامي النقشلي، في تقديم أبرز فنون القتال والمهارات العسكرية، والتي أشار إليها بالتفصيل الدكتور علي الوردي ومعاصرون للثورة.

وأُعلنت الثورة في كربلاء أواخر شهر تموز (٢٥ تموز)، وفي النجف ٢١ تموز، حيث انسحبت القوات البريطانية بعد إحساسها بغليان الثورة، وفي

الكوفة حوصرت الحامية البريطانية وضُربت الباخرة (فاير فلاي) يوم ١٧ آب، فاحترقت ولم ينتهِ حصار الحامية البريطانية في الكوفة إلاَّ في ١٧ تشرين الأول ١٩٢٠.

صحيح أنَّ البحث تضمن دور السيد الشيرازي وفتواه الدفاعية، إلاَّ أنَّه وللعلم فإنَّ السيد الشيرازي ورغم كل الدعوات من العشائر ظلَّ يدعو إلى التهدئة والسلم وإخماد الفتنة، كما حاول الشيخ فتح الله الأصفهاني في النجف التوسط لإيقاف القتال، وأرسل رسائل إلى ويلسون والعشائر لإيقاف القتال. وأبدى رؤساء العشائر أخيراً رغبتهم بالسلام امتثالاً لرأي المُجتهدين ولأسبابٍ أخرى، وبيَّنوا إن كانت الحكومة ترغب بالسلم فلتُحقق المطالب التالية: منح العراق الاستقلال التام ؛ إيقاف القتال في الرميثة حالاً ؛ جلاء الحكَّام البريطانيين عن الفرات، والبدء بمفاوضاتٍ بين الحكومة وزعماء العراق في جوٍّ هادئ ؛ وإطلاق سراح ابن الشيرازي وجميع المسجونين والمنفيين.

لا يختلف اثنان أنَّ الثورة المُسلَّحة انطلقت من مدينة الرميثة وقبلها بيومين كانت الاستعدادات تجري في المشخاب واجتماعاتٍ في كربلاء والنجف. وأبرز المعارك جرت أولها شمالي الرميثة في منطقة العارضيات، وظلَّت نيران الثورة في السماوة حتَّى ١٧ تشرين الأول. ثمَّ اندلعت مواجهاتٍ في أبي صخير قرب النجف، فحصار القوات البريطانية في الكوفة وقاده السيد علوان الياسري، ثمَّ توجه الشيخ عبد الواحد الحاج سِكر شيخ عشيرة الفتلة إلى بلدة الكفل ومن ثمَّ للحلَّة.

أمَّا كربلاء والنجف فقد أخلاهما البريطانيون طوعاً، وكانت خطَّة الثوار الاستيلاء على الحلَّة لتكون العشائر على أبواب بغداد، الأمر الذي احتاطت له القوات البريطانية.

وفي ٢١ تموز أحرز الثوار نصراً مؤزراً في معركة الرارنجية الواقعة بين الحلَّة والكِفل، كما فرضت العشائر سيطرتها على مدينة طويريج – الهندية (الواقعة

بين الحلَّة وكربلاء). وبعد أكثر من شهر ونصف امتدت الثورة إلى مناطق الفرات الأعلى، بعد مقتل ليجمان على يدِ رجال قبيلة زوبع، ولكنها لم تنتشر لكلِّ لواء الدليم لوقوف بعض الشيوخ ضدَّ توسعها.

وفي الفرات الأسفل (الناصرية) انتشرت الثورة بين عشائر المنتفك، وهي إضافة للناصرية، سوق الشيوخ والشطرة وقلعة سِكر، إذ قطع السكَّان خطوط التلغراف، ولكن وقف بعض الشيوخ أيضاً ضدَّ توسعها.

امتدت الثورة إلى ديالى في الأسبوع الأول من شهر آب، وقطعت عشائر العزَّة خطوط السكك الحديدية بين بغداد والمناطق الشرقية من البلاد، وشَهِدت مناطق الخالص (ديلتاوه) ثورةً مُشابهة، وساهم السيد مُحمَّد الصدر والشيخ المُجتهد مهدي الخالصي مع أهالي ديالى في مواجهة البريطانيين، ثمَّ هاجمت عشائر بني تميم المقدادية (شهربان) وأصبحت تحت سيطرة الثوار، وامتدت الثورة إلى مناطق كركوك وأربيل.

ويذهب كوتلوف إلى أعمق وأبعد مما أورده عدد من المؤرخين السابقين، فيُفسِّر ويُعلِّل بمنطقٍ علمي تاريخي، ويُشير صراحةً الى أنَّ المُحتل البريطاني أفشل قيام حركة مُسلَّحة في بغداد، ولهذا بدأ الوطنيون بمن فيهم قادة حرس الاستقلال يغادرون بغداد إلى مناطق الثورة، فقد توجه السيد مُحمَّد الصدر رئيس جمعية حرس الاستقلال إلى ديالى، والتحق يوسف السويدي باليوسفية جنوب غرب بغداد، وتسلَّل جعفر أبو التمن وعلي البازركان إلى الفرات الأوسط.

وفي ديالى ظهرت المقاومة المُسلَّحة في بعقوبة بقيادة الشيخ حبيب الخيزران شيخ قبيلة العزَّة، وباشر بنسف السكَّة الحديد بين بغداد وبعقوبة وخانقين، ثمَّ سقطت مدن ديلتاوه وشهربان وبعقوبة بأيدي الثوار.

وساهمت القبائل الكردية بفعاليةٍ في الثورة، ففي ١٤ آب ثارت القبائل الكردية قرب (قزلرباط)، ثمَّ زحفت باتجاه خانقين ثمَّ كفري ومنطقة النفط خانة.

وامتدت الثورة إلى غربي العراق، ففي ١٢ آب قُتل ليجمان من قبل ابن الشيخ ضاري شيخ زوبع، ونُسف خط سكَّة الحديد بين بغداد والفلوجة.

وعاود الثوار الأكراد نشاطهم في المناطق الجبلية، وتمركز الأنصار في زاخو والسليمانية، وفي أربيل لم يجرأ الضابط السياسي البريطاني على الظهور في شوارع المدينة إلاَّ بحراسةِ عددٍ كبير من الجنود، وفي شهر أيلول سيطر الثوار على عددٍ من القرى في المنطقة الواقعة بين راوندوز وكفري.

ويُشير كوتلوف إلى أنَّه رغم تراجع المقاومة والثورة، ولأسبابٍ عديدة في الوسط والجنوب، إلاَّ أنَّ عمليات الأنصار استمرت في مختلف المناطق الشمالية حتَّى شهر آذار١٩٢١، فقد أصبح الطريق بين الموصل وزاخو غير آمن بسبب هجمات الفصائل الصغيرة للأنصار، واستمرت الاشتباكات في أربيل حتَّى منتصف كانون الأول من عام ١٩٢١، كما سيطر الثوار على ممر سبيلك (بين سهل حرير ومضيق كلي علي بيك) وراوندوز.

وانبرى المؤرخ الكبير كمال مُظهر أحمد ليدافع عن دور الشعب الكردي في ثورة العشرين العراقية، بعد أن حاول البعض طمس أو تسطيح ذلك الدور، ناسين أنَّ الباحثين الغربيين يريدون ذلك لتحجيم ثورة العشرين،، ففي بغداد تعاون حمدي بابان مع المعارضة أيام الثورة، كما اجتمع عدد من الوطنيين الكُرد مثل رفيق حلمي وفائق توفيق وآخرين من السليمانية وكركوك لإقامة نوع من الصلات مع الثوار في بغداد، وفي ديالى كانت عشائر خانقين سبَّاقةً للانخراط في صفوف الثورة وسقطت خانقين وانزلوا العلم البريطاني ورفعوا العلم العثماني، كما هاجمت القبائل الكردية في كركوك على كفري وأسّروا معاون الحاكم السياسي، كما خرجت قرى ليلان القريبة من كركوك على الإنكليز.

وفي أربيل لم تكن الأمور أحسن حالاً، فقد عبَّروا عن تأييدهم المُطلق لمطالب قادة الثورة في بغداد، وجرت منذ شهر آب أكثر من محاولةِ اغتيال

لحاكم المدينة السياسي الكابتن هاي، كما حاولوا حرق دارهِ، الأمر الذي له مغزاه. كما قُطعت خطوط التلغراف بين أربيل وكويسنجق، وانفجرت الأوضاع في باتاس وراوندوز بداية شهر أيلول، كذلك في مناطق بادينان ولم تستقر الأوضاع في عقرة.

ويشار الى حقيقة مهمة حاول الكثير من مؤرخينا تجاهلها، ولكن الدكتور كمال بجرأتهِ المعهودة صرَّح بها جهاراً، وهي ان "هناك مشكلة أنَّ عدداً من زعماء العشائر في الوسط والجنوب وكذلك بالمنطقة الكردية وقفوا مع قوات الاحتلال، وهذا أثر سلباً على مسار الثورة. وعلى الرغم من انتهاء الثورة إلاَّ أنَّ قضايا الوطن والاستقلال السياسي وحتَّى التحرر الاجتماعي بدأت تحل محلَّ المطالب العشيرية أو المحلية الضيقة". وأكَّد أنَّ من نتائج ثورة العشرين أنَّها رفعت من الوعي لدى العرب والكُرد، وأسرعت بشكلٍ ملموس في عملية توحيد القوى الوطنية في صراعها ضدَّ الاستعماريين الإنكليز، ودشَّنت بوقائعها ودروسها بدايةً جديدة للنضال العربي الكردي المشترك الذي تحول إلى عنصر محرك أساس لمُجمل حركة التحرر الوطني العراقية

لقد ذكرنا في ثنايا صفحات هذه الورقة أسماء شخصياتٍ عراقية كثيرة كان لها دور مباشر ومؤثر في ثورة العشرين وكانت بينها شخصيات عشائرية ودينيَّة وسياسية ومثقفون وضباط عراقيون وكُتَّاب وشعراء وغيرهم، ومن لم يُذكر لا يعني البتة أنَّ دوره كان ضعيفاً.

وأدت الصحافة وعدد من كُتَّاب الثورة والمثقفين العراقيين والشعراء دوراً بارزاً في تعبئةِ الرأي العام العراقي، وكان لهم دور بارز في إلهاب حماسة الجماهير.

من ذلك جريدة "الاستقلال" التي صدرت في مدينة النجف والتي أصبحت تحت إدارة ثورة العشرين، وزيَّنت صدر جميع أعدادها بشعار "لا حياة بلا استقلال".

وقبل جريدة الاستقلال النجفية،

أسَّس مُحمَّد باقر الشبيبي في النجف جريدة "الفرات"، التي ظهر عددها الأول في ٧ آب١٩٢٠، وكان هدفها "لنُعرِّف الأمة العراقية كيف تكتسب الفضيلة وتجتنب الرذيلة"، ولكنها هي الأخرى توقفت بعد صدور عددها الخامس في ١٥ أيلول١٩٢٠.

ولا يخفى ما لجريدة "العقاب" الدمشقية من أثر في تأجيج الرأي العام العراقي وحماستهِ الدينيَّة الممزوجة بالروح الوطنية والقومية.

كذلك جرى اعتماد أسلوب توزيع المنشورات في الشوارع والأسواق أو إلصاقها على جدران الجوامع والأماكن العامة. وعلى الرغم من قصر عمر صحافة ثورة العشرين، إلاَّ أنَّها قامت بدورٍ لافت للنظر.

ولا بدَّ ايضا من الإشارة إلى دور الشعراء، وأولهم الشاعر مُحمَّد مهدي البصير الذي رصَّعت قصائده معظم ما كتب عن ثورة العشرين، وكلَّها تحث العراقيين على الثورة ضدَّ الإنكليز، خاصة منها قصيدة مشهورة مطلعها:

إن ضاق يا وطني عليَّ فضاكا
فلتَّتسع بي للأمام خُطاكا

كانت وفاة السيد الشيرازي وعودة بيرسي كوكس ونفاد إمكانيات الثوار المادية وتزايد حجم القوات البريطانية القادمة من إيران، قد قلبت موازين القوى لصالح بريطانيا، لا سيَّما وأنَّ بيرسي كوكس على العكس من سلفه ويلسون كان مُدركاً لطبيعة الشعب العراقي وقيمه. وفي ٢٥ تشرين الأول١٩٢٠ شكَّل بيرسي كوكس بمساعدة المس غرترود بيل حكومةً عراقية برئاسة السيد عبد الرحمن النقيب، ضمَّت (٢١) وزيراً، لكلٍّ واحدٍ منهم مستشار بريطاني، وكانت مهمة كوكس الثانية إيجاد ملك للدولة العراقية، يكون مقبولاً من العراقيين والبريطانيين، وبدأت البوصلة تميل منذ ذلك الحين لصالح فيصل بن الشريف حسين.

أبعادُ المعرفةِ

ابْنُ خَلْدُون وَالشَّهِيدُ الصَّدْرِ

مَدْخَلٌ لِدِرَاسَةٍ مُقَارِنَةٍ فِي الفِكْرِ وَالمَنْهَجِ

❖ **الشيخ عبد اللطيف الحرز**[1]

(١) باحث من الحوزة العلمية / قم المقدسة.

يقول هيجل: (إن بومة مينرفا لا تحلق إلا عند الغسق).. عبارة أراد منها هيجل أن يقول بأن الحكمة تلقف في أحلك الأوقات، وبالفعل فقد كان كل شيء في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي يعلن أن الحضارة الإسلامية في طريق الأفول، فقد أضحت الدولة العباسية مجرد خبر من الأخبار وأثر من الآثار، في حين تلاشت دولة الموحدين مع تعالي حدة هجمات البدو، مضافاً إلى الضغط المسيحي في الأندلس وشواطئ إفريقيا.. كل ذلك جاء متتابعاً في مسرحية الانهيار التي تمثل فصلها الأول في سقوط بغداد على يد التتر سنة (٦٥٥ق)، لكن ورغم هذه الظلمات بزغ نجم ابن خلدون، الرجل الذي حاول أن يؤدي دوره كمفكر وأحد أبرز رجالات العلم في التاريخ الإسلامي.

وإذا انتقلنا من المغرب الإسلامي إلى المشرق وإلى العراق بالتحديد سنجد ثمة تحركاً سياسياً معارضاً في أرض النجف الأشرف، تم في إطار علمائي عام ١٩٢٤م - وذلك بعد الثورة العراقية الكبرى ضد الإنجليز (١٩٢٠) - إثر المواجهة مع الملك فيصل الأول وممثلي الاستعمار البريطاني، فقد اختار بعض المراجع في النجف العيش في المنفى، كضريبة للمعارضة السياسية، لكنهم عادوا بعد بضع سنوات إلى العراق دافعين ثمن تلك العودة بالصمت، باستثناء الشيخ مهدي الخالصي الذي يستحق لقب (مثقف

المنفى).

دخلت المؤسسة الدينية في النجف بعد هذه الأزمة في صراعات عنيفة أخرى، مع المد الأحمر، ومع القيادات المختلفة للانقلاب العسكري المتجدد، ثم مع البعث الذي وصل في ١٩٦٨ إلى السلطة. ومن رحم هذه الأحداث ذات التفاصيل المثيرة خرجت (فلسفتنا)، (اقتصادنا)، (الأسس المنطقية للاستقراء) و(مجلة الأضواء)، نعم هكذا كانت ولادة المفكر الإمام الشهيد محمد باقر الصدر.

أولاً: ابن خلدون

١ـ المنهج

يعتقد ابن خلدون أنه أبدع علماً جديداً أطلق هو عليه اسم (علم العمران)، وذلك أنه بعد أن تصفح ما كتبه علماء التاريخ وجد فراغاً كبيراً فبادر إلى محاولة ملئه، يكتب ابن خلدون: (وطالعت كتب القوم، وسبرت غور الأمس واليوم، ونبهت عين القريحة من سنة الغفلة والنوم.. فأنشأت في التاريخ كتاباً)[١]. لكن لماذا عدل ابن خلدون عن نهج أسلافه من المؤرخين؟ يجيبنا ابن خلدون بأن من سبقه كان يهتم بجمع الأخبار وتكريسها وفاته في هذا المضمار أمران:

الأول: عدم الحرص الكافي على إعطاء صورة تاريخية صادقة، من خلال عدم الاهتمام بوثاقة رجال الحديث والرواة ؛ لأن أسباب الخطأ كثيرة ومختلفة، فمع اهتمام المؤرخين بتوثيق الرجال فإنهم (إذا تعرضوا لذكر الدولة نسقوا أخبارها نسقاً محافظين على نقلها وهماً أو صدقاً)[٢].

الثاني: يورد ابن خلدون اعتراضاً يتمتع بقيمة علمية هامة، يعتبر صدوره في ذلك العهد أمراً مثيراً للإعجاب، فيقول: إن هؤلاء المؤرخين قد اهتموا بصورة التاريخ لا بمادته، أي أن هؤلاء انصب جهدهم على نقل حكايات الماضي دون تمحيص لطبيعة البشر الذين كانوا يمثلون هذا الماضي، ودون بحث الأسباب والعلل التي أوجبت أن

يكون الماضي على هذه الصورة دون غيرها، مع أن هذه الأمور هي بمثابة (الغمد) إلى (السيف)، فهم (يجلون الأخبار عن الدول وحكايات الوقائع في العصور الأُول، صوراً قد تجردت عن موادها وصفاحاً انقضيت من أغمادها.. ولا يذكرون السبب الذي رفع من رايتها.. ولا علة الوقوف عند غايتها)[٣].

لقد جاء ابن خلدون ليكتب علماً جديداً يقوم على ضبط الأخبار، والاهتمام بعلل وأسباب الحوادث الواقعة، واعتمد على الأخبار وتابعها متابعة جادة محاولاً معرفة طبيعة البشر والعمران. لكنه من جهة ثانية حاول أن يركن أحياناً إلى طبيعة العمران لمعرفة صحة الخبر، ذلك أن الاعتماد على مجرد (النقل) لا يكفي، وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغاليط في الحكايات والوقائع، (لاعتمادهم فيها على مجرد النقل.. ولم يعرضوها على أصولها.. ولا سيروها بمعيار الحكمة. والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر)[٤].

فمثلاً ينكر ابن خلدون على المسعودي قوله أن موسى عليه السلام أحصى جيش بني إسرائيل فكان عدد من يطيق حمل السلاح هو (ستمائة ألف أو يزيدون)، فيقول: إن هذا الخبر لا وزن له من الصحة ؛ لأن بلاد مصر والشام آنذاك تضيق عن هذا العدد، بالإضافة إلى (أن مثل هذه الجيوش البالغة إلى مثل هذا العدد يبعد أن يقع بينها زحف أو قتال لضيق ساحة الأرض عنها.. فكيف يقتتل هذان الفريقان)[٥]، وفي حين يحدد ابن خلدون قيمة الأخبار بعرضها على (طبائع الكائنات) فإنه يقوم من جهة أخرى بالتعرف على طبيعة بعض الكائنات بواسطة الأخبار[٦]، وعليه فهو ينطلق دائماً من ثنائية (الأخبار/ طبيعة الكائنات). لكن ثمة ملاحظات نبديها هنا بإيجاز:

أ - الملاحظة الأولى: إن ابن خلدون يستقرئ الأمور استقراء ناقصاً بشكل دائم، الأمر الذي يلاحظه كل من له إلمام بمقدمته، بالإضافة إلى اهتمامه بالمغرب العربي خاصة[٧]، فعلى ماذا استند في هذا الاستقراء؟ وهل قدّم دليلاً على كونه استدلالاً

علمياً؟

إن نزعة ابن خلدون كفقيه أشعري جعلته محارباً للفلسفة، مما أدى إلى عدم طرحه سؤالاً على منهجه يتوخى تحديد صحة الأدلة وماهية مرتكزاتها، إذ أن من الواضح أنه لا يكفي القول باهتمامه بطبيعة العمران وأسباب وعلل الحوادث، كما أن دفاع البعض عنه بكونه عقلانياً، أو أنه كان بالضد من المنطق القديم[٨]، لا يجدي نفعاً ما لم يكن ابن خلدون قد أعطى وسائل الإثبات الكافية، ولو من وجهة نظره هو لحجية هذا المنهج، وبما أنه لم يقم بذلك يظل أمامنا أمران يمكن التعويل عليهما في تفسير ذلك:

١- إنه اعتمد على قياس الغائب على الشاهد[٩]، فهو يقيس ما شاهده وما تعرف عليه من خلال الأخبار ثم يقيس عليه ما يأتي من أمور (الغائب) مما يعني أنه يعمم الحكم تأثراً بعقلية سلفية.

ومع أن هذا القول ممكن في نفسه كما يتيسر تطبيقه على (المقدمة)، غير أن ابن خلدون يصرح بعدم تبنيه هذا المنهج في دراسة التاريخ إذ يقول: (ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب)[١٠]، فهل ادعى ابن خلدون شيئاً ثم خالفه كما هو الحال في نظريته في المقدمة والتي خالفها في تاريخه؟

٢- إن ابن خلدون قد تأثر بخبرته الشخصية من خلال موروثه في العمل السياسي، وباعتباره من أسرة علمية ودينية، وأيضاً من خلال معايشته للبدو والحضر، لذلك فإنه التقط خبراً من هنا ورواية من هناك، وشاهداً من وقائع وطبيعة الحياة، ثم أدرجها في كتاب (المقدمة).

ب - **الملاحظة الثانية**: إن ابن خلدون لم يستطع أن يكون موضوعياً أحياناً عند كتابته للمقدمة، فعلى سبيل المثال ينكر على المؤرخين نقلهم لقصة العباسة (أخت الرشيد) وعشقها لجعفر بن يحيى بن خالد وما جرى بعد ذلك، ففي حين يعترف ابن خلدون بإجماع كافة المؤرخين على نقل تلك الحادثة، فإنه يكذبها لا لشيء، إلا لأن

العباسة هذه امرأة يعود نسبها إلى ابن عباس[١١]، في حين أن طبيعة الأشياء التي يقرها ابن خلدون تقضي خلاف ذلك.

ج- **الملاحظة الثالثة**: إن ابن خلدون ومع أنه أحد علماء الدين لم تتخذ نظريته الصبغة الدينية رغم استشهاداته بآي القرآن والأحاديث النبوية، ولعل ذلك يعود إلى أمرين:

١- ربما يعتقد ابن خلدون بعدم وجود دور مهم وأساسي للدين في (الاجتماع)، وأنه لا دور له سوى لمّ الشتات الحاصل في البادية أو أنه قادر على إيجاد دولة كبيرة[١٢]، مما يعني أنه ليس للدين دور كبير لديه في علم العمران، وبالتالي عدم وجود مبرر (لأسلمة) هذا العلم الجديد.

٢- يؤمن ابن خلدون بأن الفقهاء أبعد ما يكونون عما سوى الفقه كالسياسة، وعليه فإن إعطاء علم العمران (صبغة دينية) معناه إفساح المجال للفقهاء كي يمارسوا دوراً خارج دائرة الاختصاص.

لكن ابن خلدون لم يمزج وقائع التاريخ بأخبار الكهانة كما فعل (هرودوت)، ولم يحاول أن يفسر التاريخ عن طريق تأثيرات النجوم، كما صنع (جان بودن)، وإنما حث على أن نتعرف أسباب وعلل الحوادث، فعلمنا أن للتاريخ ظاهراً وباطناً، رغم أنه كان أشعرياً يقتضي اعتقاده ترك النظر في الأسباب والعلل[١٣]، علماً أن موروثه من الفقه وغيره أثّر عليه في صياغة نظريته استدلالاً ومصطلحاً.

٢- النظرية

طبيعة العمران

يؤمن ابن خلدون بأن هناك (طبيعة) بشرية واحدة في تاريخ الإنسانية، وأن للتمدن والعمران والخراب طبيعة واحدة على مر التاريخ[١٤]، ومن هذه الطبائع (الاجتماع)، لذلك فهو ضروري بمعنى أن الإنسان بحكم ضعفه مجبور على الاستعانة بالغير، ولم يوضح ابن خلدون كيف يكون الشيء (مفطوراً من طبيعة الإنسان) في نفس الوقت الذي يكون

اكتسبه نتيجة العجز الذي يعني ضرورة الاستعانة بالغير. (إن الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبّر الحكماء عن هذا بقولهم: إن الإنسان مدني بالطبع، أي لابد له من الاجتماع، الذي هو المدينة في اصطلاحهم، وهو معنى العمران)[١٥] ويبدو أن ابن خلدون يرادف بين الطبع والاضطرار عن طريق التفكير بحاجاته، كما قد يظهر منه[١٦].

يعتقد ابن خلدون أن هناك ثلاثة أمور هي التي تخلق (طبيعة) الإنسان:

١- **الإقليم والطقس**: فإن من الأمور المتقدمة في الفكر الخلدوني هو ملاحظة العامل الجغرافي، حتى عده البعض أكثر عمقاً من (مونتسكيو) في الاهتمام بعامل تأثير الإقليم والطبيعة في أخلاق الإنسان وطباعه[١٧]، ففي حين كان يسود ذلك العصر اعتماد التغيير الأسطوري، والاهتمام بما ينقله الرواة في كيفية اختلاف ألوان البشر وأخلاقهم وأمزجتهم نجد أن ابن خلدون يترك كل ذلك، فيستنطق الواقع ويحاول أن يتلقى الجواب منه مباشرة، معترضاً على المسعودي ومن تابعه، من الذين عللوا الأمور بعلل واهية استنتجوها بواسطة المنهج التقليدي[١٨].

٢- **العامل الاقتصادي**: الذي يطالع مقدمة ابن خلدون يجد لحضور العامل الاقتصادي مكانة كبيرة في هذه الأطروحة، فحتى الاعتماد على طبيعة الاجتماع لدى الإنسان كان متأثراً بهذا العامل[١٩] ؛ لذا اهتم ابن خلدون بطبيعة الإقليم ومدى قيمته الاقتصادية، ملاحظاً أن سكان الإقليم الغني بالموارد الطبيعية أكثر رقة من سكان البادية أو سكنة الجبال، فكما أن الإقليم والطقس المعتدل ينتج مزاجاً معتدلاً، فإن اعتدال الإقليم اقتصادياً يخلق طباعاً معتدلة[٢٠]، إلا أنه لابد من القول بأنه لم يكن هذا العامل حسياً دائماً عند ابن خلدون.

٣- **التربية والتعليم**: للتربية والتعليم دور مهم في فكر ابن خلدون حول تكوين الطباع والأخلاق، غير أن هذه التربية على نوعين: سماوية عن طريق الأنبياء والأولياء، فابن خلدون يؤمن بالرياضة الصوفية والعرفانية،

ويعتقد بأن للدين قدرة على تهذيب أخلاق من يتصفون بالغلظة والأنفة والمنافسة - وهم الأعراب - (فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله يذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق)[٢١].

وهناك أيضاً تربية (أرضية) ولهذه التربية مدارس ومناهج مختلفة أبدى ابن خلدون ملاحظات قيمة فيها[٢٢].

الذي يطالع نظرية ابن خلدون يجد فيها صبغة أخلاقية واضحة، حيث يقسم المجتمع إلى (البدو) وهم أهل الأرياف وسكان البادية، و(الحضر) وهم أهل المدينة، وبما أنه يعتقد بتقدم (الضروري) على (الكمالي) فإنه يقدم البدو على الحضر ويجعل من الثاني فرعاً للأول[٢٣]، إذ مع أنه يرى أن البدو (الأعراب) وسكان الأرياف أبعد الناس عن العلم وتعلم المهنة والصنائع، وأنهم إذا انتصروا سياسياً فإنهم سيعتمدون سُنة النهب انطلاقاً من قاعدة الغنيمة.. رغم ذلك فإنه يعتقد بأن البدو أقرب إلى الخير من الحضر (وأهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها، قد تلونت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه.. وأهل البدو وإن كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم إلا أنه في المقدار الضروري لا في الترف.. فهم أقرب إلى الفطرة الأولى وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها فيسهل علاجهم عن علاج الحضر)[٢٤]. ولا تقف (الأخلاق) عند هذا الحد بل يرى ابن خلدون أن قيام الدولة يعتمد على أخلاق البدو وأن هرمها وفناءها مرتبط بمقدار ارتباطها بهذه الأخلاق، لكنه مع ذلك لا يمنح الأخلاق سمة العامل التام في هذا المجال وإنما لابد لصاحب السلطة من أن يكون محنكاً، فابن خلدون لا يوافق ميكيافيللي، بيد أنه ليس نقيضاً له، ولم يهمل ابن خلدون دور العامل الاقتصادي ونمط البيئة في تكييف الأخلاق، فبيئة البادية تصوغ الخشونة بخلاف بيئة

الحضر التي تتجلى فيها الرقة.

الدولة

يؤمن ابن خلدون بنظرية التعاقب الحضاري الذي يجري (دائرياً) خلافاً لمن يرى أنه يرسم التاريخ بصورة خط مستقيم صاعد[٢٥]، فإن الذي يطالع (المقدمة) يجدها ترسم خط الأحداث بشكل يجعلها متصلة مع بعضها حيث تتصاعد حتى تبلغ ذروتها في (قيام الدولة)، ثم بعد ذلك تعود من حيث بدأت، حيث تزول الدولة ويستأنف الحديث حول (البدو) والعصبية الجديدة. وليس الدين عند ابن خلدون هو الأساس لقيام الدولة، وإن كان موروثه الفقهي يمنعه من تجاوز أثر الدين في ذلك، الأمر الذي دعاه إلى معالجة مسألتين:

الأولى: في شروط صاحب السلطة العليا، حيث يرى أنها تتمثل في أربعة: العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس. ولا يشترط أن يكون الخليفة قرشياً وذلك لارتباط هذا بملاك (العصبية) كما يرى، والتي كانت سائدة في قريش سابقاً، والمتقرر لديه أن شوكة العصبية أينما تحققت فإنها تكون كافية[٢٦]، لذا فهو يقول: (ونحن إذا بحثنا عن الحكمة في اشتراط النسب القرشي ومقصد الشارع منه لم يقتصر فيه على التبرك بوصلة النبي ﷺ كما هو في المشهور، وإن كانت تلك الوصلة موجودة والتبرك بها حاصلاً، لكن التبرك ليس من المقاصد الشرعية..، فلابد إذن من المصلحة في اشتراط النسب، وهي المقصودة من مشروعيتها. وإذا سبرنا وقسمنا لم نجدها إلا اعتبار العصبية التي تكون بها الحماية والمطالبة ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المسكن فتسكن إليه الملة وأهلها وينتظم حبل الألفة فيها، وذلك أن قريشاً كانوا عصبة مضر وأهلهم وأهل الغلب منهم)[٢٧]، والملاحظ في هذا النص أن ابن خلدون يستخدم منهج (السبر والتقسيم) لمعرفة مدلول هذه الأخبار، وهناك ملاحظة أخرى أهم وهي أن ابن خلدون يولي (مقاصد الشريعة) أهمية أساسية، مما يعني أنه كان يفكر

بذهنية مقاصدية، الأمر الذي ساعده في جعل هذه الأخبار منسجمة مع نظريته من جهة، وأبعاد عقائد الخصم من جهة أخرى.

الثانية: يعتقد ابن خلدون أن الأمور قد تغيرت، حيث انقلبت الخلافة إلى (المُلك) ؛ لأن الخلافة ما هي إلا أحد فصول التاريخ، فيكون من الطبيعي بل الضروري أن تنقلب إلى شيء آخر[٢٨]، وعليه فإن الكيان السياسي قد طرأ عليه التبدل واتخذ أبعاداً جديدة، فبعد أن كانت السلطة ملكاً لمن تجتمع فيه تلك الصفات الأربع، أصبحت اليوم ملكاً لصاحب العصبية الأقوى ؛ لأن غاية العصبية هي ذلك، ومما يبنى على هذا أن الفقهاء بعد أن كان دورهم تعيين الشروط الأربع في الخليفة الجديد، فإن تدخلهم في السياسة أصبح مضراً، إذ بات الواقع السياسي الجديد لا يتلاءم مع السياقات الفقهية مما يبعد الفقهاء عن السياسة (والسبب في ذلك أنهم معتادون للنظر الفكري والغوص في المعاني وانتزاعها من المحسوسات وتجريدها في الذهن أموراً كلية عامة ليحكم عليها بأمر العموم لا بخصوص مادة ولا شخص ولا جيل ولا أمة ولا صنف من الناس.. وأيضاً يقيسون الأمور على أشباهها وأمثالها بما اعتادوه من القياس الفقهي فلا تزال أحكامهم وأنظارهم كلها في الذهن.. والسياسة يحتاج صاحبها إلى مراعاة ما في الخارج وما يلحقه من الأحوال)[٢٩]. ولكن من هو الذي غيّر الأمور وجعلها تصل إلى هذا الحد؟ يجيب ابن خلدون: إنها سنّة وقانون العصبية الذي لا يعرف الرحمة. فقد عرفنا سابقاً أن ابن خلدون يؤمن بأن البدو هم أصل المجتمع، والمجتمع البدوي ولضيق محيطه الاقتصادي يتسم بالخشونة، لكن ولأن العمران البشري لابد له من سياسة تنظم شؤونه، ولأن الاجتماع أمر ضروري كما يقول، فكان لابد من وجود تشكيل سياسي يحفظ هذا التجمع البدوي، ويتمثل هذا التشكيل بالقبيلة التي تكون خاضعة ومطيعة لصاحب الرئاسة الأوحد، وهذا الشخص لم يصل إلى

الرئاسة والزعامة عن طريق الشورى أو عن رضا قلبي ؛ لأن البدو أصحاب أَنَفة ومنافسة، لذا يكون تنصيب الزعيم خاضعاً لقانون (الزعامة للأقوى) ذلك أن الرئاسة كالتفاعل الكيميائي حيث يكون التغلب فيه للعنصر الأقوى (لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج المتكون وهذا لا يصلح إذا تكافأت العناصر فلابد من غلبة أحدها.. فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية)[٣٠]، وبعد أن يتم هذا التشكيل القبلي تمارس القبيلة فعالياتها في كسب العيش عن طريق الرمح والسيف، ولما كانت الأمم الوحشية أقدر على الحرب، يكون انتصار القبيلة أمراً مفروغاً عنه، حسب منطق الحسابات الخلدونية[٣١]. ولأن الإنسان كلما وصل إلى رتبة طلب ما فوقها فتكون غاية (العصبية هي الملك، إذ كلما انتصرت القبيلة الأقوى التحمت معها القبيلة المغلوبة إلى أن يتم الأمر إلى بلوغ الهرم وهو تشكيل الدولة)[٣٢]. بعد ذلك يتم الانتقال من طور البداوة إلى طور الحضارة حين يتم الاستيطان، فيبادر (البدو) إلى تقليد أصحاب الحضارات السابقة في ألوان المعاش وأساليب الإدارة (فطور الدولة من أولها بداوة ثم إذا حصل الملك تبعه الرفاه واتساع الأحوال والحضارة)[٣٣]، بعد ذلك يبنى بيت المال، وتعلم المهن والصنائع وتفتح الأبواب للعلم، بل يصل الأمر إلى استقالة العصبية، فإنه بعد أن تستقر الدولة فإن بالإمكان الاستغناء عن العصبية (والسبب في ذلك أن الدولة في أولها يصعب على النفوس الانقياد لها إلا بقوة قوية من الغلب، للغرابة وأن الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه، فإذا استقرت الرئاسة في أهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحداً بعد آخر في أعقاب كثيرين نسيت النفوس شأن الأولوية واستحكمت لأهل ذلك النصاب صبغة الرئاسة ورسخ في العقائد دين الانقياد لهم والتسليم)[٣٤]. لكن هذا ليس هو الغالب بل الغالب هو العصبية، فهي تتحول - حتى في حال استتارها - إلى عصبية من نوع آخر غير قائم على النسب، فإن العصبية تمتد إلى أربعة

أعقاب وتنتهي. وبعد أن تستقر الدولة وتتسع بفضل الدين مثلاً يحصل الانفراد بالمجد، إذ من الطبيعي أن يكون الحاكم واحداً بحسب الكيمياء الخلدونية، لكن هذه المعادلة تنقلب إلى الضد فيتم إلغاء العنصر الغالب، فبعد أن يتعين الأقوى ويستلم السلطة، يقوم بإبعاد من ناصره وشاركه في استلام السلطة (فمن الطبيعة الحيوانية خُلق الكبر والأنفة فيأنف حينئذ من المساهمة والمشاركة في استتباعهم والتحكم فيهم، ويجيء خُلق التألّه في طباع البشر مع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحاكم لفساد الكل باختلاف الحكام.. فتجدع حينئذ أنوف العصبيات وتُفلح شكائمهم عن أن يسموا إلى مشاركته)[٣٥] فيأخذ هذا الأقوى بالاعتماد على الأجانب، وإذا عرفنا أن من طبيعة الملك الدعة والسكون والترف[٣٦] أمكن التنبؤ بما سيحصل آجلاً، ذلك أن المباشر الأول للسلطة يتسلمها بعد تعب وجهد، بخلاف الذي سيتلوه فيها، وحين يؤول الأمر إلى جيل الخلف الرابع الذي يضيع الأصول التي ملكت وسادت بها آباؤه فيكون رقيقاً ضعيفاً بخلاف أخلاق البدو التي بها قامت الدولة، وحسب هذا يكون للدول (بانٍ، ومباشر، ومقلد، وهادم)[٣٧]، ومن هنا يؤمن ابن خلدون بأن للدولة عمراً، كما هو الحال لدى الأشخاص، فهي تمر بالبداوة والحضارة والهرم والموت[٣٨]، حيث يتم ذلك في الجيل الرابع الغارق في بطر العيش والملذات.

سؤال أخير: الأمر الذي لا نقاش فيه هو أن ابن خلدون أولى (الدولة) اهتماماً كبيراً في نظريته بل اعتبر البعض أن مسألة الدولة هي القضية الجوهرية[٣٩] في نظريته، فهل التاريخ عند ابن خلدون هو تاريخ دول وحضارات أم تاريخ شخصيات؟

إذا صادقنا على الرأي القائل بأن نظرية ابن خلدون هي نظرية في (الدولة) وأخذنا بالاعتبار الصيغة القسرية التي يكرسها ابن خلدون، والتي تجعل الأشخاص مجبورين تحت الضغط الاجتماعي والبيئي والاقتصادي وتدفعهم نحو تكوين

الدولة، وأن أدوار التاريخ ما هي إلا مراحل ولادة الدولة واستقرارها وهرمها وبالتالي موتها أو انتحارها.. إذا أخذنا بهذه الأمور أمكن القول: إن التاريخ في تصور ابن خلدون هو تاريخ حضارات ودول.

أما إذا أخذنا بالاعتبار أن ابن خلدون كان غرضه بيان طبيعة العمران البشري، وهو على الرغم من اهتمامه بالدولة وجعله ازدهار العلوم والصنائع في ظل المدنية، فإنه لم يصرح -أو لم يعط تلميحات كافية- بأن مراحل التاريخ هي مراحل الدول، فإذا أضفنا إلى ذلك إيمانه بأن صانع الدولة هو الأقوى، ولو قلنا بأنه يقسّم مراحل التاريخ حسب الدول، فإنه يبقى تحليل ابن خلدون لكيفية ولادة الدولة وسقوطها، بشكل يجعلها مرهونة بالاقتراب والابتعاد من شخصية البطل، وسيكون التاريخ في نظره هو تاريخ الشخصيات، وبهذا المعنى يغدو عمل ابن خلدون تاريخاً للبطل.

التربية والتعليم: بما أن ابن خلدون حاول دراسة طبيعة العمران البشري فليس غريباً أن يتطرق إلى العلوم والصنائع ؛ لأنها تمثل ذروة هذا العمران، حيث وجدها تنعدم في البدو وتظهر في الحضر. وقد ركّز ابن خلدون على مسألة التربية في نظريته، كما أنه كان دقيقاً من أول الأمر في تحديد مسألة المنهج، فلم يكن من أولئك الذين يحددون المعرفة والحقيقة بأحد الطرق (البرهان، العرفان، البيان) بل كان يرى أن لكل علم منهجه الخاص به، مع إيمانه بالمنطق القديم، وإن ادعى البعض تضاد ابن خلدون مع ذلك المنطق، غير أن الصحيح هو اهتمام ابن خلدون بذلك المنطق كما يتضح في (المقدمة)[٤٠]. لقد تكلم ابن خلدون عن العلوم كلاً على حدة، وبسط الكلام فيها يخرجنا من هذا المدخل، غير أن ذلك لا يمنعنا من ذكر بعض ملاحظات ابن خلدون.

١- اهتم ابن خلدون _ وهو يتحدث عن تاريخ العلوم _ بالتطرق إلى مسائل ذلك العلم ومنهجه، أي أنه ذكر مسائل العلم ومنهجه بجوار تاريخ العلم، وقد جاء ذلك عبر اهتمامه بأن

لا يكون كلامه مجرد (صورة) فقط، وهذه الرؤية تعتبر متقدمة في طريقة تدوين تاريخ العلوم لم تظهر إلا مؤخراً.

٢- اهتمام ابن خلدون بمسألة التخصص في العلوم، فبالرغم من انتماء ابن خلدون إلى عصر كان معنى (العالِم) فيه يقتضي العلم بكل شيء، نجده يستنكر الاهتمام بجمع كل شاردة وواردة في العلم، بل يدعو إلى الاهتمام بالمسائل المهمة فقط، لذا كان يرى كثرة التآليف في العلوم مضرة ومعيقة للتحصيل[٤١].

٣- اهتمام ابن خلدون بالظواهر الجديدة، كاللهجة الدارجة والموشحات، والارتقاء بها بجعلها علماً يستحق الدراسة والبحث، وهو موقف منهجي بالغ الأهمية في دراسة الظواهر الاجتماعية، دراسة علمية منهجية.

٤- مثلما كان ابن خلدون مهتماً بمسألة التربية اهتم أيضاً بكيفية التعليم، فأبدى ملاحظات متقدمة جداً، قياساً بذلك العهد، وهكذا يمكن اعتبار جهوده منطلقاً لعلم التربية ومناهج التعليم، لولا انهيار الحضارة الإسلامية وضياع (مقدمة) ابن خلدون في إنقاض هذه الحضارة[٤٢]. غير أن أطروحته وجدت موطناً آخر احتضنها، فوجد فيها سعياً لتحليل الواقع في الحضارة الإسلامية، مما دعاهم إلى القول بأن ابن خلدون لو اطلع على تاريخ العالمين (الكلاسيكي والمسيحي) لكانت رسالته أعظم وأثمن الرسائل في الأدب العالمي[٤٣].

ثانياً: محمد باقر الصدر

١. المنهج

إذا كانت الصعوبة في الكتابة عن ابن خلدون تكمن بتنوع كتابات ابن خلدون عن علم المنهج والاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية والتاريخ، فإن ذات هذا الأمر موجود عند الشهيد محمد باقر الصدر، لكن بينما كان أسلوب ابن خلدون متعباً للقارئ، نرى كتابات الشهيد الصدر بخلاف ذلك، فقد كان هذا الرجل يسلب عقول قرائه شغفاً بأسلوبه الممتاز، الذي من أبرز

صفاته أنه (السهل الممتنع).

لقد كان الصدر كابن خلدون رجلاً موسوعياً، لكنه لم يكن حافظاً ومقلداً، وإنما كان الصدر يأبى إلا أن يدلي بدلوه حينما يكتب في المنطق ومناهج البحث أو في السياسة وفي الاجتماع أو في الفقه وفقه النظرية الاقتصادية، إذ كان الصدر يحمل همّ التأصيل في كل ما يكتب، وكان لهذا الأمر طبعاً أثر إيجابي لملء الفراغ الذي كان يعاني منه المشهد الثقافي الإسلامي، غير أن ذلك لم يكن هيناً بحيث يمكن أن يتحمله رجل واحد، وإن كان الصدر رجلاً مثقفاً بحق، لذا حاول أن يستفيد من كل شيء، فيوظف حساب الاحتمال - وله نظرية خاصة هنا - ليحدد وثاقة الخبر ويعطي أبعاداً أخرى لمباحث الرجال والدراية، كما استطاع بفضل الإنجازات العلمية أن يعطي لأصول الفقه صبغة أخرى، واستفاد من نظرية الاقتران الشرطي لصياغة نظرية (القرن الأكيد) في اللغة[٤٤]. وكان همّ الصدر من وراء ذلك هو تكوين صورة نظرية عن موقف الإسلام في كل حقل من الحقول العلمية ؛ ولذا كان الصدر يحاول أن يمارس نوعاً من (الأسلمة) لبعض المعطيات العلمية، حيث يتم تذويبها ضمن تلك الصورة المكوّنة. وعمل الصدر هذا كان يعتمد على إبراز ثلاثة عناصر:

١- العقل.

٢- الواقع ومعطيات الظرف الاجتماعي.

٣- الدين.

فقد كان الشهيد الصدر ذا نزعة عقلية واضحة، كما نلاحظ في (الأسس المنطقية للاستقراء) في حين لم يكن مهتماً بالتصوف والعرفان بخلاف ابن خلدون[٤٥]، بل كان يُعمل العقل دائماً كطاقة وظيفتها اكتشاف الكون والإنسان ومدى انسجام الدين مع ذلك (كما أن مواجهة الصدر للتيارات المعادية للدين، جعلته - وهو فقيه النجف - يدرس هذه المناهج والمدارس ويعود مرة أخرى لمراجعة التراث الإسلامي ليخرج بنظرية إسلامية تمثل (الذات) في معركتها

هذه، مما جعل الصدر يقوم بمراجعة (حفرية) للتراث، قادته إلى أن يستل من التراث الإسلامي ثلاثة جوانب:

١- جانباً ثابتاً لا يتغير.

٢- جانباً متغيراً لارتباطه بظرف معين.

٣- جوانب أخرى تفهم عبر مطالعة الشريعة والتراث تكون هي (روح) الشريعة، حيث أن للإسلام غايات عليا تمثل روح النصوص الناطقة باسمه (مقاصد الرسالة)[٤٦].

لقد لاحق الشهيد الصدر هذه المعطيات عبر مطالعاته المتعددة، ومن هنا انبثقت نظريته المسماة بـ(منطقة الفراغ) لكن عبقريته جعلته يوظف هذه النظرية في البحث الفقهي دون المساس بقيمة النظرية الإسلامية[٤٧].

على أن الشهيد الصدر حينما واجه التيارات الفكرية غير الإسلامية لاحظها تنطلق من أرض الواقع ومشاكل الإنسان المعاشة عبر معطيات الواقع نفسه، في حين وجد أن الفكر الإسلامي مشغول بالتفكير طبقاً لمناهج قديمة، وأن الباحثين الإسلاميين يقضون أعمارهم مع نظريات العقل الفعال، ومسائل البئر والعبيد، حتى أصبح الفكر الإسلامي مناقضاً لأهداف منابعه الأولى (قرآناً وسنة)، الأمر الذي دعاه لإنتاج خطاب جديد تتجلى حداثته في الاهتمام بمشاكل الإنسان المعاصر، فنبذ البحوث التي لا نفع فيها وجاء ليعالج المشاكل المطروحة، كما عمل على توزيع التراث الإسلامي على جبهات متعددة، واضعاً في كل بحث مقدمة تشير إلى أن المنهج يتحدد وفقاً لطبيعة موضوعه، لذا فقد كان منهجه في (فلسفتنا) غيره في (اقتصادنا) وغيره في (المدرسة القرآنية)، وإن كانت روح الفقيه لا تفتأ تلاحقه كما هو واضح في كتابه (أهل البيت..) مثلاً، أي أن الشهيد الصدر في هذا الجانب شابه ابن خلدون تماماً، غير أن الأمر الملاحظ عند الشهيد الصدر هو مقدرته الكبيرة على مزج قراءاته المعاصرة وخبرته في التعامل مع التراث وإنتاجه آلية جديدة في البحث.

فقد مزج الصدر بين معطيات علم المنهج الحديث وطريقة السبر والتقسيم، فجاء بحثه في نظرية الإمامة متماسكاً جداً، فبينما برهن ابن خلدون على أن الإمامة في قريش شرط اقتضته (العصبية) وأنه لا يوجد نص على الإمامة بالمعنى الذي تقوله الشيعة[٤٨]، نجد الشهيد الصدر أثبت العكس عبر تقرير ثلاث فرضيات: (إهمال الأمة، تعيين أو تفويض النبي الخلافة إلى الشورى، التعيين والاختيار) ودرسها في إطار طبيعة المجتمع في ذلك العصر، وحركة الرسول ﷺ فيه، ثم يقيّم كل واحد من هذه الفروض ليستخلص النتيجة وهي - دون شك - مخالفة لابن خلدون[٤٩].

نلاحظ أن الشهيد الصدر يسير بشكل تقليدي في دروسه العالية في أصول الفقه، كما أنه في (فلسفتنا) يخطو خطوة أخرى، لكنها ليست بعيدة المدى، لكون هذا الكتاب جاء جواباً عاجلاً للتحدي الماركسي حينذاك، بخلاف منهجه في (اقتصادنا) و(المدرسة القرآنية) حيث كان الشهيد الصدر في الاقتصاد وفي التفسير يعتمد مساراً بحثياً واحداً، عندما وظف منهجه العلمي المطروح في اقتصادنا، ضمن محاولته تحديد أسلوب التفسير الموضوعي أو التوحيدي للقرآن الكريم، عبر استقراء الآيات والمسائل القرآنية والسعي لتحديد روح الإسلام ومضامينه العامة، ليصار بعدها إلى عرض مشاكل المسلم المعاصر على النص القرآني، في محاولة لاستنطاقها ضمن سياق تحديد الوظيفة والموقف إزاء هذه المشكلة أو تلك[٥٠].

تتميز كتابات الشهيد الصدر بثلاث سمات رئيسية:

١- الوضوح في الخطاب، مع الاهتمام بجانبي الأصالة والمعاصرة معاً.

٢- تكوين صورة واضحة لما يكتنف الموضوع المعالج، من خلال توضيح ما يحيط به من أمور.

٣- تحديد موقف واضح من الإشكالية المطروحة، بمعنى أن كتاباته

اتسمت بالحسمية بعيداً عن ممارسة المراوغة والتضليل، فنجده يحاول إعطاء مواقف محددة دائماً.

٤- الحرص على الاتزان العقلاني في الكتابة، وتجنب الصخب أو تعاطي المفردات الانفعالية الحادة، والابتعاد عن طريقة السجال والجدل العقيم، حتى وإن كان البحث في أكثر الأمور حساسية، كما هو الحال في (بحث حول الولاية).

كما أن الصدر يحاول دائماً أن تكون استنتاجاته وبراهينه وجدانية مقنعة لكافة المستويات العلمية ؛ لذا فهو يفتخر بأنه استطاع إعطاء دليل علمي على وجود الله بشكل يتوافق مع الوجدان، خلافاً لاستدلالات علماء الإسلام القدامى: حيث أن براهين علم الكلام التقليدية لم تكن لتقنع إلا فيلسوفاً أو متخصصاً في لغة الجدل تلك، (هذا إضافة إلى أن الدليل التجريبي على وجود الله - الذي يضع هذا الكتاب [الأسس المنطقية للاستقراء] أساسه المنطقي.. أقرب إلى الفهم البشري العام، وأقدر على ملء وجدان الإنسان - أي إنسان - وعقله بالإيمان من البراهين الفلسفية ذات الصيغ النظرية المجردة التي يقتصر معظم تأثيرها على عقول الفلاسفة وأفكارهم)[٥١].

٥- اهتمام الشهيد الصدر بإرجاع الأمة إلى ذاتها، فخطاب الصدر يتسم بأنه خطاب تثويري تارة وتربوي تارة أخرى، لكن ذلك يكون عادة في مقدمة البحث أو نهايته، أما أثناء البحث فيغيب هذا الأمر حيث يسير الصدر وفق منهج علمي خالص.

من هنا نجد أن كلاً من ابن خلدون والصدر كان يبحث في علوم متعددة، وحاول أن ينظر إلى موضوع كل علم ويتعامل معه بمنهجية مختلفة.

أما أبرز ما يتصف به منهج الصدر في البحث فهو:

١- تحديد المصطلح وتحديد نوع الدليل: حيث يبدأ الشهيد الصدر بتحديد المصطلحات أولاً، فيحاول تحديد ما هو المراد من (اقتصادنا) أو

(فلسفتنا) أو (الأسس المنطقية للاستقراء) أو (أصول الدين) أو (التفسير الموضوعي) وذلك في مقدمة كل كتاب من هذه الكتب، وبعدها يحدد نوع الدليل الذي يمكن استخدامه في هذا الموضوع، وهل بالإمكان استخدام أكثر من منهج؟ كأن نستفيد من الدليل التجريبي إضافة إلى العقلي أو دليل النص[٥٢]، ومدى الفارق بين المصطلحات، أو حجم التباين بين الأدلة[٥٣].

٢- تحديد المشكلة المطروحة: حيث يحدد الشهيد الصدر -قبل الدخول إلى البحث- المشكلة أولاً، فيحددها في إمكانية وجود مذهب اقتصادي - مثلاً - أو هل يمكن الاستدلال على أصول الدين؟

٣- بيان موضوع البحث وهدفه: وهو أمر تعلمه الشهيد الصدر - علاوة على تأثير قراءاته المعاصرة - من منهج البحث التقليدي في الحوزة، حيث يتم تعيين الموضوع بشكل دقيق ومعمق قبل بدء عملية البحث[٥٤].

٤- بيان ترتيب مراحل البحث: حيث يحرص الشهيد الصدر على بيان كيفية سير البحث، وله نظرية خاصة في المنهج قام بتطبيقها فعلياً في كتابه (دروس في علم الأصول) فقد ابتكر الصدر طريقة جديدة في تبويب بحوث أصول الفقه تواكب وعي الطالب وتؤهله لتطبيق القواعد الأصولية خلال ممارسة الاستنباط الفقهي[٥٥].

٥- حجية الدليل: من الأمور الملاحظة لدى الشهيد الصدر هي اهتمامه بأن لا يكون طرحه مصادرة على المطلوب، أو يكون استدلاله معتمداً على أمور لم يفرغ من مناقشتها مع الآخر، ومن هذه الأمور الاهتمام بحجية البرهان والمنهجية التي يسير وفقها، لذا يقوم في (فلسفتنا) بالاستدلال على (استحالة التناقض) والاستدلال على كون المبدأ الذي تستند إليه التجربة هو ذات المبدأ الذي تثبت به بعض أصول الدين، كما هو الحال في بحثه العقائدي وفي (الأسس المنطقية للاستقراء)[٥٦]، لذا نجده عالج أموراً نظير حجية الاستقراء

الـذي أنجـز فيـه خطـوة جريئـة جـداً، بخـلاف مـا كنـا نلاحظـه عنـد ابـن خلـدون، الأمـر الـذي انعكـس علـى بعـض بحوثه ومنحهـا متانـة وتماسـكاً جليين، كبحـث توثيـق الأخبـار، حيـث تجاوز فيه الصـدر طريقـة ابـن خلـدون، حـين اسـتطاع تطـوير مـا ذكـره بشـأن صدق الرواة أو كذبهم وطبيعـة الأخبـار المنقولة[٥٧].

وبما أن الشهيد الصدر كان يحـاول أن يعتمد في تنظيره على التراث وعلى المعطيـــات العامـــة للفقـــه وقواعـــد الإسـلام، نجـده يضـع عـدة مقـدمات يشـرح فيهـا مشـكلة الباحـث مـع هـذا التـراث، فركّـز اهتمامـه علـى قضـايا تتمحـور حـول إشـكالية معرفيـة مهمـة تتمثل في عدم خروج أي نظريـة - يـتم تركيبهـا مـن خـلال التعامـل مـع النصـوص - عـن كونهـا اجتهـاداً مـن الاجتهادات وبالتالي يكتنفها ما يلي:

أولاً: كـون هـذا الاجتهـاد ممـثلاً لحصـــيلة نظـــر الباحـــث ولا يمثـــل بالضرورة رأي الإسلام الواقعي، عـلاوة على وجود اجتهـادات أخـرى مخالفـة، وهنا يعتمد الشهيد الصـدر علـى خبرتـه في العلـوم التقليديـة، حيـث يقـول: أن المطلـوب هـو اسـتفراغ الجهـد فـي التعامل مع النص، وليس من الضروري أن تكون نتيجة البحـث مطابقـة لواقـع الموقـف الإسـلامي، وحـين تتعـدد الاجتهادات نختار (أقدرها على معالجة مشاكل الحياة وتحقيق الأهداف العليـا للإسـلام)[٥٨]، ممـا يفيـد أن الصـدر لا يعني بذكر نظرية إسلامية إعطاء صورة نهائيـــة تمثـــل الموقـــف الإســـلامي الواقعي، وإنما يطـرح إمكانيـة الخـروج بنظريـة إسـلامية فـي هـذا المجـال أو ذاك تمثل اجتهاداً من الاجتهادات[٥٩].

ثانياً: بما أن وظيفـة الباحـث هـي وظيفة اجتهاديـة فهـي مبـتلاة بمـنهج بعض النصوص التي تعالج موضـوعاتها بشـكل مبـاين لمـا هـو مطـروح اليـوم، مضافاً إلـى انعـدام النصـوص المتعلقـة مباشرة بالموضـوع، فيمـا دعـا الشـهيد الصـدر إلـى تفعيـل الأداة الاسـتقرائية لملاحقـة النصـوص وفـرز خصائصـها وتحديد مدى ارتباطهـا بظـرف معـين أو خضـوعها لسـياق خـاص، كمـا لاحـظ

الصدر - على مستوى إشكالية الباحث - خطر (الذاتية) على عملية من هذا النوع خصوصاً وأن (الذاتية) قد تكون ضرورية أحياناً[٦٠]، ومن هنا راح الصدر يبحث عن مصادر هذه النزعة (الذاتية) فوجدها متمثلة بأربعة أمور:

١- **تبرير الواقع**: وتأتي جرّاء تباين القناعة أو الموقف المكتسب من مجريات العصر مع النصوص. مما يؤدي بالباحث إلى تطويع النص وتأويله وفقاً لذلك الموقف، فيرى الشهيد الصدر (أن عملية تبرير الواقع هي المحاولة التي يندفع فيها الممارس - بقصد أو دون قصد - إلى تطويع النصوص وفهمها فهماً خاصاً يبرر الواقع الفاسد الذي يعيشه الممارس ويعتبره ضرورة واقعة لا مناص عنها)[٦١].

٢- **دمج النص ضمن إطار خاص**: وهذا الإطار يكون من إفرازات الواقع أو ينتج من الاعتماد على إحدى المسلّمات التي يظن بارتباطها مع النص في حين أنها ليست كذلك، ويذكر الشهيد الصدر لذلك أمثلة عدة منها ما يُستدل به على تشريع الملكية الخاصة في الأرض على ضوء اقتضاء الحاجة لذلك ؛ لأن الإنسان ليس كالبهائم وإنما هو مدني بالطبع يحتاج المأوى، فيعلّق الصدر على ذلك بأننا (نعترف طبعاً بوجود الملكية الخاصة في الإسلام.. ولكن الشيء الذي لا نقرّه هو أن يُستمد الحكم في الشريعة من الرسوخ التاريخي لفكرة الملكية.. ولو استطاع هذا الممارس -للاستدلال- أن يميّز بين سكنى الإنسان مسكناً خاصاً وبين تملّكه لذلك المسكن ملكية خاصة لما خدع بالتشابك التاريخي بين الأمرين)[٦٢]، وتأتي في هذا السياق مسألة تاريخية المصطلح اللغوي وما يلعبه من دور مهم (كما إذا كانت الكلمة الأساسية في النص لفظاً مشحوناً بالتاريخ أي ممتداً ومتطوراً عبر الزمن، فمن الطبيعي أن يبادر الممارس بصورة عفوية إلى فهم الكلمة كما تدل عليه في واقعها لا في تاريخها البعيد..)[٦٣].

٣- **تجريد الدليل الشرعي من ظروفه وشروطه**: لقد لاحظ الشهيد

الصدر أن الدليل الشرعي مرتبط بجملة شروط وظروف لا يمكن الاتكال عليه دون أخذها بعين الاعتبار. وأكثر ما يبتلي الباحث بهذا الالتباس المنهجي في مورد لدى استخدامه لدليل الإمضاء أو التقرير الصادر من الشارع، لذا فإن الشهيد الصدر يضع عدة ضوابط لعملية الاستدلال بهذا النمط من الأدلة[٦٤]، بنحو يمكن فيه ملاحظة كل ما هو دخيل في تحديد حجيته أو تنقيح مفاده، وفي الحقيقة فإن هذه السمة المنهجية هي التي أتاحت للشهيد الصدر أن يمنح الفكر الفقهي والإسلامي أبعاداً جديدة، حيث لم يكن الإسلام لديه مجموعة نصوص وحسب.

٢.النظرية
طبيعة الدين وتأسيس الدولة

إذا لم يكن الدين يحتل مكانة كبيرة في فكر ابن خلدون، فإن العكس هو الصحيح بالنسبة للشهيد الصدر، فبينما يحاول ابن خلدون اكتشاف (طبيعة العمران البشري) نجد الصدر يسعى إلى اكتشاف طبيعة العقل والعلم والدين، للبرهنة على حجم انسجام هذه العناصر الثلاثة، ليطرح تصوره حول قدرة الدين على تحقيق أهداف العلم وأماني الإنسان، حيث لا يعتقد أن الدين مجرد طقوس عبادية تنظّم العلاقة بين الإنسان والمطلق (الله) كما يقول (ولتر ستيس)، أو أن طاقة الدين تتجلى في البعد العرفاني أو الصوفي كما يرى إقبال[٦٥]، بل يعتقد الشهيد الصدر بأن الدين أوسع من ذلك بكثير، ذلك التصور الذي ساهمت في بلورته لديه عوامل متعددة، علاوة على ما ذكرناه من مواصفات المنهج الذي اعتمده، وتلك العوامل هي:

١- تحليل دور الدين في التاريخ: حيث يعترض الشهيد الصدر على من يقول: بأننا لا نتوقع من القرآن - فضلاً عن السنة - أن يعطينا نظريات متعددة في مختلف الحقول العلمية ؛ لأنه كتاب هداية وحسب[٦٦]، ويسجل ملاحظتين على ذلك:

أ - أن النبوة ظاهرة تطورت بتطور وعي الإنسان ومشاكله، وعليه فلابد

مـن أن يكـون للمرحلـة الأخيـرة منهـا موقـف وكلمـة إزاء الكثيـر مـن الأفكـار لتحديد مشاكل الإنسان وعلاجها[٦٧].

ب - أن الدين حركة لتغييـر الواقـع، وهي تمتـاز بكونهـا وحيـاً مـن السـماء، فهي من هذه الجهة فوق التاريخ، لكن هـذه الحركـة الدينيـة مـن جهـة كونهـا ظاهرة ذات تجليات اجتماعيـة تخضـع لأحكام التاريخ وتتم في إطـاره، وذلـك حينمـا تلحـظ بوصـفها متجسـدة فـي جماعـة مـن النـاس هـم الرسـول ﷺ وأصـحابه إذ تصـبح عمليـة بشـرية[٦٨]، وحيـث كـان فعـل وسـلوك أصـحابه (كنمـوذج لسـيرة المتشـرعة) محكومـاً بسنن التاريخ، فإن هـذا يعنـي تجسـيد الدين لحالـة تاريخيـة، وبهـذا اسـتطاع الشـهيد الصـدر أن يعطـي للمفـاهيم والمبـادئ الدينيـة أبعـاداً أخـرى فـي علاقتهـا مـع الإنسـان، وعمـم هـذا التصوير ليستوعب أشـد الأمـور غيبيـة، وهي أصـول الـدين حيـث اسـتلّ منهـا مداليل جديدة في إطار رؤيته هذه[٦٩].

٢- مقارنـــة الـــدين بالنظريـــات الأخـرى: فبـدلاً عـن أن يقـارن بـين نظرياته ونظريات الآخـرين -كمـا صـنع ابن خلدون- قام الشهيد الصدر بمقارنـة الدين بالنظريات الأخرى، مـن خـلال نقده لها، فكشف بذلك ما يبتنـي عليـه الـدين مـن هيكـل، فوجـد أن الأصـل الذي ترتكز عليه العلوم هو ذات الأصل الذي يعتمـد عليـه إثبـات أول المبـادئ الدينية (وجود الله) كما تشـترك العلـوم مع الدين في بعض المعتقدات[٧٠].

٣- اسـتقراء النصـوص وتحليلهـا: فـإن خبـرة الشـهيد الصـدر واسـتقراءه للنصوص الدينيـة مميـزه، إذ هـو فقيـه أصـولي يلاحـق النصـوص ويحلـل مدلولاتها بدقة وعمق، ممـا مكّنـه مـن إدراك سـقم العديـد مـن الانتقـادات الموجهة للدين[٧١].

من هنا نستنتج أنه بينما كـان ابـن خلـدون لا يهـتم بمعالجـة النصـوص الدينية حينما طرح نظريته، إلا بشـكل نادر، وذلك في مناقشة نهي النصـوص عن العصـبية والتعـرب، كمـا لـم يهـتم بمـنح نظريتـه الطـابع الـديني، نجـد العكس تماماً لدى الصـدر، حيـث كـان يستعين بالنصوص فـي عمـوم مباحثـه

ودراساته، مما برر له أن يعتبرها إحدى وجهات نظر الإسلام ؛ لأنها نتيجة علمية انبثقت عن اجتهاد فقيه من فقهاء الإسلام.

لقد كان الشهيد الصدر يعتقد بأن الحركة الدينية تسير نحو تأسيس الدولة، مما جعله يوليها الأهمية الكبيرة، حيث يرى أن الوحي (الدين) هو المربي الأول للبشرية الذي لا يمكن أن تبلغ الكمال بدونه، وذلك لطبيعة الإنسان المحدودة (لأن البشرية بدون الوحي ليس لديها إلا حس بالمادة، وإدراك عقلي غائم قد يصل إلى الإيمان بالقيم والمثل وبالله، إلا أنه إيمان عقلي على أي حال، لا يهزّ قلب هذا الإنسان)[٧٢]. فالدين عند الصدر ليس هو الدين عند الغزالي مثلاً والذي يتصور أن الدين لأجل الآخرة فقط، بل هو لدى الصدر يتسع للدنيا والآخرة، حيث تجري أهم فعاليته في الحياة الدنيا، وفقاً لما بلوره في مفهوم (خلافة الإنسان) على الأرض حيث يرى وفق ذلك أن المشاكل التي يعاني منها المجتمع تعالج بمفهومات وتشريعات الدين، لكن هذا لا يعني أن الدين سيتدخل بشكل مباشر ليلغي كافة الاختصاصات العلمية، بل للأخيرة دور مهم في عملية التطبيق وذلك ضمن الممارسة التشريعية في (دائرة الفراغ الشرعي)، لكن كلام الشهيد الصدر يظل غير كاف في إيضاح ما يتعلق بهذه الدائرة[٧٣]، غير أن الصدر يعتقد أن هذا الدور المتميز للدين لا يمكن الاستفادة منه بشكل كامل إلا في ظل الحكومة الدينية، وهو يؤمن بعدة أفكار في مجال تكوين الدولة، نوجزها فيما يلي:

أولاً: الدولة ظاهرة نبوية لا أرضية، حيث ينص على أنها (ظاهرة اجتماعية أصيلة في حياة الإنسان، وقد نشأت هذه الظاهرة على يد الأنبياء ورسالات السماء)[٧٤]. وعلى غير عادته لم يذكر الشهيد الصدر هنا دليلاً على تفسيره هذا لنشوء الدولة سوى الآية (٢١٣) في سورة البقرة، وهي خالية من أي إشارة إلى سماوية ونبوية الظاهرة، إلا أن الشهيد الصدر يحاول البرهنة على ذلك بتجربة داود وسليمان وموسى

ونبي الإسلام عليهم السلام فقط، في حين أن تجربتي داود وموسى عليهما السلام لا يوجد فيهما مواصفات الدولة بالمعنى المصطلح تاريخياً، علاوة على وجود ظاهرة الدولة قبل ذلك، بالإضافة إلى قصة طالوت وداود، وفرعون وموسى، أما دولة سليمان عليه السلام فإنها لا يمكن اعتبارها دولة بالمعنى المألوف، وإنما هي نموذج استثنائي تديره الجن وتشغل مواقعه الوظيفية الطيور (هدهد سليمان) وما شابه، كما أن دولة النبي صلى الله عليه وآله جاءت بعد تبلور مفهوم الدولة وتعدد التجارب السياسية تاريخياً، ولعل الشهيد الصدر كان يمكنه أن يوافينا بما هو أكثر عمقاً من ذلك وأن يشبع المسألة بحثاً لولا أن وافته المنية مبكراً، وكان بحثه الذي تضمن هذه الإشارة لنشأة الدولة قد كُتب على عجل في الأيام الأخيرة من حياته الشريفة[٧٥].

ثانياً: يؤمن الشهيد الصدر بتطور الوحي تبعاً لتطور المدركات البشرية وحاجات الإنسان، فكل نبوة هي بمستوى عصرها ومخاطبيها، وعلى هذا فالتاريخ لدى الشهيد الصدر هو مراحل النبوات المتعددة وقادتها المصلحين[٧٦]، بخلاف ابن خلدون الذي كان يرى الدولة مؤسسة بشرية تنتج عن قوى العصبية، وأن للدين تأثيراً قليلاً يشمل بعض مراحلها[٧٧]، كما أن الشهيد الصدر يؤمن بأن التاريخ البشري تاريخ صاعد لا حركة دائرية كما كان يرى ابن خلدون، لذا يعتقد الصدر بأن مشروع الدولة الإسلامية ليس قضية مرحلية بل لابد من مواصلة السعي لتحقيق هذا الهدف، لكن.. من الذي يحقق هذا الهدف؟

نجد هنا تبايناً كبيراً بين ابن خلدون والصدر حيث دعا الأول إلى عزل الفقهاء عن السياسة، بينما يرى الصدر أن الشأن السياسي من وظائف الفقيه، وهنا قام الصدر بدورين مهمين:

١ـ **التنظير للدولة**: حيث بادر إلى بلورة موقف الإسلام في بعض الحقول -كالاقتصاد- وإبرازه كأطروحة تستحق الثقة، كما قرر أن مشروعية الدولة تستمد من الحق الإلهي، غير أن هذا

لا يعني إلغاء الحريات، فقد وضع بعض ضمانات التطبيق نظير (أن السلطة التشريعية والتنفيذية قد أسندت ممارستها إلى الأمة، فهي صاحبة الحق في ممارسة هاتين السلطتين بالطريقة التي يعيّنها الدستور، وهذا الحق حق استخلاف ورعاية، مستمد من مصدر السلطات الحقيقي وهو الله تعالى. وبهذا ترتفع الأمة وهي تمارس السلطة إلى قمة شعورها بالمسؤولية ؛ لأنها تدرك بأنها تتصرف بوصفها خليفة الله في الأرض)[٧٨].

إلا أن الشهيد الصدر لم يكتف بهذا المقدار بل قام بتحويل الفقه إلى بنود قانونية، من خلال كتابته لمشروع دستور الجمهورية الإسلامية.

٢ـ **تنظيم المرجعية**: بما أن الشهيد الصدر يؤمن بأن التاريخ حركة صاعدة، لذا فهو يؤمن بضرورة العمل لتحقيق (الدولة) وإلا فسنكون قد رجعنا إلى الوراء. من هنا يؤمن بضرورة (البطل) الذي هو الفرد الراعي للأمة، وقائدها في مسيرة التغيير، فكما أن ابن خلدون يهتم بهذا البطل الصانع للدولة نجد نفس الأمر يتكرر مع الصدر[٧٩]، إلا أنه ولاهتمامه بعنصر الدين يحصر البطل في أنحاء ثلاثة، جميعها تتمثل بالقيادات الدينية، ويطلق على البطل (الشهيد)، (فالشهيد مرجع فكري وتشريعي من الناحية الأيديولوجية، ويشرف على سير الجماعة وانسجامه أيديولوجياً مع الرسالة الربانية التي يحملها، ومسؤول عن التدخل لتعديل المسيرة أو إعادتها إلى طريقها الصحيح إذا واجه انحرافاً في مجال التطبيق)[٨٠]. وهذا (الشهيد) له حضوره الفعال في جميع مراحل التاريخ ويتمثل في:

أ- الأنبياء.

ب- الأئمة ؛ الذين يعتقد الشهيد الصدر أنهم الامتداد الرباني للنبي.

ج- المرجعية ؛ التي تعتبر امتداداً رشيداً للنبي والإمام[٨١].

لكن ما الذي يقصد الشهيد الصدر بـ(المرجعية) وهل يعني الشكل المألوف لمنصب الفقاهة الذي هو دور يشبه في مستوى تنظيمه (زعيم

القبيلة) لكن يناله الأعلم لا الأقوى وقانون الأعلمية لا (العصبية)؟

لقد كان مراد الصدر من المرجعية التي تؤدي دور الشهادة غير المرجعية الدينية المألوفة، فقد كان يدعو إلى إيجاد المرجعية الرشيدة -بتعبيره- عن طريق تربية الفرد الفقيه والوسط المتدين ثم تحقيق المرجعية الموضوعية، وهي مؤسسة تتكون من عدة لجان وتشكيلات[٨٢].

إن الشهيد الصدر بهذه الطريقة لاحظ كذلك حالة عدم تشكيل الدولة الإسلامية، فحاول من خلال مشروع المرجعية الموضوعية أن يقلل من حجم الخسائر التي لا يمكن تلافيها قبل قيام الدولة، عبر تربية كل من الأمة والفقيه، لكي يكونا بمستوى النهوض للقيام بتشييد الدولة في حال حصول فرص مؤاتية.

التربية والتعليم

كان الشهيد الصدر يحرص على تربية الأمة كآلية لرفع مستواها، حتى تستوعب فكرة الدولة الإسلامية، وتنهض بمسؤولية تشكيلها ؛ لذا فإن منهجه اعتمد على:

١- سلاسة الخطاب ووضوحه.

٢- إعادة ثقة الأمة بذاتها وتزويدها بالقناعة بأن عملية الإصلاح لا تتم إذا أهملنا الدين باعتبار رسوخه في وجدان الأمة[٨٣].

٣- إصلاح وعي الأمة وتوجيهها إلى المشاكل الراهنة دون الانشغال بالقضايا التقليدية.

٤- الحرص على عمومية الخطاب دون إثارة الحزازات المذهبية[٨٤].

٥- الاهتمام بالاستفادة من الوجدانيات المؤثرة في الأمة، إلى درجة أن الشهيد الصدر ذاته قد تأثر بهذا الأسلوب أحياناً[٨٥].

٦- رغم اهتمام الشهيد الصدر برضا الله ومسألة الموت، لكنه صاغ خطاباته التربوية صياغة جعلت جميع مفاهيم الإسلام مفاهيم حياة، لكي يحفز مخاطبيه على التفاعل مع الحياة. على العكس من بعض نماذج الخطاب

الديني التي تحمل (لغة موت) تجعل الأمة تنظر إلى الأمور بتشاؤم[٨٦].

٧- اهتمام الشهيد الصدر بمسألة التدرج في التعامل مع الأمة، بخلاف من يقسو على الأمة فيباغتها ويطرح عليها نظرياته مرة واحدة، وقد استفاد الشهيد الصدر من بحوثه التاريخية، حيث لاحظ كيف أن النبي هيّأ الأذهان لاستيعاب فكرة الإمام مثلاً.[٨٧]

الأمر الذي نلاحظه ونحن ننهي هذا المدخل أن ابن خلدون حينما أراد كشف طبيعة العمران كان يهدف إلى اكتشاف سرّ نكبة الأمة وأفول الحضارة الإسلامية، وأن ذلك قاده إلى العزلة والتشاؤم، في حين أن الصدر كان يهدف من وراء اكتشافاته وأفكاره إلى معرفة سر نهضة الأمة في السابق وكيف يمكن تكرار تلك التجربة، وقاده ذلك إلى الاندماج مع الأمة والثورة وختم أمره بالشهادة[٨٨].

لكن ما حدث مع ابن خلدون تكرر مع الصدر، فكما ظلت مدرسة ابن خلدون مغيبة عن الوسط العلمي ردحاً طويلاً حتى تلقفها الغربيون، نجد أن الصدر وفكره ومدرسته لا زالت مغيبة عن ميدان البحث العلمي حتى في الحوزة العلمية التي هي محضن الشهيد الصدر، بالرغم من بعض الاهتمامات التي ظهرت مؤخراً، ولسنا ندري هل تغييب الفكر ونسيانه مسألة أصيلة في حضارتنا، أم أن للأمر ملابسات أخرى؟

الهوامش:

[١] باحث من الحوزة العلمية.

[٢] ابن خلدون، المقدمة، طهران: انتشارات استقلال، ص ٥.

[٣] م. ن، ص ٥، وص ٤٤١ وما بعدها.

[٤] م. ن، ص ٥.

[٥] م. ن، ص ٩.

[٦] م. ن، ص ١٠.

[٧] م. ن، ص ٤٤ - ٩٤، هذا بالإضافة إلى متابعته أخبار نشوء وسقوط الدول ومن خلال ذلك بنى نظريته في ولادة وموت الدولة.

[٨] م. ن، ص ٦.

[٩] راجع: د. علي الوردي في: (منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته) ود. محمد عابد الجابري في: (فكر ابن خلدون ؛ العصبية والدولة) ونقد ابن خلدون للفلسفة، ص ٥١٤ من المقدمة.

[١٠] لاحظ رأي أحمد محمود صبحي في كتابه (فلسفة التاريخ).

[١١] المقدمة، ص ٩.

[١٢] م. ن، ص ١٥.

[١٣] م. ن، ص ١٥١.

[١٤] الحصري، ساطع، دراسات عن مقدمة ابن خلدون، ص ٤٩٥ وص ١١٤، وفكر ابن خلدون ؛ العصبية والدولة.

[١٥] يبدأ ابن خلدون بطرح بحثه مقدماً له بمسألة الأعراض الذاتية وإثبات موضوع العلم الجديد، لاحظ ص ٦ من المقدمة، كما صنع الصدر في بحوثه الأصولية، لاحظ: بحوث في علم الأصول، بقلم محمود الهاشمي.

[١٦] المقدمة، ص ٢١ - ٤٢.

[١٧] م. ن، ص ٤٣.

[١٨] دراسات عن مقدمة ابن خلدون، ص ٢٢٩.

[١٩] المقدمة، ص ٨٧.

[٢٠] م. ن، ص ٤١، إلا أنه يمكن أن يقال بأن ابن خلدون نقل رأي القدماء موافقاً لهم، لكنهم جميعاً - مع ابن خلدون - لم ينتبهوا إلى أن تفسيرهم هذا إنما يعتمد على إيضاح العامل الاقتصادي.

[٢١] اقتبس العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان هذا الرأي من ناحية تأثير طبيعة الطقس على الإنسان.

[٢٢] المقدمة، ص ١٥١.

[٢٣] م. ن، ص ٥٣٩ وما بعدها.

[٢٤] م. ن، ص ١٢٢.

[٢٥] م. ن، ص ١٢٣.

[٢٦] قارن بين أحمد محمود صبحي والجابري.

[٢٧] المقدمة، ص ١٩٣ - ١٩٤.

[٢٨] م. ن، ص ١٩٥.

[٢٩] م. ن، ص ٢٠٢ - ٢٠٨، ٥٤٢.

[٣٠] م. ن.

[٣١] م. ن، ص ١٣١، ١٣٨، ١٣٩، ١٧٢، ١٥٤، ١٦٦، ١٦٧، ١٣٧، ١٧٠.

[٣٢] م. ن.

[٣٣] م. ن.

[٣٤] م. ن.

[٣٥] م. ن.

[٣٦] م. ن.

[٣٧] م. ن.

[٣٨] م. ن.

[٣٩] م. ن.

[٤٠] الجابري. مصدر سابق.

[٤١] صاحب هذا الرأي هو د. علي الوردي.

[٤٢] المقدمة، ص ٥٣١.

[٤٣] المقدمة، ص ٥٣٧ و٤٤٠، وراجع حول الموضوع الأخير عن ابن خلدون: عبدالله شريط، الفكر والأخلاق عند ابن خلدون.

[٤٤] الحصري، ص ١٧٦.

[٤٥] بحوث في علم الأصول، ج١، أما نظرياته

في تواتر الأخبار ووثاقتها فراجع ج ٤.

[٤٦] م. ن، مقدمة المقرر، وأيضاً عمار أبو رغيف، دراسات في الحكمة والمنهج.

[٤٧] مجلة قضايا إسلامية، العدد الثالث، ١٩٩٧، ص ٤٥.

[٤٨] الشهيد الصدر، اقتصادنا، ص ٤٠٠.

[٤٩] المقدمة، ص ١٩٧.

[٥٠] الشهيد الصدر، نشأة الشيعة والتشيع (بحث حول الولاية).

[٥١] قارن بين ص ٣٤ وما بعدها من المدرسة القرآنية، وبين ص ٣٩١ من اقتصادنا.

[٥٢] الأسس المنطقية للاستقراء، ص ٧٤٠.

[٥٣] الشهيد الصدر، موجز في أصول الدين، بتحقيق عبد الجبار الرفاعي.

[٥٤] راجع الدروس الأولى من المدرسة القرآنية، واقتصادنا، ص ٣٧٧ - ٣٨٤.

[٥٥] انظر مثلاً: فلسفتنا، قم، مجمع الشهيد الصدر، ١٤٠٨ق، ص ٧.

[٥٦] بحوث في علم الأصول، ص ٥٧ - ٦٢.

[٥٧] خاتمة الأسس المنطقية للاستقراء، وموجز في أصول الدين، ص ١٠٣.

[٥٨] قارن بين: المقدمة، ص ٩، وبحوث في علم الأصول، ج ٤.

[٥٩] اقتصادنا، ص ٤١٦، ٤٠٣، ٤١٥، ٤٠٤، ٤٠٧، ٤٠٩، ٤١٠.

[٦٠] م. ن.

[٦١] م. ن.

[٦٢] م. ن.

[٦٣] م. ن.

[٦٤] م. ن.

[٦٥] م. ن.

[٦٦] راجع: ولتر ستيس، الدين والعلم الحديث. ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، ومحمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود.

[٦٧] المدرسة القرآنية، ص ٤٤.

[٦٨] موجز في أصول الدين، ص ١٩٩ فما بعد، وقد أخذ هذه النظرية وتوسع فيها أبرز تلامذة الإمام الشهيد محمد باقر الصدر، وهو المرجع الشهيد محمد الصدر في كتاباته المختلفة، كموسوعة الإمام المهدي عليه السلام.

[٦٩] المدرسة القرآنية، ص ٤٨.

[٧٠] لاحظ الدراسة التي كتبها عبد الجبار الرفاعي (المدلول الاجتماعي لأصول الدين في فكر الشهيد الصدر) في مقدمة كتاب موجز في أصول الدين.

[٧١] الشهيد الصدر، بحث حول المهدي عليه السلام.

[٧٢] لاحظ مقدمة كتابه الفتاوى الواضحة.

[٧٣] موجز في أصول الدين، ص ٢٢٨.

[٧٤] اقتصادنا، ص ٤٠٠.

[٧٥] الإسلام يقود الحياة، ص ٣.

[٧٦] أخذ المرجع الشهيد محمد الصدر هذه الرؤية من أستاذه بلا أدنى إضافة، انظر: اليوم الموعود، ص ٤٦١ - ٤٦٢.

[٧٧] م. ن.

[٧٨] المقدمة، ص ٢١٨.

[٧٩] الإسلام يقود الحياة، ص١١ و١٣٤.

[٨٠] لاحظ ما ذكره صدر الدين القبانجي

بخصوص رأي الشهيد الصدر في: المذهب السياسي في الإسلام.

[٨١] الإسلام يقود الحياة، ص ١٤٥ - ١٤٤.

[٨٢] م. ن.

[٨٣] مباحث الأصول، بقلم السيد كاظم الحائري، وهي تقرير دروس الشهيد الصدر، ج١، ص ٩٨.

[٨٤] لاحظ مقدمة كتاب اقتصادنا.

[٨٥] انظر مثلاً: المحنة، مؤسسة الرسالة الإسلامية، ص ٤٩.

[٨٦] لاحظ محاضرته في حب الدنيا، المحاضرة الرابعة عشرة من المدرسة القرآنية.

[٨٧] قارن بين أسلوب الشهيد الصدر في عرض مفهوم (الجهاد الأكبر) وبين الآخرين مثلاً.

[٨٨] قارن بين ما ذكره في مباحث الأصول، ص ٩٣، وبين بحث حول الولاية، وبحث حول المهدي عليه السلام.

الفيزياء الحديثة وأدلة وجود الله تعالى

❖ د. عبد الحكيم النقيدان [1]

(١) باحث وأكاديمي / الخليج.

تخيل أنك دخلت غرفتك المغلقة منذ يومين فإذا بك تفاجأ بأن هناك طبقٌ من الطعام موضوعاً على الطاولة، وعندما تفحصت هذا الطبق وجدت أنه ساخن مما يعني أن هناك شخصٌ ما دخل غرفتك حال غيابك ووضعه بما لا يزيد عن الساعة تقريباً، وعندما فتحت هذا الطبق وجدت فيه طعامك المفضل الذي تحب ! ستستنتج من هذا الحدث أمرين، الأول أن غرفتك المغلقة تم فتحها قبل ساعة، والثاني: أن من فتحها إنسان عاقل ذكي لديه معرفة عنك.

هذا المثال البسيط ربما يوضح ما نحن بصدد الحديث عنه في هذا المقال عندما أشارت الكشوف العلمية الحديثة إلى ظهور هذا الكون للوجود منذ قرابة ١٣،٧ مليار سنة عبر تفجّر هائل (المليار = ألف مليون)، وأن هذا التفجّر تم بطريقة فائقة الدقة والضبط تضمن توفر الظروف الملائمة لوجودنا.

كيف دعمت الفيزياءالحديثة أدلة وجود الله؟ من أشهر الأدلة العقلية على وجود الله:

١- دليل الحدوث، أو ما يسمى في الثقافة الغربية بالحجة الكونية:. **The Cosmological Argument** ٢- دليل الإتقان أو ما يسمونه بحجة التصميم:. **The Design Argument** وهذان الدليلان رغم قدمهما وبساطة مقدماتهما إلا أنهما من أقوى الأدلة العقلية على وجود الله، ومنذ القرن الماضي جاءت الفيزياء الحديثة لتعزز معطيات هذين الدليلين تعزيزاً لم

يسبق له مثيل، فالدليل الأول دعمه القانون الثاني للديناميكا الحرارية ونظرية الانفجار العظيم **Big Bang Theory**، والثاني دعمته فكرة الضبط الكوني الدقيق **Fine-Tuning**.

حُجة الحدوثهذه الحجة عمل على شهرتها حديثاً الفيلسوف الأمريكي ويليام لان كريغ بعدما أخذها من التراث الإسلامي وأسماها (الحجة الكلامية الكونية): **Kalam cosmological argument** وهي تتكون من مقدمتين ونتيجة: - المقدمة الأولى: كل حادث له بداية فلابد له من مُحدِث. - المقدمة الثانية: هذا الكون حادث وله بداية. - النتيجة: هذا الكون لابد له من مُحدِث أعظم منه وخارجه، وبتعميم هذه القاعدة ومع استحالة تسلسل الأسباب إلى مالانهاية: فلا بد من وجود مُحدث أزلي (أي موجود دوماً وأزلاً بلا بداية) ولذلك لا تنطبق عليه قاعدة كل حادث له بداية لا بد له من مُحدِث.

وبذلك نصل إلى الإيمان بالخالق الذي هو الله عز وجل. فما أضافته الفيزياء الحديثة في هذا العصر هو تقديمها أدلة تجريبية مادية تدعم المقدمة الثانية (وهي أن هذا الكون بدأ في لحظة معينة) وأنه ليس كوناً أزلياً ممتداً في الماضي كما كان التصور السائد سابقاً خصوصاً في الثقافة الأوروبية المتأثرة ببقايا الفلسفة اليونانية.

وقد بدأت فكرة وجود بداية للكون عندما صاغ علماء الفيزياء في القرن التاسع عشر قوانين الديناميكا الحرارية والتي تحدد سلوك وخواص انتقال الطاقة. حيث يقرر القانون الأول أن الحرارة تنتقل من الجسم الساخن إلى البارد - وليس العكس - حتى يصل الجسمان إلى حالة الاتزان الحراري، وهذا يعني أنه لو كان الكون أزلياً فإنه يجب أن يكون قد وصل إلى حالة الاتزان الحراري، لذلك لا بد أن الكون ليس أزلياً. أما القانون الثاني فينص على أن الاضطراب (الانتروبي) **Entropy** لنظام مغلق - مثل هذا الكون - يتزايد ولا يتناقص مع مرور

الزمن (ويرمز لزيادة العشوائية والتفكك مثل نقطة حبر في الماء أو فقدان حرارة كوب ساخن إلى الهواء). وهي عملية طبيعية تتم بتلقائية دون التدخل من أحد أو بذل شغل لفعلها، فأنت عندما تترك غرفتك لفترة طويلة، فإنها تبدأ تلقائياً بفقدان سماتها تدريجياً مع مرور الزمن، فطلاء الجدران مثلاً يبدأ في الشحوب والتساقط، أيضاً أعمدة السرير الحديدية تبدأ في الصدأ والتآكل، والخشب كذلك يصبح رقيقاً ويبدأ في التكسر، ولن تستعيد الغرفة شكلها السابق من نفسها أبداً، بل يجب أن تتدخل أنت وتقوم بترميمها (أي تبذل طاقة وشغل خارجي).

ونحن نلاحظ أن كوننا الآن يتجه إلى المزيد من الاضطراب والعشوائية (أي يتجه إلى زيادة الانتروبي) الأمر الذي يدل على وجود بداية له ذات انتروبي منخفض. أما الدليل الثاني على حدوث الكون فقد ظهر في بدايات القرن العشرين، حيث بدأ عندما صاغ أينشتاين نظريته في النسبية العامة، ووجد أن الكون يجب أن يكون في حالة تمدد مستمر وليس ساكناً، لذلك قام بتعديل حساباته وأضاف ثابتاً رقمياً لمعادلاته سماه الثابت الكوني من أجل أن تتسق معادلاته مع فكرة الكون المستقر الأزلي: **Steady State Theory** والتي كانت هي النظرية السائدة آنذاك - وهذا أحد أكبر أخطائه كما اعترف بنفسه بعد ذلك -.

ثم تلا ذلك اكتشاف ظاهرتين طبيعيتين أحدثتا ثورة على فكرة الكون المستقر وهما:

١- ظاهرة انزياح طيف الأجسام السماوية البعيدة نحو اللون الأحمر - على يد الفلكي إدوين هابل - وهو ما يدل على أن الأجرام السماوية في حركة تباعد مستمر. وأما الظاهرة الثانية فهي اكتشاف الأشعة الميكرو-ويفية التي تملأ الكون، والتي وجد العلماء أنها من بقايا الانفجار العظيم الذي وقع في بداية الكون. وقد أدى هذان الاكتشافان إلى استبعاد نظرية الكون المستقر والتي تتضمن أزلية الكون، واستبدالها بنظرية الانفجار

العظيم. تقول نظرية الانفجار العظيم أن الكون (بما فيه من زمان ومكان) بدأ من نقطة واحدة تسمى متفردة **Singularity**. حيث كان الكون كله (بما فيه أنا وأنت والأرض والنجوم) متركزاً ومضغوطاً في تلك النقطة الصغيرة بكثافة عالية جداً، والتي في لحظة ما منذ قرابة ١٣، ٧ مليار سنة انفجرت بدرجة حرارة عالية جداً - تقدر بعشرة مليار درجة مئوية في الثانية الأولى - وتمددت لينشأ عنها كوننا الجميل. ورغم أن هذه النظرية كانت غير مُحبذة من قبل الفيزيائين في بادئ الأمر نظراً لحمولتها الفلسفية والميتافيزيقية (أي الخارجة عن العالم المحسوس)، إذ مع إقرارها بأن للكون بداية فإن هذا يؤدي إلى فتح صندوق من الأسئلة من قبيل: من الذي بدأه؟ من أين جاءت مادته؟ لماذا بدأ في تلك اللحظة بالذات لا قبلها ولا بعدها؟ وغيرها من الأسئلة المزعجة للوسط العلمي الذي يحاول البعض فيه استبعاد أي مبحث ما وراء العالم المادي أو المحسوس. إلا أن نظرية الانفجار العظيم هي النظرية السائدة الآن عند الفيزيائين في هذا العصر نظراً لوجود أدلة كثيرة تدعمها. ويعبر الفيزيائي الملحد ستيفن هوكنج عن حالة الاستياء هذه بقوله: "كثير من الناس غير سعداء بفكرة وجود بداية للكون، فهي تعني وجود موجود فوق طبيعي خلق الكون. لقد فضلوا أن يؤمنوا أن هذا الكون والبشر أزليين"[١].

لذلك نجد أن بعضهم حاول الالتفاف على نموذج حدوث الكون بافتراضات متعددة - مثل وجود عدة انفجارات متعاقبة لا متناهية (وهو نموذج الكون المتذبذب) من أجل الحفاظ على أزلية الكون، لكن لا تزال هذه الفرضيات غير قابلة للاختبار والفحص، بل هي عاجزة عن إثبات أزلية الكون كما يقول عالم الفيزياء الكونية ألان غوث: "رغم كل الجهد الذي بذله علماء الفيزياء لبناء بديل، إلا أن كل النماذج لها بداية"[٢].

حجة التصميم يسمى هذا الدليل في التراث الإسلامي بدليل العناية، وهو يقرر أن هذا الكون مُسخر ومُقدر

من أجل الوجود الإنساني الواعي، أو كما يقول فريمان دايسون: "كلما فحصت الكون أكثر ودرست تفاصيل بنائه، وجدت دلائل متنامية على أن الكون بمعنى من المعاني يعلم أننا قادمون"[٣]. وهذا الدليل ينطلق من فكرة أن ذلك الوجود فيه من مظاهر الإتقان والتعقيد والدقة والجمال والضبط ما يدل على أنه مُقدر لغاية وهدف (وهو معنى كلمة التصميم المراد هنا)، حيث لا يمكن له أن ينشأ بالصدفة، فالصدفة لا يمكن لها أن تنتج تركيباً منظماً أو غائياً كهذا الذي نراه أمامنا، لذلك لابد أن صانعاً خلفه: فائق العلم والقدرة، وهنا نستحضر المثال اللطيف الذي قدمه وليام بيلي في كتابه صانع الساعات، حيث يقول: "لنفترض أنك تمشي في البرية ووجدت ساعة ملقاة على الأرض، فإن الساعة بتعقيدها ودقة صناعتها تجبرك على الاعتقاد أنها لها صانع صنعها لغرض وقصد".

عندما حسب عالم الفيزياء الفلكية الشهير لي سموليان **Lee Smolin** احتمالية تكون النجوم في كوننا، وجدها ١ إلى ١٠ أس ٢٢٩ (يعني ١ وأمامه ٢٢٩ صفراً وهو رقم مهول للغاية يُعبر عن مدى دقة الكون) فقال معلقاً على ذلك: " في رأيي، احتمالية بهذه الدقة ليست شيئاً يمكننا تركه بغير تفسير، من المؤكد أنه لا فِعل للحظ هنا، نحن بحاجة إلى بعض التفسير العقلاني لكيفية تحول هذا الأمر غير المرجح إلى التحقق ".

لقد جاءت الفيزياء الحديثة لتُدعّم معطيات هذا الدليل دعماً لم يسبق له نظير، حيث أن دراسات نشأة الكون وما يحويه من مظاهر معقدة كالكائنات الحية أظهرت أن الشروط الأولية (أي القوانين والثوابت الفيزيائية) التي وجدت مع نشأة الكون تتطلب دقة فائقة جداً في وضعها وضبطها، وأن أي خلل ولو كان طفيفاً في تلك القوانين والثوابت فإنه سيؤدي إما إلى عدم نشوء الكون بالكلية، أو إلى نشوئه نشأة لا تسمح بظهور الحياة فيه. فمثلاً ؛ لو كانت سرعة الاتساع الكوني في الثانية الأولى بعد الانفجار أبطأ من

قيمتها بمقدار جزء من مليار مليار جزء لانهار الكون على نفسه بسبب قوة الجاذبية ولم يظهر إلى الوجود، ولو كان أسرع قليلاً لتناثرت مادة الكون وتشتتت ! كذلك نجد أن عدد الإلكترونات والبروتونات في الدقائق الأولى من الانفجار العظيم مضبوط بدقة كبيرة جداً بحيث لو زاد أو نقص لما نشأت مادة الكون ! أيضاً درجة حرارة الكون مضبوطة بدقة كبيرة في اللحظات الأولى للانفجار حتى تضمن تشكيل أهم عنصرين في هذا الكون وهما: الهيليوم والهيدروجين. كذلك هناك ما يسمى بالثوابت الكونية (مثل ثابت الجاذبية، ثابت بلانك، سرعة الضوء، كتلة الإلكترون وغيرها) نجد أنها ذات قيم محددة جداً. فمثلاً يقول الفيزيائي النظري الاسترالي برندون كارتر: "أنه لو تغير ثابت الجاذبية بمقدار واحد على عشرة ديوديسلون (١ ديوديسلون = ١ أمامه ٣٩ صفراً) لما كانت الشمس موجودة، ولما أصبحت الحياة على الأرض ممكنة"[٤].

وهناك أمثلة كثيرة جداً على هذا الضبط والدقة (للاستزادة: راجع كتاب "فقط ستة أرقام" لـ مارتن ريس - ترجمة ونشر مركز براهين، وكتاب "الصنع المتقن" لـ مصطفى نصر قديح - نشر مركز دلائل).

وسوف أضرب مثالاً لعله يقرب الصورة ؛ تخيل أنك تريد أن تركّب جهازاً يتكون من عشر قطع، وكل قطعة موجودة في حقيبة مقفلة برقم سري لا تعرفه مكون من ثلاث خانات، ويجب عليك أن تفتح الحقائب العشرة كلها من أول محاولة فقط وتخرج قطع الجهاز وتقوم بتركيبها مباشرة وإلا فشل الجهاز. كم ستكون احتمالية نجاحك في هذه المهمة؟ لا شك أنها ضئيلة جداً، فنسبة نجاحك في الحقيقة تساوي واحد من ترليون ترليون محاولة (التريليون = مليون مليون) !

والآن... تخيل أن هذا الجهاز يتكون من ٤٠٠ قطعة، وكل قطعة موجودة في حقيبة مقفلة برقم سري لا تعرفه مكون من ٣ خانات، وعليك أن تتمكن من إيجاد الرقم السري لكل

حقيبة وفتحها كلها من أول محاولة فقط لتركيب الجهاز ! كم هي شبه مستحيلة أن تتم هذه العملية في الحقيقة. فأنت سوف تحتاج إلى عدد من المحاولات يساوي الرقم: واحد وأمامه ١٢٠ صفراً ! وهذا الرقم أكبر من عدد كل جسيمات الكون كله بـ ترليون ترليون ترليون مرة ! هذا تقريب مبسط في الحقيقة لموضوع الثوابت الفيزيائية التي ظهرت قيمها مع بداية نشأة هذا الكون. طبعاً نحن نتكلم عن احتمال نشوء الثوابت الكونية فقط، ولم نتطرق لاحتمال نشأة الحياة في هذا الكون بالصدفة والتي تفوق هذا الرقم بما لا يمكن التعبير عنه بالكلمات.

وكما أن بعض الملحدين حاول الهرب من فكرة حدوث الكون كما ذكرنا آنفاً، فإنهم حاولوا أيضاً التقليل من شأن الثوابت الكونية وحاجتها لمصمم، وذلك بافتراض نسخ متعددة لانهائية من الأكوان التي تظهر بالصدفة، وكل كون لديه ثوابته وقوانينه الفيزيائية الخاصة به، وأن كوننا هذا أحدها، لذلك لا حاجة لمصمم، بل الأمر كله مجرد صدفة (سعيدة الحظ) كما يعبر أحدهم ! ولا شك أن هذا الافتراض غير علمي أولاً - نظراً لعدم قابليته للاختبار - وفي نفس الوقت هو لا ينفي الحاجة لإله أيضاً. ولا يخفي الملحدون في الحقيقة امتعاضهم من وجود مثل هذه الثوابت الدقيقة للكون، حيث يقول عالم الجينات الشهير فرانسيس كولينز أن كبير الملحدين ريتشارد دوكنز اعترف له في محادثة أنه "منزعج من فكرة الضبط الدقيق للكون" ويرى أنها "صعبة التفسير"[٥] ! كذلك يعلق الفيزيائي الملحد الشهير ستيفن وينبرغ عن هذا الأمر بقوله: "لا ينبغي لأحد أن يستهين بالورطة التي نحن فيها" ![٦][٧] كلمة أخيرة... يُخطئ من يظن أن العلوم الطبيعية مثل الفيزياء وغيرها يدخل في اختصاصها (تأكيد وجود الله) عن طريق (قياس الأشياء المادية) التي تتعامل معها، فكيف هذا والله نفسه خالق المادة ومتعالي عليها سبحانه؟ كيف هذا وهو لا تدركه الأبصار؟ كيف

هذا ولا يستطيع أحد الإحاطة به عز وجل؟ إذاً... نطاق عمل العلوم الطبيعية وبحثها هو في كيفية عمل السنن الكونية والقوانين التي أودعها الله في الكون لتسييره، مثل كيف ينزل المطر وكيف تتحرك الرياح والسحب، ولا يعني وصول الإنسان إلى فهم هذه السنن والقوانين أن ذلك (ينفي) وجود المُسنن والمُقنن لها، وإلا لصار مثل الذي فهم كيف تعمل قوانين المرور مثلاً فاستنتج من ذلك أنها ليس لها واضع أو مُشرع ! أو درس الهاتف المحمول فلما فهم كيفية عمله استنتج من ذلك أنه ليس له صانع !

المراجع:

١. http: //www. hawking. org. uk/the-beginning-of-time. html
٢. Alan Guth، Eternal Inflation p ١٣
٣. Freeman Dayson، Disturbing the Universe p. ٢٥٠
٤. Paul Davies، Superforce
٥. http: //www. christianpost. com/news/francis-collins-atheist-richard-dawkins-admits-universes-fine-tuning-difficult-to-explain-٥١٤١٦
٦. https: //www. youtube. com/watch?v=inw٤٨Ulv٢T٤